الموقع الالكتروني : www.lixus-magazine.net
البريد الالكتروني : Lixus@maroc-histoire.com

مجلة ليكسوس

العدد 22
مارس 2018م

مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية
مدرجة ضمن قائمة دوريات بيانات HumanIndex دار المنظومة DAR ALMANDUMAH

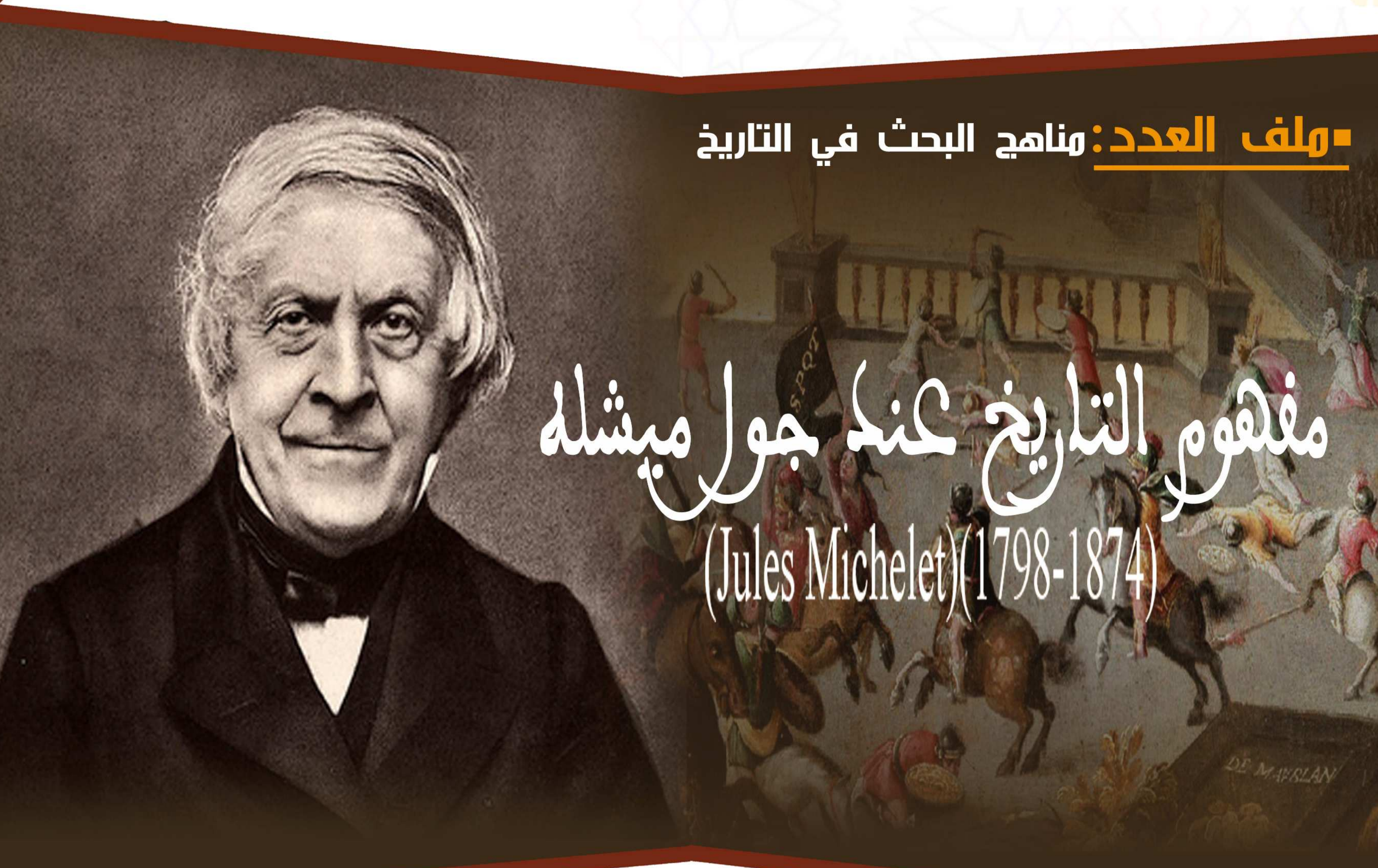

▪ملف العدد: مناهج البحث في التاريخ

مفهوم التاريخ عند جول ميشله
(Jules Michelet)(1798-1874)

▪محتويات العدد:

▪تاريخ الأندلس: أطباء مملكة غرناطة
▪تاريخ مدينة جربة التونسية
▪قراءة في كتاب: المرابطون، الدولة، الاقتصاد، المجتمع
▪أعلام مغربية: أحمد ابن أبي محلي السجلماسي -الشيخ الأمين الرُّوسِي الحسني.
▪ مواقع أركيولوجية مغربية: موقع تمودة - قصبة سلوان
▪التدخل الأجنبي: التسرب الأوربي بأيت باعمران - المعاهدات والسيادة المغربية
▪تاريخ الأطلس الكبير الغربي: القايْدية و ظاهرة "تيرّوُيْسا"
▪الحرف والصناعات التقليدية في غمارة.

المدير المسؤول: محمد أبيهي

من ثمرات المطابع

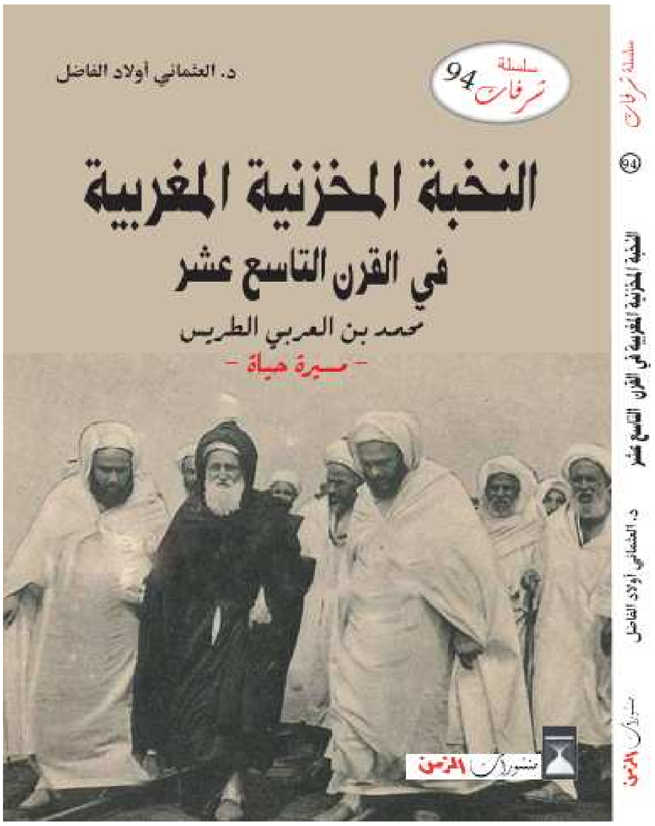

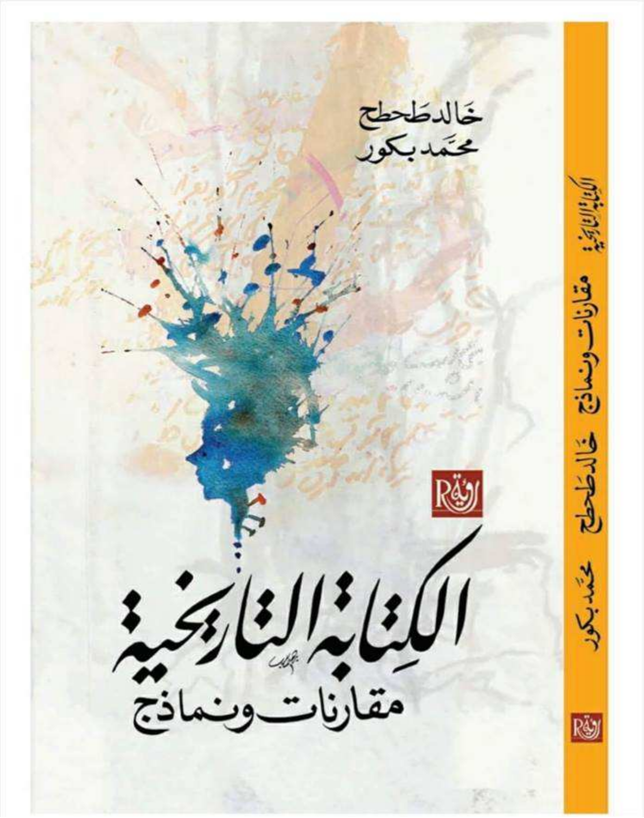

الهيئة العلمية

ـ دة.خديجة الراجي
ـ أستاذة التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بشعبة التاريخ
ـ جامعة ابن زهر بأكادير ـ باحثة متخصصة في تاريخ الجنوب المغربي.
ـ عضوة هيئة التحرير ومنسقة محاور المجلة. البريد الالكتروني:khadija_rajy@yahoo.fr

ـ د.خالد الصقلي
ـ أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس -شعبة التاريخ
ـ باحث متخصص في تاريخ المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:sqallikhalid@hotmail.com

ـ د.المرون مصطفى
ـ أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
ـ باحث متخصص في تاريخ شمال المغرب.
ـ عضو هيئة التحرير. البريد الالكتروني:mustaphaelmerroun@yahoo.es

ـ د.محمد أبيهي
- باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير ومدير المجلة البريد الالكتروني:lixus@maroc-histoire.com

ـ د.مصطفى الريس
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة أبي شعيب الدكالي بالجديدة.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني mustapharais149@gmail.com

ـ د.خالد أوعسو
ـ باحث في تاريخ المغرب المعاصر
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة محمد الخامس بالرباط.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: ouassouk@yahoo.fr

ـ د.عبد الرزاق السعيدي
- باحث في تاريخ المغرب الوسيط
ـ حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة سيدي محمد بن عبد الله ـ فاس.
ـ عضو هيئة التحرير البريد الالكتروني: saidiabonihal@gmail.com

حمل جميع أعداد المجلة عبر الموقع www.lixus-magazine.net البريد الالكتروني:lixus@maroc-histoire.com

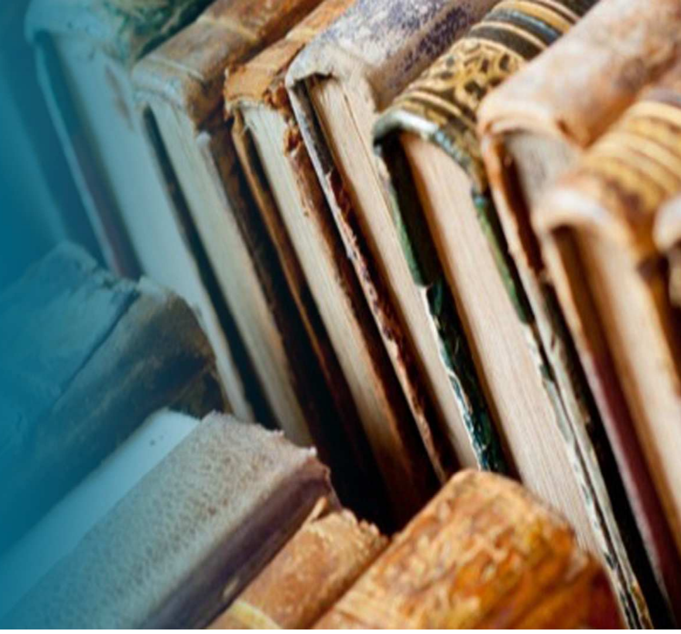

فهرس المحتويات

الموضوعات:	الصفحة
■الافتتاحية:	5
■ ياسين زينون،مفهوم التاريخ عند جول ميشله – ملف العدد	7
■Njim Adel, MOBILIERS CULTUELS DE JERBA (Tunisie) D’UNE TRÈS HAUTE ANTIQUITÉ	20
■ عادل جاهل،جانب من التأثير الثقافي والروحي لعلماء مغاربة في المشرق العربي(أحمد ابن أبي محلي السجلماسي نموذجاً)	30
■معادل البكوري،الحرف والصناعات التقليدية في غمارة خلال الفترة المعاصرة.	38
■ عبد الصمد المنصوري،من أعلام شمال المغرب : الشيخ الأمين الرُّوسِي الحسني وإسهاماته الفكرية والثقافية.	46
■ يماني رشيد،مواقف أطباء مملكة غرناطة من وباء منتصف القرن الثامن الهجري.	54
■ هشام الجعادي، دور المعاهدات في تسييج السيادة المغربية خلال القرن التاسع عشر.	65
■كريم بوريش،الصراع الأوروبي حول السواحل الجنوبية المغربية: نموذج أيت باعمران.	72
■فطيمة الكنوني،قراءة في كتاب:المرابطون، الدولة، الاقتصاد، المجتمع لـ د.حسن حافظي علوي	80
■منير حداد،البناء الموري بالموقع الأثري تمودة: دراسة وصفية لبعض التقنيات.	89
■ حكيمة جميل،التراث المعماري بإقليم الناظور.	95
■ محمد أقديم،القايْدية و ظاهرة "تيرّوُيْسا" و المسكوت عنه في شعر الرّايس الحاج بلعيد.	100

الإفتتاحية

د.محمد أبيهي
مدير مجلة ليكسوس
الالكترونية

لقد بدأ هذا المولود الالكتروني بإمكانيات متواضعة لهدف رسم معالم خط تحريري، واستطاع أن يوصل إسهامات الباحثين الشباب في التاريخ على نطاق واسع، فرغم ما يقال عن هذه التجربة من كونها لا تستجيب للمعايير العلمية المتعارف عليها،ولكونها عفن فكري، فمجهودات طاقم المجلة المتكون من أساتذة جامعيين وباحثين مرموقين في التاريخ، في اختيار المواضيع العلمية ذات العلاقة بتاريخ المغرب والمغارب مبني على رؤية علمية، وذلك من أجل جعل هذه المجلة الفتية مرجعا تاريخيا لطلاب العلم والباحثين في حقل الدراسات التاريخية بالمغرب وخارجه، فلقد استقبلت المجلة منذ تأسيسها المئات من المقالات العلمية، التي تناولت قضايا تاريخ المغرب والمغارب، كما تضمنت إسهامات في مناهج التاريخ والعلوم الإنسانية، وسعت من خلال ذلك الى جعل هذه المجلة منبرا للباحثين الشباب والمهتمين، وبهذه المناسبة أود أن أوجه شكري الخاص لكل المساهمين في هذه المجلة، وعلى ثقتهم في هذا المنبر العلمي.

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم هذا العدد من هذه المجلة الالكترونية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على كل مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيمانا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة بيبلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، وذلك لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية.

وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد المقبل من هذا المولود الالكتروني، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة لدى جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية.

دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH

مجلة ليكسوس توقع اتفاقية تعاون مع دار المنظومة للنشر

وقعت اتفاقية تعاون بين قاعدة البيانات الإلكترونية دار المنظومة ومجلة ليكسوس الإلكترونية على هامش المعرض الدولي للنشر والكتاب بمدينة الدارالبيضاء يوم الثلاثاء 18 فبراير 2018م، وبموجب هذا التعاون سيتم إدراج مجلة ليكسوس ضمن قاعدة بيانات دار المنظومة المتخصصة في النشر الإلكتروني للدوريات العلمية المتخصصة والمتكونة من أزيد من 521 مجلة،مع إحتفاظ مجلة ليكسوس بكامل حقوقها الفكرية وإستقلالية خطها التحريري تحت إشراف هيئة علمية واستشارية متخصصة في الدراسات التاريخية.وسيمكن هذا الولوج الإلكتروني من التعريف بمجلة ليكسوس على نطاق واسع لدى عموم القراء والباحثين بالعالم العربي.وقد حضر هذا اللقاء ممثل عن دار المنظومة بالمغرب ومدير مجلة ليكسوس السيد محمد أبيهي والسيد مصطفى الريس عضو هيئة التحرير.وكما أجدد الشكر لكل الباحثين المساهمين في المجلة منذ تأسيسها.فبفضلكم تكبر الفكرة من أجل الرقي بالنشر الإلكتروني بالمغرب.

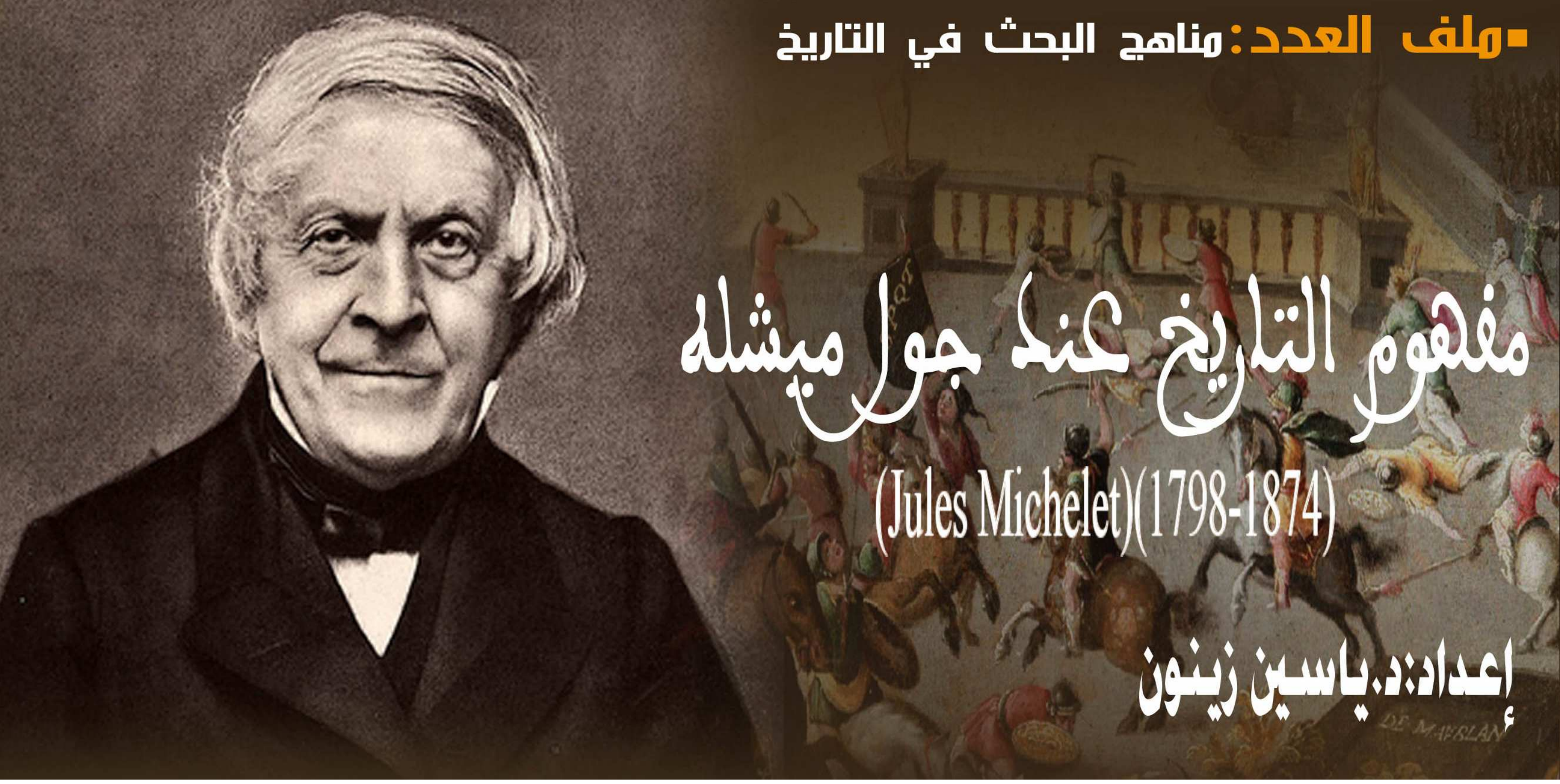

مفهوم التاريخ عند جول ميشله

(Jules Michelet)(1798-1874)

إعداد: د. ياسين زينون

وُلِدَ جول ميشلِه Jules Michelet في 21 غشت 1798 بمدينة باريس ، و عاش طفولة طبعها الفقر والحرمان. وبعد أن أتم تعليمه الابتدائي وَلَجَ مع نهاية عام 1812 ثانوية شارلمان Charlemagne التي نبغ فيها بين أقرانه، إذ حصل في غشت سنة 1816 على ثلاث جوائز في الامتحان العام، هي: جائزتا المقالة الفرنسية والترجمة اللاّتينية والجائزة الثانية في المقالة اللاّتينية. وعقب حصوله على الباكالوريا في الآداب في 8 ماي1817 التحق مع متم سنة 1817 بكلية الآداب السوربون ، فأحرز في يونيو 1818 على الإجازة في الآداب، ثم على الدكتوراه في الآداب سنة 1819 منجزا أطروحتين، عنواناهما: "حيوات بليطرك" "Les Vies de Plutarque" و "فكرة اللاّنهائي انطلاقا من لوك" "L'idée de l'infini d'après Locke" .

مع مستهل سنة 1821 عمل ميشلِه كمعيد بكوليج شارلمان ، وعيِّن في نونبر سنة 1822 أستاذا للتاريخ بكوليج سانت بارب Collège Sainte - Barbe، فضمن دخلا قارا ساعده على تحسين وضعه المعيشي هو الذي نشأ وشَبَّ فقيرا وعلى الزواج من بولين روسو Pauline Rousseau(؟ - 1839) في 20 ماي 1824. ولقد تزايدت مداخيله في هذه الفترة من بيع بعض مؤلفاته المدرسية من قبيل: "جدول كرونولوجي للتاريخ المعاصر" " Tableau chronologique de l’histoire moderne" (1825)، و"خطاب حول وحدة العلم" " Discours sur l’unité de la science"(1825) و"جداول متزامنة للتاريخ المعاصر1453-1648 " "Tableaux synchroniques de l’Histoire moderne 1453-1648" (1826). في 3 فبراير 1827 التحق بالمدرسة العليا للأساتذة كأستاذ للتاريخ والفلسفة، وأصدر خلال الفترة الممتدة بين عامي 1827و1831 ثلاثة مؤلفات هي : "مبادئ فلسفة التاريخ، مترجمة عن العِلم الجديد لڤيكو" Principes de la philosophie de l'histoire traduits de la Sciensa Nueva de vico"(1827). و"موجز التاريخ المعاصر" "Précis de l'histoire moderne" (1828) و"مدخل إلى التاريخ العالمي""Introduction à l’histoire universelle" (1831)،الذي تجلت فيه ملَكات الكاتب الأدبية وقناعته بأن التاريخ ماهو إلاّ صراع مستمر بين الحرية و القدر.

بعيد ثورة يوليوز شرع هذا المؤرخ في كتابة مؤلفه : "تـاريخ فرنسا" " Histoire de France" الذي استغرق في إنجازه ثلاثين سنة، وأصدره خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1833 و1867 في سبعة عشر جزءا تناولت تاريخ فرنسا منذ ما قبل التاريخ حتى عشية الثورة الفرنسية. وبوساطة من جيزو Guizot(1787-1874) عُيِّنَ في 21 أكتوبر1830 رئيسا لقسم التاريخ بالأرشيفات الوطنية، وصار في 9 يناير 1834 أستاذا بجامعة السوربون مستفيدا في ذلك من علاقاته المتميزة ببعض المقربين من لويس فيليبLouis Philippe(1773-1850)، وهي ذات العلاقات التي خَوَّلَتْهُ التعيين بكوليج دوفرانسCollège de France ابتداء من 8 يناير 1838 كأستاذ بمنبر" التاريخ والعبرة". بَيدَ أن دفاعه في محاضراته بهذه المؤسسة عن المبادئ والمكتسبات الحداثية وانتقاده المعلن للقوى الموروثة عن النظام القديم ، جلب عليه نقمة هذه القوى التي استصدرت في11 أبريل 1852من حكومة الإمبراطورية الثانية أمرا بالإيقاف النهائي لمحاضرات منبر "التاريخ والعبرة" - وهي المحاضرات التي سبق توقيفها مؤقتا بتاريخ 2 يناير1848 و 13 مارس 1851- عقب ذلك عُزِلَ ميشلِه في 9 يونيو 1852 من منصبه كرئيس لقسم التاريخ بالأرشيفات الوطنية، بعد رفضه أداء قسم الولاء للإمبراطور لويس نـابليون بونابرتLouis Napoléon Bonaparte(1808-1873)، فتفرغ للتـأليف، مواصلا إتمام مؤلَّفيه: تاريخ فرنسا(1833-1867)، وتاريخ الثـورة الفـرنسية Histoire de le Révolution Française(1847-1853).

بتأثير من زوجته أتينـــاييس ميـــالري Athénaïs Mialaret (1826-1899) انصب اهـتمام هـذا المـؤرخ منذ منتصف خمسينات القرن 19 على دراسة التاريخ الطبيعـي، فـألَّف مجموعـة مـن الكتـب في هـذا الإطار ،هـي: "الطائر" "L'Oiseau"(1856) و"الحشرة""L'Insecte" (1857) و "البحـر" "La Mer" (1861) و "الـــــــجبل" La "Montagne" (1868). و كانت الحرب الفرنسية البروسية لـ 1870-1871 الحدث البـارز الأخير الـذي عـاصره هـذا المؤرخ، ولقد تناوله بالدرس والتحلـيل في مؤلـفه : "فرنسا أمـام أوربـا" "La France devant l'Europe" الـذي ألفه إبّان هذا النزاع المسلح وأصدره في 27 ينـاير 1871. عقـب ذلـك عكـف علـى كتابـة مؤلفـه: "تـاريخ القـرن 19" "Histoire du XIX siècle"، فأصدر جزأيه الأول والثاني على التوالي في 3 أبريل و دجنبر 1872، أما الجزء الثالـث فَوُجِدَ مخطوطا مكتملا على مكتب ميشلِه حين وفاته بهيريس Hyères في 9 فبراير 1874.

مفهوم التاريخ عند جول ميشله:

شغل التأليف التاريخي حيزا كبيرا في إنتاجات ميشله الفكرية، لدرجة اشتهر معها كمؤرخ أكثر من اشتهاره كمفكر أو أديب. وأول ما اتجه ميشله إلى ميدان التأليف التاريخي أبدى اهتماما خاصا بتجديد الكتابة التاريخية. تأتي هذه المساهمة لدراسة مفهوم التاريخ لدى هذا المؤرخ باعتباره أحد تجليات هذا التجديد، فكيف تصور ميشله التاريخ؟

يتمثل مفهوم التاريخ عند ميشله في البعث الشامل للماضي[1]، " تَظَلُّ قضيتي التاريخية الموضوعة كبعث شامل للحياة ليس في مستوياتها السطحية ولكن في تركيباتها الداخلية والعميقة، أكثر تعقيدا وإثارة للفزع، فأي رجل عاقل لم يفكر في قضية كهاته، فلحسن حظي لم أكن ذلك الرجل. "[2] . فانطلاقا من هذا التعريف يتبين لنا أن منهجية الكتابة التاريخية عند هذا المؤرخ تنبني على عنصرين رئيسين هما: الشمولية والتركيب.

1- للمزيد حول نظرية البعث الشامل للماضي عند ميشله،راجع:

Roland Barthes, *Michelet*, Paris, Seuil, 1995 ,"*Michelet mangeur d'Histoire* ", p.19-27.

2- Jules Michelet, *Histoire de France*, T.I, *Moyen Age*, Paris, Ernest Flammarion, 1893,Préface de 1869, p. IV.

➢ الشمولية: إنها منهجية لا تكلف المؤرخ بإعادة الحياة إلى إحدى الأنشطة الإنسانية عوض الأخرى: كالنشاط السياسي أو القانوني أو الديني، " إنني أكتب تاريخا عاما وليس تاريخا خاصا بملك معين، بحيث يتعين علي أن أجمع في جزء واحد الفترة الممتدة بين سنتي 1661 و1690 المليئة بالأحداث والعقود الدينية والسياسية والمؤلفات الأدبية ... للحياة طبيعة سامية لا غنى لها عنها، فهي لا تكون حياة حقا إلاّ إذا كانت تامة، طالما أن أعضاءها المتحدة لا تتحرك إلاّ مجتمعة..." [1].

ويبين هذا المؤرخ أن التاريخ يهتم بالنشاط الإنساني في كل تجلياته، سواء تعلق الأمر بالدساتير السياسية والكنسية أو الديانات والفلسفات أوالإبداعات الفنية والأعمال الأدبية أو الأنشطة الاقتصادية والاكتشافات العلمية[2]،مما يفرض على المؤرخ تتبع الحقيقة التاريخية في مختلف قنواتها، ويحتم عليه التوفر على معرفة تاريخية واسعة بخصوص الموضوع الذي يدرسه، وقيامه بعمل دقيق لبعث هذه الحقيقة في مختلف مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وتحديد التأثيرات المتبادلة لمختلف القوى الفاعلة فيها[3].

ويؤكد ميشله على أن خضوع الحقيقة التاريخية لمقاربة دقيقة من هذا القبيل يعيد إليها الحياة، لذلك دعا إلى ضرورة مقاربة الحقائق التاريخية في شموليتها، " على هذا الأساس فكل شيء أولا شيء، فلإيجاد الحياة التاريخية فإنه يتعين تتبعها بصبر في كل قنواتها وأشكالها وعناصرها، ولكن يجب أيضا بصبر أكبر إصلاح وإعادة التأثير المتبادل لهذه القوى المختلفة في إطار حركة قوية تصبح الحياة بعينها . "[4].

➢ التركيب : تقتضي هذه المنهجية أن لا يدرس المؤرخون الحقائق التاريخية بمعزل عن بعضها البعض، بل أن يرصدوا العلاقات القائمة بينها، طالما أن كل الأنشطة الإنسانية تتفاعل فيما بينها[5]، وهو ما أوضحه هذا المؤرخ في الرسالة التي وجهها بتاريخ 2 نونبر 1842 إلى ألفريد ديميسنيل Alfred Dumesnil [6] ، إذ نقرأ فيها قوله: "أريد ... أن أؤكد على قضية تشمل كل القضايا وهي: بطلان التصنيفات، وَأُبَيِّنَ أنه لا يمكن صياغة تاريخ القانون دون الاطلاع على تاريخ الديانات الذي لا يشتبك ويمتزج كسبب فحسب، بل يَلِدُ ذاته من جهته، لذلك سأتابع من أجل التاريخ السياسي تاريخ الفن وغيره في ... ارتباطهما المتبادل. "[7]، ويضيف قائلا: " أريد أن أبين أنه لا يمكن صياغة تاريخ القانون دون الاطلاع على تاريخ الديانات... فلكي أضع تاريخا سياسيا فسأدرس تاريخ الفن ...إلخ في علاقاتهما التبادلية وحاجتهما المتبادلة إلى بعضهما البعض . "[8].

ويشبه ميشله تركيب المؤرخ للحقيقة التاريخية بتركيب عالم الكيمياء للعناصر الكيميائية[9]، ويوضح في هذا السياق أن التركيب التاريخي يظل أكثر تعقيدا من التركيب الكيميائي، طالما أنه إذا كان لا دخل لعالم الكيمياء في تركيب العناصر الكيميائية الذي يتم في المعوجات التي يجمع فيها هذا العالِم الأجسام التي يعتزم دراسة تفاعلاتها، فإن التركيب التاريخي يتم داخل المؤرخ الذي يَسْتَحْضِرُ بعضا من مجموع العناصر الميتة للماضي الذي كان حاضرا حيا وانقطع عن الحياة ليعيد بها بناء الحياة كما كانت وهذه العناصر حية، مما يجعل هذا التركيب خياليا لا يتم في الواقع كما هو الشأن في التركيب الكيميائي، وإنما يقع في فكر المؤرخ[10]. وعلاوة على ذلك ففي التركيب الكيميائي تتفاعل العناصر الكيميائية فيما بينها بشكل تلقائي، مما يجعل دور عالم الكيمياء مقتصرا على ملاحظة تفاعلها[11]. أما في التركيب التاريخي فإن المؤرخ يؤرخ للماضي اعتمادا على المعطيات التي تتضمنها الوثائق التي جمعها بناء على بحث ثقافي ونقدي، طالما أن تركيب الماضي لا يحدث بمجرد وضع هذه الوثائق جنبا إلى جنب[12].

1- *Ibid*., p. III.

2- Lucien Febvre, *Michelet et la Renaissance*, Paris, Flammarion, 1992, p.108.

3- Guy Bourdé et Hervé Martin, *Les écoles historiques*, Paris, Seuil, 1983, p.163.

4- J. Michelet, *Histoire de France*, T.I, *Moyen Age*, *op.cit*., Préface de 1869, p.III.

5- L. Febvre, *Michelet et la Renaissance*, *op.cit*., p.108.

6- ألفريد بولان ديميسنيل : (1821-1894)، مثقف فرنسي، تزوج سنة 1843 من ابنة ميشله : أديل ميشله Adèle Michelet (1824-1855)، ومن بين مؤلفاته : الفن الإيطالي *L'art italien* الذي أصدره سنة 1854.

7- L. Febvre, *Michelet et la Renaissance*, *op.cit*., p.109, in Jules Michelet, *Lettres inédites* (*1841-1871*) , P.P.Paul Sirven, 1924, p.5, avril ou mai 1841, p. 43-44.

8- *Ibid.*

9- *Ibid*., p.109.

10- *Ibid*., p.110.

11- *Ibid*., p.118.

12- *Ibid.*

يبدو من خلال المقارنة التي أقامها ميشله بين التركيب الكيميائي والتركيب التاريخي، أن المؤرخ يبقى فاعلا بشكل كبير في العملية التاريخية وعنصرا محوريا فيها، طالما أن الموضوعية بالنسبة لميشله ليست إلاّ عنصرا ثانويا. فعوض أن تغيب ذاتية المؤرخ في الكتابة التاريخية، فإن المؤرخ عكس ذلك يجــب أن يكون حاضرا فيها بكل ميوله وعواطفه وانفعالاته، مما يجعل عمله شبيها بعمل الفنان[1]،" هذا ما نراه دائما، فلا يكون الوصف دقيقا ومطابقا للشكل إلاّ إذا أعمل فيه الفنان (أي المؤرخ) شيئا من ذاتيته، فأساتذة التاريخ لدينا لم يتخلصوا من هذا القانون، فتاسيت Tacite[2] في تيبيره Tibère[3] يصف نفسه بالاختناق الذي ميز عصره ... أما تييري Thierry [4] وهو يحكي لنا عن كـلوديوڭ Klodwig[5] وعن ڭيوم Guillaume[6] وحملته، فلقد انتابه شعور داخلي تمثل في تعاطفه مع فرنسا المجتاحة في الوقت الحاضر، وفي معارضته للمَلَكِيَةِ القائمة التي يبدو أنها مَلَكِيَة خارجية. "[7] .

فأكثر ما يحذر منه ميشله هو أن تغيب ذاتية المؤرخ في العملية التاريخية كما هو الشأن بالنسبة لبارانتي Barante[8]، " إذا كان هذا عيبا (أي حضور ذاتية المؤرخ في العملية التاريخية)، فإنه يتعين علينا أن نعترف أنه يخدمنا بشكل كبير، فالمؤرخ الذي يُغْفِلُ ذلك ويحاول أن ينمحي من كتابته و أن لا يكون موجودا وأن يَتْبَعَ من الخلف الأخبار المعاصرة (كما فعل بارانتي مع فرواسار Froissart)[9] ،فهو ليس بمؤرخ، فالإخباري القديم ... يبقى غير قادر على إطلاع غيره الذي يسير على خطاه على القرن 14 الكبير والمظلم والمخيف، فلمعرفته يجب أن نستدعي فينا كل قوى التحليل والتضلع، وأن نتوفر على أداة ضخمة تخترق كل الأسرار التي يعجز الراوي (أي الإخباري) عن سبرها، أية أداة ؟ وأية وسيلة؟ الشخصية المعاصرة القوية جدا والكبيرة . "[10]. لذلك دعا إلى أن يتماهى المؤرخ مع الحقبة التاريخية التي يؤرخ لها، ويتحد بها ذاتيا بروحه وجسده حتى يتجاوز التعارض الكلاسيكي القائم بين ضيق الأنا الفردية (شخصية المؤرخ) والعمومية التاريخية الممتدة إلى مالا نهاية (أي الحقبة المدروسة)[11]، " التاريخ كيمياء معنوي عنيف، تتحول فيه رغباتي الشخصية إلى عموميات، وتصبح فيه عمومياتي رغبات، وتضحى فيه شعوبي أنا ، وتعود أناي لإحياء الشعوب، فهي (أي هذه الشعوب) تخاطبني لكي أجعلها تحيا... مع الأسف؛ فهل أنا حي بما يكفي؟ آه، يا إخوتي (أي الموتى) فشفقتي العظيمة والمؤلمة عليكم لا تفارقني، ولكن هل تعتقدون أنني أستطيع ضمن آلامي أن أميز بين آلامي وآلامكم؟ وأن أعتبرها بطواعية جزءا من آلامي. ولكن أن أختلط بهذه الشعوب؟ فألن تتحول حياتي الشخصية إلى حياتها العامة؟ إذن، لقد أجابوني وهم يتأوهون (أي الموتى): أن الأمر سيان، فهم وأنا لم نكن نؤلف إلا شخصا واحدا، بعد أن عانت قلوبنا على نفس المنوال، وعاشت حياتهم في حياتي، وكانت هذه الظلال الشاحبة ظلي أو بالأحرى كنت الظل الحي والهارب للشعوب المثبتة في الوجود الحقيقي..."[12] . وهي القناعة التي قادته إلى التفاعل مع الأحداث التي أرخ لها،" لم تتركني أي من شخصيات الثورة (أي الثورة الفرنسية) باردا، فلم أعش معها ولم أتتبع أيا منها في عمق فكرها وفي تحولاتها كرفيق مُخْلِصْ؟ فلقد أَصْبَحْتُ مع المدة واحدا منها، ومألوفا بالتالي لدى هذا العالم

1- G. Bourdé et H. Martin, *Les écoles historiques*, *op.cit.*, p. 164.

2- تاسيت: (حوالي 55 و120)، مؤرخ لاتيني، ومن بين مؤلفاته: التواريخ *Les Histoires* الذي ألفه بين سنتي 104 و109.

3- يقصد ميشله هنا بتيبير أحد الأجزاء الأربعة عشر لمؤلف التواريخ لتاسيت، ويرصد هذا الجزء عهد الإمبراطور الروماني تيبيريوس كلاوديوس نيرو Tiberius Claudius Nero (42 قبل الميلاد و37 ميلادية).

4- جاك نيكولا أوغيستين تييري: (1795-1856)، مؤرخ فرنسي، ومن بين مؤلفاته: تاريخ غزو النورمند لإنجلترا *Histoire de la conquête de l'Angleterre par les Normands* الذي أصدره سنة 1825.

5- كلوڤيس الأول: (حوالي 466-511)، يعرف أيضا باسم كلودويڭ وينحدر من السلالة الميروڤانجية، ولقد أصبح ملكا للفرنسيين القدامى Les Francs بين سنتي 481 و511 .

6- ڭيوم الأول الغازي : (1027-1087)، كان دوقا لمنطقة النورمندي خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1035 و1087، ثم أصبح ملكا على إنجلترا بين عامي 1066 و1087 .

7- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p. IX.

8- أمابل ڭيوم بروسبير بريجييربارون دوبارانتي: (1782-1866)، مؤرخ وكاتب ورجل سياسة فرنسي، ومن بين مؤلفاته: قضايا دستورية *Questions constitutionnelles* الذي نشره سنة 1850.

9- جون فرواسار: (حوالي 1337-1400)، مؤرخ فرنسي، ومن بين مؤلفاته: الأخبار *Chroniques* الذي ألفه بين سنتي 1372 و1384.

10- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p.IX-X.

11- Olivier Remaud, *Michelet, La Magistrature de l'histoire*, Paris, Michalon, 1998, p. 113.

12- L. Febvre, *Michelet et la Renaissance*, *op.cit.*, p. 115, in Jules Michelet, *Lettres inédites (1841-1871)*, p.p. Paul Sirven, 1924, p. 74.

الغريب، وتعودت على النظر عبر هذه الظلال التي يبدو أنها تعرفني..."[1].

ونلمس أكثر اتحاد هذا المؤرخ بالماضي الذي يكتب تاريخه في مؤلفه: تاريخ فرنسا[2]، " كانت حياتي في هذا الكتاب، فلقد مرت إليه، إذ كان هذا المُؤَلَّفُ شغلي الشاغل، ولكن تطابق الكتاب وصاحبه ألا يشكل خطرا؟ أليس المؤلَّف ملونا بأحاسيس وزمان وشخصية مُؤَلِّفِهِ؟ "[3]. وهو التماهي ذاته الذي نلحظه لديه مع القرن 14 الذي اعتبره قرنا كبيرا ومظلما ومخيفا طبعته الحروب والطاعون الأسود لسنة 1348[4]، لذلك يمكن القول إن هذا المؤلف قد نبع من أحاسيس ميشله، " يختلط التاريخ والمؤرخ من هذه الناحية، فهل يشكل هذا معطى إيجابيا أم سلبيا؟ فهنا يلوح شيء لم يسبق لنا أن وضعناه، ويتعين علينا الإعلان عنه، فالتاريخ يَصْنَعُ المؤرخ ..... فَمُؤَلَّفِي خلقني، فأنا الذي كنت عمله، فهذا الابن صنع أباه، فإذا كان قد نبع مني أولا ومن زوبعة شبابي المضطربة، فإنه أعطاني الشيء الكثير على مستوى القوة ووضوح الرؤية والدفء العميق والقوة الحقيقية لبعث الماضي، فإن كان هناك تشابه بيننا، فهذا أمر جيد، فملامحي الماثلة فيه تبقى في جزء كبير منها، تلك التي أنا مدين بها إليه. "[5].

لقد وظف هذا المؤرخ خياله الباعث l'Imagination ressuscitante في عيش الماضي الذي يؤرخ له[6]، ويتضح لنا هذا من خلال ما ذكره وهو بصدد كتابة مؤلفه: تاريخ الثورة الفرنسية، إذ نقرأ قوله: " لم تكتمل الصورة في داخلي إلاّ يوم الأربعاء 31 أكتوبر، بعد أن صَبَبْتُ قلبي يومي الاثنين والثلاثاء في الصفحات الافتتاحية للفصل الأخير من الجزء الرابع ... فانحلت في لحظة جميع العقد، بعد أن مررت بفترات عصيبة طفوت خلالها في برزخ. "[7].

ويشير گابرييل مونود Gabriel Monod [8] إلى الحضور القوي للخيال في كتابة ميشله التاريخية ، وتوظيفه لهذا العنصر لخلق نوع من الوحدة بينه وبين الموضوع المدروس وبعث الماضي وإحيائه قائلا: " كل شيء أو أي كائن أعاد ميشله بخياله الحياة إليه، كان بالنسبة له موضوعا لتأمل شغوف وحصري ... فإذا تمكن من التطابق والاختلاط مع الموضوع الذي يتأمله من خلال بعض أوهامه وخوارقه التي يمكن أن يولدها الحب (أي حبه للموضوع المتأمل)، كما هو الشأن بالنسبة لمتدينة مجذوبة تمكنت عبر تفكيرها الدائم في المسيح، من رؤيته وسماعه في النهاية، فإن تفكيره (أي الخيال أو التأمل) يتحول لديه إلى رؤية، فيمكننا أن نسميه مُتَوَهِّما ... لقد تميز عمله بقوة إرادية وطاقة غير معتادة، فأي شيء لم يكن ليلهيه عن موضوع دراسته، فأبدا لم يكن ليقرأ كتابا أو يهتم بشيء دخيل على العمل الذي بين يديه، إذ كان ينشغل بموضوعه ولا يراه إلاّ هو، مما مكنه من مراكمة قوة رفيعة للفكر، وتكوين نظرة ثانية عن الموضوع المتأمل . "[9].

كما أوضحت هِرموان أزاكي Hermoine Asaki [10] أن توظيف هذا المؤرخ لخياله في عملية التركيب التاريخي مكنه من رصد الحقائق التاريخية في شموليتها، وشكل أحد عناصر التجديد في كتابته التاريخية، وهو ما تفصح عنه بقولها: " تأثر ميشله بخاصية افتقدها كل الناس، لقد ركز كل قوة استحضاره السرية ليستنبط من ذَرَّةٍ وخلية كونا مولودا، فهذا ما شكل التجديد في مؤلفاته . "[11]. أما جاك

---

1 - Jules Michelet, *Histoire de la Révolution française*, Paris, Robert Laffont, 1979, quatrième réimpression, 1998, Préface de 1868, p.45.

2- G. Bourdé et H. Martin, *Les écoles historiques*, *op.cit.*, p. 165.

3- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p. IX.

4- G. Bourdé et H. Martin, *Les écoles historiques*, *op.cit.*, p. 164.

5- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p.X.

6- Gabriel Monod, *La Vie et la Pensée de Jules Michelet (1798-1852)*, Paris, Honoré Champion, 1923, réédition, Genève, Slatkine Reprints, 1975, T. II, p. 238.

7- *Ibid.*

8- گابرييل مونود : (1844-1912)، مؤرخ فرنسي، ومن بين مؤلفاته : حياة وفكر جول ميشله (1798-1852) *La Vie et La Pensée de Jules Michelet (1798-1852)* الذي صدر سنة 1923.

9 - Gabriel Monod, *Les Maîtres de l'histoire, Renan, Taine, Michelet*, Paris,.Calmann Lévy, 1894, p. 251-252.

10- هِرموان أزاكي: (1821- 1900)، هي أرملة المؤرخ إيدگار كيني Edgar Quinet (1803-1875)، ومن بين مؤلفاتها: خمسون سنة من الصداقة: ميشله وكيني (1825-1875) *Michelet-Quinet (1825-1875) Cinquante ans d'amitié* الذي نشرته سنة 1875.

11- Mme Quinet, *Cinquante ans d'amitié Michelet-Quinet (1825-1875)*, Paris, Armand Colin et Cie, 1899, p. 183-184.

لوكْوف Jacques Le Goff[1] فقد أكدعلى أن ميشله يظل مرجعية للمؤرخين في كيفية توظيف الخيال في التركيب التاريخي، "ميشله هو من دَرَّسَنَا بشكل جيد حق المــؤرخ لاسيما مؤرخ العصر الوسيــط في الخــيال."[2].

كما تنص هذه المقاربة التاريخية التي تَعْتَبِرُ التاريخ بعثا شاملا للماضي وتوظف الذاتية بشكل كبير في عملية التركيب التاريخي على ضرورة ربط المؤرخ لعلاقة حميمة مع الموتى، حتى يتمكن من بعث الماضي وإحيائه، كما يشير إلى ذلك ميشله عندما يقول: "... كان مجتمعي هو مجتمع الماضي، وظلت صديقاتي هي الشعوب المدفونة التي أيقظتُ فيها وأنا أكتب تاريخها آلاف الأشياء الغائبة ... فالهِبَةُ التي طلبها سان لويس Saint Louis[3] ولم يحصل عليها، حَصَلْتُ عليها عبر هبة الدموع ... بعد أن عادت الحياة إلى كل أولئك الذين بَكَيْتُهُمْ، إذ كان لهذا السحر الساذج (أي ربط علاقة حميمية مع الموتى) تأثير استحضار شبه محقق. "[4]،ويضيف قائلا: "لطالما شربت الدم الأسود للموتى."[5]

ويبقى المؤرخ في نظر ميشله أوديب Œdipe[6] الذي يرتقي الأزمنة ويعيش حياة الموتى ليفسر لهم ما عجزوا عن فهمه وهم أحياء[7]، " فَهُمْ يحتاجون إلى أوديب ليشرح لهم ألغازهم التي عجزوا عن تفسيرها، ويُفْهِمَهُمْ ما كانت ترمي إليه أقوالهم وتصرفاتهم التي لم يفهموها."[8]. وهو بالنسبة له أيضا برومــيتي Prométhée[9] الذي يبعث الشعوب الميتة بكتابة تاريخها حتى تعود إلى الحياة مجددا، "...فهم يحتاجون إلى بروميتي الذي يستطيع بواسطة النار التي يخفيها أن يثير الأصوات التي ترفرف متجمدة في السماء، حتى تصدر صوتا وتبدأ في الكلام، بل أكثر من ذلك، يجب الإنصات إلى الأصوات التي لم يسبق لها أن قيلت من قبل وبَقِيَتْ في القلوب... فالمؤرخ ليس سيزار César[10] أو كلود Claude[11]، لكنه يرى دائما في أحلامه جموعا من الناس تبكي وتنتحب، تتألف من الموتى الذين لم يعيشوا حياة كافية ويريدون العودة إلى الحياة، فهم (أي الموتى) لا يطلبون منه دموعا أو ما يُحْمَلُ فيه رفاتهم،بحيث لا يتعين علينا فقط أن نكرر آهاتهم، كما لا يحتاجون إلى نائحة بل إلى عراف (أي مؤرخ)، وطالما أنهم يفتقدونه، فَسَيَلُفُّونَ دائما حول قبورهم غير المقفولة بإحكام، ولن يرتاحوا. "[12].

يرى هذا المؤرخ أن تدوين التاريخ لماضي البشرية يجعل من هذا العلم محكمة تحاسب الناس على أفعالهم، وهو ما يخشاه الحكام المستبدون، " يُخِيفُ العقاب الأخروي (أي كتابة تاريخ هؤلاء الحكام المستبدين) الذي تفرضه فظائع الجنس البشري الطغاة الذين لم يحتفظوا بأي شيء يمكنه أن ينقذ ذاكرتهم... فلقد هابوا أن يُعْرَضُوا على العموم إلى الأبد، وأرادوا بأي ثمن أن يهربوا من الشمس المنتقمة (أي التاريخ)... "[13]. ويبين في هذا السياق، أن عدالة هذه المحكمة تتمثل في كتابة تاريخ البسطاء الذين عادة ما تغفلهم الكتابة التاريخية[14]، وحول هذه النقطة كتب يقول:

1- جاك لوكْوف : (1924- ...)، مؤرخ فرنسي مختص في تاريخ العقليات، ومن بين مؤلفاته: من أجل عصر وسيط آخر، الزمن والعمل والثقافة في الغرب *Pour un autre Moyen Age, temps, travail, et culture en Occident* الذي أصدره سنة 1978.

2- Jean Maurice Bizière, Pierre Vayssière, *Histoire et historiens, Antiquité, Moyen Age, France moderne et contemporaine*, Paris, Hachette, 1995, p.145, in Jacques Le Goff, *Michelet et le Moyen Age d'aujourd'hui*, in Jules Michelet, *Œuvres complètes*, Paris, Flammarion,1974, T. IV, p.61.

3- لويس التاسع: (1214-1270)، يعرف أيضا باسم سان لويس، كان ملكا على فرنسا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1226 و1270 .

4- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p. XVIII-XIX.

5 -Christophe Laudou, *L'esprit des systèmes : l'idéalisme allemand et la question du savoir absolu*, Paris, L'Harmattan, 2003, p.279.

6- أوديب: تشير الأسطورة الإغريقية إلى أنه ابن ملك طيبة Thèbes لايوس Laïos من زوجته جوكاست Jocaste، ولقد اشتهر بقدرته الخارقة على فك الألغاز ومعرفة الأسرار.

7 - J. M. Bizière, P. Vayssière, *Histoire et historiens... , op.cit.*, p. 141.

---

8 - G. Monod, *La Vie et la Pensée...., op.cit.*, T. II, p. 73.

9- بروميتي: تشير الأسطورة الإغريقية إلى أنه ابن جابيت Japet من زوجته أوسيانيد Océanide، ولقد اشتهر بسرقته النار من الآلهة لإهدائها إلى البشر.

10- جول سيزار: (100 قبل الميلاد – 44 قبل الميلاد)، قائد عسكري ورجل سياسة وكاتب روماني، يعتبر من أبرز شخصيات التاريخ الروماني.

11- كلود الأول: (حوالي 10 قبل الميلاد- 54 بعد الميلاد)، إمبراطور روماني حكم الإمبراطورية الرومانية بين سنتي 41 و54 ميلادية.

12- G. Monod, *La Vie et la Pensée…*, *op.cit.*, T. II, p. 73.

13- Jules Michelet, *Histoire du dix neuvième siècle*, Paris, Ernest Flammarion, 1898, T. II, Préface, p. 1-2.

14 - O. Remaud, *Michelet, La Magistrature de l'histoire, op.cit.*, p. 118.

" لقد أعطوا حياتهم بإيمان ثابت، أملا في العدالة، إنهم يملكون الحق في أن يقولوا: " أيها التاريخ عُدَّ معنا، فدائنوك (أي الموتى)، ينذرونك، لقد قَبِلْنَا الموت من أجل جملة منك." "[1]، ويضيف قائلا:" يستقبل التاريخ ويجدد هذه الأمجاد غير الموروثة (أي الذين ليس لهم تاريخ)، ويعطي حياة جديدة لهؤلاء الموتى ويبعثهم....."[2].

غيرأن نظرة ميشله الرومانسية لمهمة المؤرخ لا تعني أنه كان لا يعتمد على الوثائق الأصلية في كتابته التاريخية[3]، فلقد بنى مقارباته التاريخية على أساس الرجوع المباشر إلى المصادر والأرشيفات التي اعتبرها الأرض التي تغذيه، ويتضح لنا هذا من خلال ما ذكره في الرسالة التي وجهها في21 يوليوز1848 إلى أوجين نوويل Eugène Noël[4]، حيث ورد فيها قوله: " أكتب الجزء الثالث من مؤلف: تاريخ الثورة الفرنسية، أتمنى من خلال ملامسة الأرض التي تغذيني، أن أحيي التضلع القوي والصلب: التحليل والنص التاريخي . "[5]. وهي القناعة التي عبر عنها أيضا في حديثه عن اعتماده على الوثائق في كتابة مؤلفه هذا، إذ كتب يقول: " أريد أن أقول كلمة حول طريقة كتابة هذا الكتاب، فلقد وُلِد في أحضان الأرشيفات، بعد أن استغرقت في كتابته ست سنوات (1845-1850) في مخزن مركزي للأرشيفات..."[6].

ويبدو أن اعتماد هذا المؤرخ على المصادر والوثائق في كتابته التاريخية قد أضفى القوة على مقارباته، دون إغفال ما ميزه من حس نقدي وقدرة على تركيب الحقيقة التاريخية من خلال الاستعانة بعدد محدود من الوثائق، وتوضح أتيناييس ميالري Athénaïs Mialaret[7] هذا المعطى بقولها: " تَكْمُنُ قوة ميشله في الوثائق ... فهو لم يكن بحاجة إلى جميع الوثائق للتأريخ لفترة زمنية معينة أو شخصية أو دولة أو إنسان، طالما أنه كان يحس بسرعة بواسطة حسه النقدي بما هو مبهم ومختلف في الوثيقة... فهل كان كل هذا نابعا من خياله؟ لا، إنه ذكاء عبقري، فنظرته الثاقبة تأتي من تضلعه العميق. "[8].

لم يكتف ميشله في مقارباته التاريخية بالاطلاع على المصادر والأرشيفات والوثائق فحسب، بل استعان بالرواية الشفوية أيضا. وهو الأمر الذي يعكسه توظيفه لَمَّا كان بصدد كتابة مؤلفه: تاريخ الثورة الفرنسية لشهادة رجل حضر معركة جيماب Jemmapes[9] في التأريخ لهذه الواقعة.[10]

لقد تمكن هذا المؤرخ من خلال تبنيه مقاربة تاريخية تتغيى البحث الشامل للماضي، وتوظف ذاتية المؤرخ لاسيما خياله الباعث في عملية التركيب التاريخي وتَبْنِي الحقائق التاريخية على أساس استنطاق المصادر والوثائق من إحياء الماضي الميت والحصول على تاريخ حي يعطي للقارئ صورة شمولية عن الماضي[11]، وهو ما يفصح عنه بقوله: " قال أصدقائي وخصومي: أن هذه الحقيقة التاريخية كانت حية . "[12].

ويتضح لنا توفق ميشله في إعطاء حقيقة تاريخية حية تصور الأحداث للقارئ وكأنها تدور أمامه، إذا نحن تأملنا الكيفية التي وصف بها سيطرة الثوار على حصن الباستيل La Bastille[13] في 14 يوليوز 1789، إذ كتب يقول: " لم يكن الهجوم على حصن الباستيل عملا احتكم إلى العقل ، بل ظل فعلا طبعه الإيمان، إذ لم يقترح أحد، ولكن الكل آمن وتصرف، كانت الجموع تصيح وهي تعبر الأزقة

1- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p. XXXVIII.

2- J. Michelet, *Histoire du dix neuvième siècle*, *op.cit.*, T. II, Préface, p.3.

3- O. Remaud, *Michelet, La Magistrature de l'histoire*, *op.cit.*, p. 114.

4- أوجين نوويل : (1816-1899)، صحفي فرنسي، ومن بين مؤلفاته : رابلي *Rabelais* الذي نشره عام 1850.

5- L. Febvre, *Michelet et la Renaissance*, *op.cit.*, p. 125, in *Lettres inédites (1841-1871)*, p. 119.

6- J. Michelet, *Histoire de la Révolution française*, *op.cit.*, Préface de 1868, p.43.

7- أتيناييس ماركَريت ميالري: (1826-1899)، هي زوجة ميشله الثانية، ولقد ظلت زوجة له منذ سنة 1849 حتى وفاته عام 1874، وهي مثقفة فرنسية مختصة في التاريخ الطبيعي وكتابة المذكرات، ومن بين مؤلفاتها: مذكرات طفلة *Mémoires d'une enfant* الذي أصدرته سنة 1867.

8- G. Monod, *La Vie et la Pensée ...*, *op.cit.*, T. I, p.220.

9 - معركة جيماب: جرت هذه المعركة في 6 نونبر 1792 بضواحي مدينة هينو Hainaut ببلجيكا، ودارت بين القوات النمساوية والفرنسية وانتهت بانتصار هذه الأخيرة.

10- Paul Viallaneix, *Michelet, les travaux et les jours 1798-1874*, Paris, Gallimard, 1998, p.347.

11 - G. Bourdé et H. Martin, *Les écoles historiques…*, *op.cit.*, p. 163.

12- J. Michelet, *Histoire de France*, T. I, *Moyen Age*, *op.cit.*, Préface de 1869, p. IV.

13- حصن الباستيل: قبل الثورة الفرنسية كان يقع هذا الحصن شرق مدينة باريس، ولقد ظل سجنا مركزيا خلال الفترة الممتدة بين القرنين 12 و 18، إلى أن تم تدميره من طرف الثوار الفرنسيين في 14 يوليوز 1789.

والأرصفة والجسور والشوارع، قائلة: " إلى الباستيل! إلى الباستيل "، ففي دقات ناقوس الخطر... كانوا كلهم يسمعون: " إلى الباستيل !"... كانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف، حين أحدثت هذه الجموع ضجيجا كبيرا... إذ دخل ألف رجل إلى هذه القاعة (أي قاعة حصن الباستيل)، الممتلئة أصلا ، في وقت لم يتمكن فيه عشرة آلاف آخرين من ذلك، فطقت الألواح الخشبية وانقلبت الدكات ... ودُفِعَ المكتب على الرئيس. بدا الكل مسلحا بشكل غريب... لقد أراد هذا الجمع المسعور والأعمى والثمل أن يدمر حصن الباستيل، فسحق بالرشق بالحجارة وجه ساعة الحصن، وصعد إلى أبراجه للسيطرة على المَدَافِع ... وتوجه بعد ذلك ... إلى الزنازن لتحرير السجناء الذين أصيب اثنين منهم بالجنون، فأحدهما وبسبب انزعاجه بفعل الضجيج، أراد أن يدافع عن نفسه... أما الآخر الذي كانت لحيته تصل إلى حزامه، فكان يسأل عن أحوال لويس 15 Louis XV [1] لاعتقاده أنه لازال ملكا على فرنسا..."[2].

ويلخص گابرييل مونود الوصف الحي الذي أعطاه ميشله لهذا الحدث بقوله: " إنني لا أعتقد أن بإمكاننا أن نجد وصفا لسيطرة الثوار على حصن الباستيل يمكن مقارنته بوصف ميشله لهذه الواقعة، بعد أن تم بعث المشاعر الجماعية التي أحدثت ورافقت انفجار الرغبات الشعبية هذا، وجعلها محسوسة بشكل قوي، شأنها في ذلك شأن باقي التحولات التي ميزت هذا الحدث . "[3].

لقد أعجب العديد من المثقفين الفرنسيين بدرجة الحياة التي تتضمنها كتابات هذا المؤرخ فنوهوا بها، إذ وصف ڤيكتور هيجو Victor Hugo [4] مستوى الحياة الذي يتضمنه هذا المؤلف بقوله: " الأسلوب المحموم لميشله . "[5]، في حين علق أوجين سي Eugène Sue[6] على الحركية والدينامية التي يحتويها هذا الكتاب بقوله: "كَتَبْتُ تعاليقا مع الأسف أما أنتم فكتبتم تاريخا."[7]، أما هِرموان أزاكي فقالت في هذا الصدد: "إنه أسلوب نحس فيه بنبض الشرايين، فنحن نصادف في كل سطر حياة فريدة وحرارة تفوق الأربعين درجة، ومع ذلك ففي مؤلفات ميشله فقط يرتفع النبض وتَغْزُرُ الحيوية."[8].

أولى ميشله في مشروعه للبعث الشامل للماضي أهمية قصوى لمسألة السياق في مقارباته التاريخية، لوعيه بأن نجاح مشروعه هذا يبقى رهينا بالتأريخ للأحداث في سياقها الذي حدثت فيه، طالما أنه يتضمن الأسباب المفسرة لها، " لا تتمثل مهمة التاريخ في سرد أحداث حقيقية فقط ، ولكن في وضعها في السياق الذي وقعت فيه، بحيث يكون من الخطأ استعراض الوقائع ووضعها على نفس المستوى، ويجب أيضا عدم إهمال الأحداث العظمى وتفخيم الصغرى . "[9].

وتتمثل إحدى الدعائم الرئيسة لمشروع البعث الشامل للماضي في إقصاء المؤرخ من ذهنه للأفكار والآراء الجاهزة، وحرصه على إعمال منطق النقد في خلاصاته، حتى وإن اضطر في ذلك إلى التضحية ببعض الحقائق التاريخية الصغرى من أجل بلوغ أخرى كبرى، طالما أن الأحكام الجاهزة التي يتوصل إليها دون نقد تظل عوائق تعيق عملية تمثله للماضي، " إنه لأمر شاق بالنسبة للمؤرخ أن يقاوم أحكامه المسبقة التي كونها منذ أن كان طفلا، أو أحكام قرائه والأخطاء التي يرتكبها الكتاب المعاصرون، لذلك يجب أن يتوفر على قوة تمكنه من تخطي كل هذه الأحكام عبر إزالة القنوات المظلمة والتضحية ببعض الحقائق التي تخنق القناة، لكنه إذا ما تمكن من تحقيق ذلك، فستتدفق أمامه من محيط المُبْهَمِ العديد من كبريات الأسباب الحية . "[10]. ويوضح گابرييل مونود حرص ميشله في مشروعه هذا على تفادي إسقاط أفكار وقناعات الحاضر على الماضي بقوله: "...كان يتفادى هذا المؤرخ في دراسته التاريخية أن يسقط اهتماماته وأفكاره الراهنة على الماضي. "[11].

---

[1]- لويس 15: (1710-1774)، كان ملكا على فرنسا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1715 و1774.

[2]- J. Michelet, *Histoire de la Révolution française*, *op.cit.*, T.I, p. 144-145-153-154.

[3]- G. Monod, *La Vie et la Pensée…*, *op.cit.*, T. II, p.238.

[4]- ڤيكتور هيجو: (1802-1885)، كاتب ومسرحي وشاعر فرنسي، ومن بين أعماله: روايته: آخر يوم لمعتقل *Le Dernier Jour d'un condamné* التي أصدرها سنة 1829.

[5]- M. Quinet, *Cinquante ans d'amitié…*, *op.cit.*, p. 185.

[6]- أوجين سي: (1804- 1857) أديب فرنسي، ومن بين مؤلفاته: أسرار الشعب *Les Mystères du peuple* الذي أصدره سنة 1849.

[7]- P. Viallaneix, *Michelet, les travaux…*, *op.cit.*, p. 314.

[8]- M. Quinet, *Cinquante ans d'amitié…*, *op.cit.*, p. 185.

[9]- Jules. Michelet, *Louis XIV et la révocation de l'édit de Nantes*, Paris, Flammaion, 1985 , Préface, p.5.

[10]- *Ibid*., p.6.

[11]- G. Monod, *La Vie et la Pensée…*, *op.cit.*, T. II, p.240.

ويهدف هذا المؤرخ من خلال البعث الشامل للماضي ،ليس فقط إلى التأريخ له، ولكن إلى فهم شامل للحاضر وتمثل صائب للمستقبل، إذ لا فائدة في بعث الماضي بالنسبة له إذا لم يساعد على فهم الحاضر والتنبؤ بالمستقبل. وهي القناعة التي عبر عنها في الخطاب الافتتاحي للموسم الجامعي لسنة 1833-1834 الذي ألقاه في 9 يناير 1834 بجامعة السوربون، إذ ورد فيه قوله: " يجب أن نتجه إلى التاريخ ونُسَائِلَ الواقعة عندما تضطرب الفكرة وتهرب من أمام أعيننا، فلنخاطب القرون السابقة... فقد نتمكن من خلالها من استنباط شعاع مبكر للمستقبل. "[1].

من هذا المنطلق كتب ميشله تاريخا وطنيا لفرنسا بغية تعريف الفرنسيين بتاريخهم الذي يجهلونه، " لن تجدوا شيئا في الذاكرة بخصوص الحروب القديمة ضد الإنجليز (أي حرب المائة سنة) ... لقد امحت من أذهاننا حروب لويس 14[2]-[3] التي لازلنا حديثي العهد بـها... دون أن تتمكن الأُسَرُ من أن تحصل منها على بعض الافتخار... لا، هناك صمت عميق، ولا أحد يطالب بالمجد . "[4].

كما تغيى هذا المؤرخ من كتابة تاريخ وطني لفرنسا إعطاء الفرنسيين وعيا بانتمائهم الوطني ليكون عنصرا مساعدا على توحيدهم في ظل انقسامهم خلال القرن 19 إلى فريقين هما: البورجوازية وعامة الشعب[5]، " يوجد الآن بسببكم (أي رجال الدين) شعبان: أحدهما في الأعلى متحضر ومترف، والآخر في الأسفل صلب وهمجي ومعزول عن الآخر، فأنتم من كان عليكم تقليص هذه الهوة، ورفع أولئك الذين يعيشون في الأسفل، وأن تؤلفوا من الشعبين شعبا واحدا . "[6]. ويضيف قائلا في نفس السياق: " أرى فرنسا تغرق ساعة بعد أخرى ... في الوقت الذي نختصم فيه نحن، فهذا البلد يغرق. "[7]، وسنقوم فيما يلي بتحليل التيمات الأربع التي بنى عليها ميشله تاريخه الوطني .

➢السيادة:

تظهر رغبة هذا المؤرخ في الدفاع عن سيادة فرنسا على أراضيها في الجزء الثاني من مؤلفه: تاريخ فرنسا الذي أصدره سنة 1833، وضَمَّنَهُ جدولا جغرافيا ناقش فيه بتفصيل طبيعة وخصوصيات مختلف المناطق الفرنسية بغية تعريف الفرنسيين بها وتربيتهم على حب وطنهم، " تظل جغرافية تاريخية كهاته (يقصد كتيبه الجغرافي: جدول فرنسا Tableau de France الذي تضمنه الجزء الثاني من

---

[1]- L. Febvre, *Michelet et la Renaissance*, *op.cit.*, p. 127-128, in *La Revue des Deux Mondes*, 15 janvier 1834, cf. *Œuvres complètes*, 1973, III, p.223.

[2] - خاضت فرنسا خلال حكم لويس 14 مجموعة من الحروب، وهي: حرب الانتقال guerre de dévolution التي دارت بين مملكة فرنسا من جهة، ومملكة إسبانيا ومملكة إنجلترا والإمارات السبع للأراضي المنخفضة الإسبانية ومملكة السويد من جهة أخرى، واستمرت بين سنتي 1667 و1668 وانتهت بتوقيع اتفاقية إيكس لاشابيل Aix-la-Chapelle في 2 ماي 1668، وحرب هولندا التي دارت بين مملكة فرنسا وحلفائها المشكلين من: مملكة إنجلترا وإمارة مينستير Münster ولييج Liège ولاباڤيير Bavière ومملكة السويد ودائرة كولون Electorat de Cologne من جهة ، والإمارات السبع للأراضي المنخفضة الإسبانية والإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ولوبراندبورغ Brandebourg ومملكة الدانمرك والنرويج وإسبانيا من جهة أخرى، واستمرت بين سنتي 1672 و1678 وانتهت بتوقيع اتفاقية نيميڭ Traité de Nimègue في 10 غشت 1678، وحرب عصبة أوڭسبورغ ligue d’Augsbourg التي دارت بين الدول المشكلة لهذه العصبة وهي: الإمارات السبع للأراضي المنخفضة الإسبانية ومملكة إنجلترا والإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ودوقية ساڤوا ومملكة إسبانيا ومملكة السويد قبل أن تنضاف إلى هذه العصبة بعد سنة 1691 مملكة البرتغال ومملكة اسكتلندا من جهة ، ومملكة فرنسا واليعقوبيون Jacobites أنصار ملك إنجلترا وإيرلندا جاك الثاني Jacques II (1633-1701) والإمبراطورية العثمانية من جهة أخرى، ولقد استمرت بين سنتي 1688 و1697 وانتهت بتوقيع اتفاقيات ريسويك Ryswick Traités de سنة 1697، وحرب العرش الإسباني التي دارت بين مملكة فرنسا ومملكة إسبانيا ودائرتي لا باڤيير وكولون من جهة، والإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ودوقية النمسا ومملكة بريطانيا العظمى ومملكة بروسيا ودوقية ساڤوا والإمارات السبع للأراضي المنخفضة الهولندية ومملكة البرتغال وتاج أراڭون Couronne d’Aragon والكاميزار Camisards وهم البروتستانت الفرنسيون المنتمون إلى الهيجونو المتمركزون في منطقة سيڤين Cévennes في الجنوب الشرقي لفرنسا من جهة أخرى، والتي انتهت بتوقيع اتفاقيتي أوتريخت Eutreicht في 11 أبريل و13 يوليوز 1713 اللتين نَصَّبَتَا حفيد لويس 14 فيليب الخامس Philippe V (1683- 1746) ملكا على إسبانيا.

[3]- لويس 14: (1638-1715)، كان ملكا على فرنسا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1643 و1715.

[4]- Jules Michelet, *Cours professé au Collège de France par Jules Michelet 1847-1848*, Paris, Chamerot ,1848, septième leçon , 27 janvier 1848 , (leçon non professée) , p. 192-193.

[5]- G. Monod, *Les Maîtres de l’histoire,…*, *op.cit.*, p. 273.

[6]- J. Michelet, *Histoire de la Révolution française*, *op.cit.*, T.II, p. 200.

[7]- Jules Michelet, *Le Peuple*, Paris, Marcel Didier, 1946, p. 27.

مؤلفه :تاريخ فرنسا) مُؤَلَّفا للتربة."[1]. ولقد أكد ميشله في العديد من مؤلفاته على ارتباط المناطق الفرنسية بوطنها الأم، وأبان في ذلك عن شوڤينية واضحة، " تتوقف اللغة الفرنسية عند منطقة اللورين، فلن أذهب أبعد من ذلك... طالما أن العالم الجرماني ... يحتوي سِدْرًا قويا يُنسي الوطن . "[2].

وبرى هذا المؤرخ أن السيادة الفرنسية خلال القرن 19 تظل مهددة من قِبَلِ الدول المجاورة لفرنسا، " اصعدوا أيها الأطفال إلى جبل حبذا لو يكون عاليا، ولاحظوا في الاتجاهات الأربعة، فلن تروا إلاّ أعداءً. "[3]. لذلك دعا فرنسا إلى التصدي لهذا التهديد حتى لا تنتهك سيادتها قائلا: " إدفعي يا فرنسا الجميلة والقوية بحدودك المتموجة في الراين Rhin[4] هذا الفيض من البشر (أي الألمان) إلى البحر الأبيض المتوسط وإلى المحيط، وارْمِ إنجلترا القاسية بلا بروتان La Bretagne[5].... ومنطقة النورمندي La Normandie[6] الثابتة، وضعي السخرية التي تميز منطقة لاڭاسكون La Gascogne[7] في مواجهة إسبانيا الخطيرة والمجيدة، وواجهي إيطاليا بحماس منطقة لابروڤانس La Provence[8]، وقاومي الإمبراطورية الجرمانية الضخمة بالفيالق الصلبة والعميقة للألزاس واللورين، وتصدي للزهو والقلق البلجيكي بالقلق الجاف والدموي لمنطقة بيكاردي Picardie[9]، وبالصبر ورد الفعل وروح الانضباط والمدنية المميزة لمنطقة الأردين ولاشامباني La Champagne[10]."[11]، غير أنه إذا ما تهدد هذه السيادة خطر ما، فإن الفرنسيين سيدافعون عنها وسيضحون من أجلها بكل فخر، "عندما سَيَتَّفِقُ العالم على القدوم لرؤية فرنسا عن قرب فستتم تحيته من طرف جنودنا... "[12].

➢الوحدة:

حققت فرنسا وحدتها بعد نهاية حرب المائة سنة، وبالتحديد في عهد لويس 11 Louis XI[13] الذي أخضع لحكمه كل المناطق الفرنسية، " ها هي فرنسا قد أصبحت مقفلة من الآن فصاعدا (خلال ملكية لويس 11)، بعد أن توطد ارتباط مناطقها بها، فالزهو الهمجي القاتل لمنطقة لابورڭون La Bourgogne[14] لم يعد يخيف الشمال، أما النوميريون les Nemours[15] والأرمَنياك Armagnacs[16] فلن يسمحوا بعد الآن بفتح منطقة لاڭاسكون لإسبانيا. إن جزيرة فرنسا تنعم بسلام عميق وتعمل وتحرث وراء منطقة بيكاردي المحمية من طرف منطقة لارتوا L'Artois[17]، في حين تحتمي منطقتا لاشومباني ولوبوربوني Le Bourbonnais[18] بمنطقة لابورڭون... إنها فرنسانا القوية

---

[1]- Jules Michelet, *Notre France : sa géographie, son histoire*, Paris, C. Marpon et Ernest Flammarion, 1886, Préface, p. XI.

[2]- Jules Michelet, *Histoire de France*, T. II, *Moyen Age, Tableau de France*, Paris, Ernest Flammarion, 1893, p. 61-62.

[3]- J. Michelet, *Le Peuple, op.cit.*, p. 28.

[4]- تتشكل هذه الحدود حاليا من محافظتي : الراين السفلى Bas Rhin والراين العليا Haut Rhin الواقعتين بمنطقة الألزاس في الشمال الشرقي لفرنسا على الحدود مع ألمانيا، وتعتبر مدينة ستراسبورغ Strasbourg أهم مدينة في محافظة الراين السفلى، في الوقت الذي تشكل فيه مدينة كولمار Colmar أهم مدينة في محافظة الراين العليا.

[5]- لابروتان: شبه جزيرة فرنسية تقع غرب فرنسا، يحدها شمالا بحر السيلتيك la mer céltique وغربا بحر إيرواز mer La d'Iroise وجنوبا خليج ڭاسكون Le golfe de Gascogne.

[6]- النورمندي: تقع هذه المنطقة في الشمال الغربي لفرنسا وتطل على بحر المانش، ومن بين أهم مدنها: رووان Rouen وكان Caen.

[7]-لا ڭاسكون: تقع هذه المنطقة في الجنوب الغربي لفرنسا وتطل على المحيط الأطلسي، ومن بين أهم مدنها: بوردو Bordeaux وبايون Bayonne.

[8]- لابروڤانس: تقع هذه المنطقة في الجنوب الشرقي لفرنسا وتطل على البحر الأبيض المتوسط، ومن بين أهم مدنها: مارسيليا Marseille ونيس Nice وتولون Toulon.

[9] - بيكاردي: تقع هذه المنطقة شمال فرنسا، ومن بين أهم مدنها: لاوون Laon وبوڤي Beauvais وأميان Amiens.

[10]- لاشامباني: تقع هذه المنطقة في الشمال الشرقي لفرنسا على الحدود مع بلجيكا، ومن بين أهم مدنها: ريمس Reims وتروي Troyes.

[11] - J. Michelet, *Notre France: ..., op.cit.*, p. 291.

[12]- J. Michelet, *Le Peuple, op.cit.*, p.10.

[13]- لويس11: (1423 -1483)، كان ملكا لفرنسا خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1461 و 1483.

[14]- لابورڭون: تقع هذه المنطقة وسط فرنسا، وتتشكل من أربع محافظات هي: يون Yonne وساحل الذهب côte d'or ولانيڤر Nièvre والساوون واللوار Saône et Loire، ومن بين أهم مدنها: ديجون Dijon وأوكسير Auxerre.

[15]- النوميريون: هم سكان محافظة السين والمارن Seine et Marne المنتمية لمنطقة جزيرة فرنسا Ile de France الواقعة في الوسط الشمالي لفرنسا.

[16]- الأرمنياك: هم سكان منطقة أرمنياك التابعة لمحافظة جيرس Gers الواقعة في الجنوب الغربي لفرنسا.

[17]- لارتوا: تقع هذه المنطقة شمال منطقة بادوكالي Pas-de-Calais وتطل على بحر المانش، ومن بين أهم مدنها: ماروي Maroeuil.

[18]- لوبوربوني: تنتمي هذه المحافظة إلى منطقة لابورڭون الواقعة شرق فرنسا، ومن بين أهم مدنها: بوربون لانسي Bourbon-Lancy.

والمكتملة والمحمية جيدا بحدودها الطبيعية المتمثلة في الجبال والبحر. " [1].

ويبدو أن الوحدة التي حققتها فرنسا في عهد لويس 11 وتوطدت أكثر على امتداد القرون اللاّحقة، لم تكن وحدة جغرافية فحسب بل اتحادا عضويا أيضا جعل فرنسا بلدا تنمحي فيه الخصوصيات المحلية وتذوب مناطقه وأعراقه في ثقافته الوطنية، ويحرص الإنسان الفرنسي في إطاره على مصلحة وطنه كحرصه على مصلحته الشخصية مزاوجا بالتالي بين الشخصية الفردية والشخصية الوطنية، ويتشبع جميع مواطنيه بثقافة وطنية قائمة على حبهم لبعضهم البعض ولوطنهم واستعدادهم للدفاع من أجله، مما جعل الوحدة الفرنسية تختلف عن تلك المميزة لباقي الدول الأوربية كإنجلترا وألمانيا اللتين يغيب انصهار مواطنيهما في إطار وطن تسوده ثقافة موحدة، مما يفسر حضور الخصوصيات المحلية فيهما وعدم ذوبانها في هويتهما الوطنية، " يجب أن لا نأخذ فرنسا قطعة قطعة، بل يتعين أن نعانقها في شموليتها. فصحيح أن حياتها المحلية ضعيفة بفعل التمركز (أي ارتباط كل المناطق الفرنسية بالمركز) والحياة المشتركة والقوية والحازمة... فليس لبلدنا رأس إنجلترا القوي والضخم بالصناعة والثروة... بل له رأس واحد متمثل في الحياة الاجتماعية، فإذا كانت إنجلترا تشكل إمبراطورية، وألمانيا تمثل بلدا وعرقا، فإن فرنسا تظل شخصا. "[2].

فالثورة الفرنسية بعد أن أعطت للفرنسيين ذاكرة مشتركة، قامت بدور محوري في تكريس هذه الوحدة، " يجب أن يعترف أصدقاء وأعداء الثورة ... أنها أعطت لفرنسا... ذاكرة مشتركة للجميع ولكل الأقاليم والطبقات الاجتماعية.... ماذا عساي أن أقول، ذاكرة خاصة بكل أسرة ومتجذرة في كل بيت، إما عن طريق المجد أو من خلال الحزن... مات جدي في مصر يقول : العامل الشاب... للقروي الذي يجيبه قائلا: بقي ابني في موسكو، فالمكان الذي تشرب فيه هنا هو مكانه الذي ظل فارغا منذ ما يزيد عن ثلاثين سنة، فكل أسرة سواء كانت غنية أو فقيرة ، يوجد بها مكان كهذا، إنه مكان الشرف. ففي هذا الماضي الخالد تتحد كل الطبقات سواء أكانت متفقة أو متعارضة حاليا من حيث الأفكار والمصالح. إن ذاكرة وطنية كهاته تشكل لكل فرد عنوان عائلته الأبرز، وهي ذاكرة يمكنها أن تشحب في الفترات التي تهن فيها فرنسا ، لكنها تبقى غير قابلة للتدمير، طالما أنها تستعيد حياتها باستمرار... وما دامت تشكل بالنسبة للمستقبل نُصبا تذكاريا للاتحاد ورهنا للتقارب وإحلال السلام، ومنبعا خالدا لتجديد وحدتنا. " [3].

لقد رسخت ثورة 1789 من خلال التآخي الذي ميز الفرنسيين فيها وحدة الأمة الفرنسية، " يتمثل أسى فرنسا العميق في نسيانها لمآسيها.... ومعاناتها بلا جدوى، طالما أن أفرادها لا يهتمون بالماضي ويستعلمون بالكاد عن أحوال جيرانهم... فلما أتت الثورة الفرنسية تغير كل شيء، فأمامي الآن رسالة بعثت بها إحدى قرى لاشومباني إلى الجمعية الوطنية سنة 1790 للتعبير عن تضامنها مع مدينة نيم Nîmes[4]. فلنقل هنا كلمة، لقد اتجه سكان لاشومباني لنجدة أهالي لونـگدوك Languedoc. "[5] [6].

غير أن احتفالات الاتحادات التي عرفتها فرنسا في 14 يوليوز 1790 كانت أكثر أحداث الثورة الفرنسية تكريسا لوحدة وتآخي الفرنسيين، رغم اختلاف أعمارهم والمناطق المنحدرين منها، " هل كانت هناك عوائق في حركة كبيرة كهاته ؟ لقد ساهم الكل قدر المستطاع، وتم توفير اللباس للمسافرين الذين جاء العديد منهم دون لباس رسمي، وظل الكرم كبيرا ومعتبرا على طول الطريق، حيث تم توقيف حجاج هذا الاحتفال الكبير والحوار معهم وإرغامهم...على أخذ قسط من الراحة. فلم يكن هناك أي غريب أو مجهول، بعد أن مشى الحرس الوطني والجنود والبحارة مجتمعين. لقد قَدَّمَتْ هذه الجماعات وهي تَعْبُرُ القرى مهرجانا مؤثرا، إذ كان قدماء المحاربين والبحارة المتقاعدون هم من تم استدعاؤهم إلى باريس... ها هو في النهاية يوم 14 يوليوز الجميل الذي طال انتظاره، وتَحَمَّلَ من أجله رجال شجعان مشقة السفر... لم يترددوا في قضاء ليلتهم في العراء بساحة مارس[7]... فبدأت بالرقص الجموع الأولى التي التحقت بهذه

---

[1]- J. Michelet, *Notre France: ...*, *op.cit.*, p.25.

[2] -*Ibid.*, p.292.

[3] - J.Michelet, *Cours professé au Collège de France...*, *op.cit.*, septième leçon, 27 janvier 1848, (leçon non professée), p.187-188-189.

[4]- نيم: مدينة فرنسية تقع في الجنوب الشرقي لفرنسا وتنتمي حاليا إلى محافظة گار Gard التي تشكل جزءا من المنطقة الإدارية للو نـگدوك روسيون Languedoc-Roussillon.

[106]- لونـگدوك: منطقة فرنسية تقع جنوب فرنسا ، ومن بين أهم مدنها: نيم Nîmes، وبيربينيون Perpignon ، ومونبولبي Montpellier.

[6] - J.Michelet, *Cours professé au Collège de France…*, *op.cit.*, septième leçon, 27 janvier 1848, (leçon non professée), p.193.

[7]- ساحة مارس: كان الرومان عند غزوهم لمنطقة غاليا la Gaule بقيادة سيزار في خمسينات القرن الأول قبل الميلاد هم

الساحة، بالرغم من الشتاء والطقس السيء.... لقد رقصت منطقة لابروتان مع لابورڭون، ورقصت لافلوندر la Flandre [1] مع البيريني Pyrénées [2]. فانتهت منذ شتاء 89 الرقصة الكبرى التي انطلقت من ساحة مارس، وتنفست الصعداء قائلة:... ها هي الوحدة ! "[3].

ماضي تاريخي:

دافع هذا المؤرخ عن عراقة التاريخ الفرنسي برصده في مؤلفه : تاريخ فرنسا لِما راكمه بلده إبان القرنين 14 و15 من مكتسبات أعطت عمقا لهذا التاريخ، ترتبط من جهة بوعي الفرنسيين بدولتهم القومية وتأسيس البرلمان الفرنسي وتجسيد حركة الجاكية la Jacquerie [4] لبروز القرويين كقوة ذات تأثير داخل فرنسا وتبلور عبارة فرنسي طيب لدى الفرنسيين، مما شكل مؤشرا على سيادة روح التآخي بينهم[5]. وتتصل من جهة أخرى بما حققه هذا البلد لاحقا من مكتسبات حداثية تمثلت أساسا في الإصلاح الديني خلال القرن 16، والثورة الفرنسية التي شكلت آخر حلقة في مسلسل إعادة الحياة إلى الإنسان. وهي مكتسبات دعا ميشله فرنسيي القرن 19 إلى وعيها وأن يعملوا على إشاعتها بينهم، " كل القرون عملت من أجلنا... فلقد عرف القرن 16 وحتى يعطينا الحرية الدينية خمسين سنة من الحروب الصغرى المريعة والمناوشات والمكائد والاغتيالات والحرب باستخدام السلاح الأبيض والمسدسات. أما القرن القرن 18 فلقد خاض هذه الحرب في شكل صاعقة، وخلق لنا المجتمع الذي نعيش فيه... إذن فكل العصور ساهمت وعانى أناسها وحاربوا ... وماتوا دون أن يجنوا ثمار عملهم... فلنعمل على منوالهم حتى نُبَارَك بدورنا من طرف أولئك الذين سيسمون هذا العصر: العصر القديم. "[6].

زعم العالمية:

اضطلعت فرنسا في نظر هذا المؤرخ دون غيرها من الأمم بدور محوري في التاريخ الإنساني، مما أعطى تاريخها بعدا كونيا، " نحن أبناء أولئك الذين صنعوا هذا العالم وأسسوا لكل أمة إنجيل المساواة ... فإذا أردنا أن نحصي ما قدمته كل أمة من دم وذهب ومجهودات... من أجل الأشياء النزيهة التي تعود بالنفع على العالم، فإن هَرَمَ فرنسا سيصعد ليلامس السماء ... أما هَرَمُكِ أَنْتِ أيتها الأمم منذ وجودك حتى الآن ! فلن يتجاوز ركبة طفل... فتقليد التآخي هذا، هو الذي يجعل تاريخ فرنسا تاريخا للإنسانية ... فمن سان لوي إلى البتول[7]، ومن جان دارك إلى الجنرالات الشباب للثورة، ظل قديس فرنسا قديسا لكل الأمم الأخرى، فهو متبنى ومبارك ومَبْكِي من طرف الجنس البشري، بعد أن مزجت هذه الأمة دون غيرها من الأمم مصلحتها ومصيرها بمصلحة ومصير الإنسانية . "[8]. ولقد شكلت الثورة الفرنسية التي تم تبني قيمها من لَدُنِ الإنسانية جمعاء أهم حدث دال على كونية التاريخ الفرنسي،" تحدثت الثورة هذا الرسول الكبير لغات كثيرة إلى كل الأرض."[9].

من أطلق اسم إلاه الحرب الروماني مارس Mars على هذه الساحة التي شهدت بعد الثورة الفرنسية مجموعة من الأحداث مثل: احتفالات الاتحادات ومجزرة ساحة مارس في 17 يوليوز 1791 وإعدام جون سيلفان بيبي Jean Sylvain Bailly (1736-1793) في 12 نونبر 1793، ويقع هذا الفضاء حاليا بالدائرة السابعة لمدينة باريس ويحده برج إيفيل tour Eiffel من الشمال الغربي والمدرسة العسكرية من الجنوب الشرقي.

-109 لافلوندر: تقع هذه المنطقة في الشمال الغربي لفرنسا وتطل على بحر المانش، ومن بين أهم مدنها: ليل Lille ودانكيرك Dunkerque ودوواي Douai.

-110 البيريني: سلسلة جبلية تقع في الجنوب الغربي لأوروبا وتخترق ثلاث مناطق في فرنسا تمتد على طول حدودها مع إسبانيا وهي: أكيتان Aquitaine والبيريني الوسطى Midi-Pyrénées ولونكدوك روسييون Languedoc-Roussillon.

111 -J. Michelet, *Histoire de la Révolution française*, *op.cit.*, T.III, p.333-339.

-112 حركة الجاكية: تتمثل هذه الحركة في تمرد القرويين الفرنسيين ابتداء من سنة 1358 ضد النبلاء تعبيرا منهم عن استيائهم من استغلالهم لهم خلال حرب المائة سنة. ولقد تمكن النبلاء من قمع هذا التمرد بعد أن هزموا الجاكيين في 9 يونيو 1358 بضواحي مدينة موMeaux الواقعة حاليا بمحافظة السين والمارن Seine-et-Marne في منطقة جزيرة فرنسا Île de France شمال فرنسا. للمزيد حول هذا الموضوع، راجع: ي.زينون:**"منطق الكتابة التاريخية..."**،مرجع مذكور،الصفحات،من:293 إلى 296.

5 - Jules Michelet, *Histoire de France*, T. III, *Moyen Age*, Paris, L.Hachette, 1837, Préface, p.VI.

6 -Jules Michelet , *Œuvres complètes de Jules Michelet* , Paris, Ernest Flammarion , 1897, discours d'ouverture prononcé à la faculté des lettres le 9 janvier 1834, p. 476-477.

-7 بتول أورليان: (1412-1431)، تعرف أيضا باسم جان دارك Jeanne D'Arc، وهي بطلة قومية فرنسية اضطلعت بدور محوري في مقاومة الاحتلال الإنجليزي للأراضي الفرنسية إبان حرب المائة سنة.

116- J. Michelet, *Notre France: …*, *op.cit.*, p. 298-299-300.

117- J. Michelet, *Histoire de la Révolution française*, *op.cit.*, Préface de 1868, p. 42.

٨

يتحدد إذن مفهوم التاريخ عند ميشله في البعث الشامل للماضي، عبر التزام المؤرخ بتوظيف ذاتيته في التركيب التاريخي وبناء الحقائق التاريخية اعتمادا على المصادر والأرشيفات، والتأريخ للأحداث في السياق الذي وقعت فيه وتفادي إسقاط أفكار وقناعات الحاضر على الماضي. غير أن الغاية من التاريخ في نظر ميشله لا تتمثل في التأريخ للماضي فحسب، ولكن أيضا في فهم الحاضر وتمثل المستقبل. وهي القناعة التي قادته إلى كتابة تاريخ وطني لفرنسا ليشكل مرجعية للفرنسيين يَعُونَ عبرها ماضيهم المشترك، مما سيسهم في توحيدهم، ويمكن أن نلخص مفهوم التاريخ عند ميشله في المعادلة التالية:التاريخ = البعث + الشمولية + الذاتية = إحياء الماضي الميت. الوثائق

MOBILIERS CULTUELS DE JERBA –Tunisie D'UNE TRÈS HAUTE ANTIQUITÉ

Njim Adel
Maître assistant en histoire
et archéologie phénico-punique
Département d'Histoire
FLSH de Sfax Tunisie

Résumé :

Dans l'ouvrage intitulé « Les potiers de Djerba » de Jean-Louis Combès et André Louis nous avons écho d'un vase peu commun qui nous semble d'un haut intérêt. Cet ustensile est utilisé par les Jerbiens d'aujourd'hui dans un culte lié à la fécondité féminine. Nos recherches sur la céramique cultuelle phénico-punique en particulier et antique en général nous ont permis de dire que le vase qui y est utilisé est d'une forme très ancienne venue d'Orient. D'autres vases cultuels jerbiens ont la même caractéristique. C'est à une comparaison entre ces objets cultuels antiques et ceux de Jerba que cette note sera consacrée.

Cette recherche vise à montrer combien cette zone de la Petite Syrtes sujet de notre colloque constitue un terroir richissime en traditions multimillénaires que la culture matérielle nous permet d'entrevoir.

D'ailleurs, nous avons étudié à Kairouan une niche cultuelle avoisinant une mosquée où survit encore une pratique cultuelle très ancienne. Les potières du village de Rejiche au Sahel fabriquent encore des vases en forme de bateaux dont le modèle d'origine est très ancien. Cette seconde étude sera elle-aussi versée dans le dossier de la continuité des objets et des pratiques.

Les recherches historiques et archéologiques en Tunisie s'accentuent en même temps que leurs contenus se cristallisent. Dans cet élan positif la part consacrée aux études régionales est de plus en plus conséquente. Les problématiques et les questions qui y sont soulevées démontrent d'une maturité prometteuse surtout qu'elles sont de plus en plus le fuit d'une jeune génération de chercheurs. La côte orientale de la Tunisie est occupée par trois grandes zones que sont le Cap Bon puis la Byzacène suivie au Sud par la Petite Syrtes qui va jusqu'à la frontière tuniso-libyenne. La région de la Petite Syrtes occupe la majeure partie septentrionale orientale de la côte tunisienne.

Pour ma part, mes recherches sur les objets et les pratiques cultuelles en Méditerranée antique m'ont donné l'occasion de faire une découverte que je considère intéressante pour être inclue dans ce dossier relatif à l'histoire de la Petite Syrtes. Il s'agit de pratiques cultuelles et de mobiliers qui leurs sont associées qui ont lieu dans l'île de Jerba (Figure1). Ainsi, la note que nous allons présenter va s'atteler à relever cet aspect non négligeable de la richesse historique de l'île et en l'occurrence la région de Guellala (Figure 2) le leu de ces coutumes fort intéressantes. Ces pratiques cultuelles qui ont lieu à Jerba à une époque encore récente et il n'est pas exclu de penser qu'elles perdurent encore de nos jours. Dans son œuvre sur la céramique punique, Pierre Cintas présente un vase contemporain utilisé dans l'île de Jerba lors d'une cérémonie cultuelle[1]. Il reprend J.-L. Combès et A. Louis qui citent dans leur travail consacré aux potiers de Jerba une série de pratiques cultuelles et des vases qui leurs sont associées dans la région de Guellala. Ayant fait des recherches sur la céramique cultuelle phénico-punique et Méditerranéenne antique[2], j'ai pu me rendre compte de la grande affinité morphologique des ustensiles cultuels utilisés à Jerba il y a quelques décennies avec d'autres vases cultuels antiques en Méditerranée. Ayant considère que cette observation est d'un grand intérêt scientifique j'ai pensé lui C'est ainsi qu'est née cette recherche. Elle va commencer par circonscrire les cultes de Jerba et le mobilier qu'ils utilisent. Elle souhaite établir une comparaison entre ces familles de mobiliers de Jerba avec leurs formes correspondantes ou voisines du monde antique. Cela aboutira à une ébauche de réflexion sur la signification des formes de ces objets. Enfin, nous ne manqueront pas de conclure par évoquer le dossier de la continuité de la culture matérielle et des pratiques ici comme ailleurs en Tunisie. C'est un dossier à la fois riche et encore ouvert.

Les actes de la vie à Jerba précisément à Guellala mais sans doute ailleurs jusqu'à une époque très récente et vraisemblablement aussi de nos jours sont ponctués de cérémonies à caractère sacré et profane. Celles-ci utilisent une multitude d'objets intéressants à de multiples égards. Dans cette note nous allons les regarder d'un angle très particulier qui est celui de leurs parentés morphologiques et assurément historique avec des objets similaires très anciens répandus aussi bien en Orient qu'en Occident. Nous allons énumérer les occasions au cours desquelles cette panoplie de mobilier est utilisé en nous fondant sur la forme des vases et en partant de la forme la plus simple à la plus complexe sans considération de la valeur ou de la signification des pratiques qui leurs sont associées. Nous considérons cette perspective

---

[1] Cintas, Céramique, p. 543, fig. 47.

[2] Njim, Catalogue ; Id., Vases ; Id., Céramique cultuelle.

fondamentalement anthropologique donc qui ne relève pas de notre domaine de compétence qui est archéologique et plus spécialement celui de la céramique et de ses usages. Ainsi, naturellement, notre présentation va s'arrêter pour cet instant sur quatre occasions bien particulières, il y en a d'autres sûrement et c'est sans doute très intéressant de les étudier à l'avenir, au cours desquelles des objets aux formes très évocatrices sont utilisées.

Dans leur travail sur les potiers de Jerba, J.-L. Combès et A. Louis nous disent, qu'il y quelques années, dans l'île de Jerba à l'occasion de la fête de circoncision et précisément lors de la pose du henné qui précède cette cérémonie on allume un vase en poterie vernissée dit « qandil soussi » (figure 3)[1].

La fête du mariage elle-aussi l'occasion où des objets cultuels intéressants sont impliqués. En effet, dans la soirée du mariage, le mari rentre dans la chambre nuptiale puis allume la lampe de mariage puis la passe à l'une des femmes de sa famille. Cette lampe est dite « mesbeh kbir » (figure 4)[2].

Une autre circonstance liée au mariage est l'occasion d'utiliser un objet de culte d'un fort intérêt. Il s'agit d'une cérémonie qui précède le mariage. Une fille qui va bientôt de marier avant de quitter la maison de son père se prête à une cérémonie d'adieux. Avant le lever du soleil les femmes de la famille l'amènent vers un olivier proche de la maison. La maquilleuse de la fille porte une lampe à trois godets vernissée en vert (figure 5)[3]. Arrivée près de l'olivier elle y accomplie un rite. Fait sept tours autour de l'olivier. Frappe avec une branche de l'olivier trois jeunes filles. Casse un œuf avec son talon.

L'ultime exemple pour notre travail concerne un moment significatif de la vie de la fille jerbienne : c'est celui de la puberté. Quant une fille atteint l'âge de la puberté, les femmes de la famille se réunissent à une date fixée d'après les lunaisons. Elles accomplissent une procession après le coucher du soleil avec un rameau d'olivier à la main. Elles se dirigent vers un gommier. Durant la procession les femmes chantent des couplets que les hommes ne comprennent pas. Une fois près du gommier, on égorge un coq ou un chevreau. On brûle dans la poterie de la gomme du chardon à glu et d'autres graines ainsi que des plantes odoriférantes. On fait des libations d'eau et de sang de sang menstruel. La jeune fille porte sur la tête une lampe allumée en poterie à un bec et sept godets qui ne sert qu'à cet usage (figure 6)[4]. Le vase est émaillé en vert. Ce vase n'est plus utilisé aujourd'hui et semble avoir été réservé à cette procession de nubilité. Les quatre godets inférieurs de la lampe contiennent de l'eau et des onguents. Les deux godets supérieurs contiennent des produits bénéfiques et des parfums. Cette lampe est dite « majemra ».

Après avoir passé en revue ces quelques cérémonies et les vases qui y sont impliqués, notre objectif sera d'établir des connexions entre chaque forme de vase de Jerba avec les principales formes identiques ou voisines qu'on retrouve en Orient ou en Occident à des époque très anciennes. Ce premier repérage à caractère spatio-chronologique vise à jeter les jalons d'une interprétation historique méticuleuse de ce phénomène. Il va sans dire qu'une telle recherche ne devrait pas être précipitée d'où le caractère strictement

---

[1] Combès-Louis, Djerba, p. 275 et p. 163, fig. VI, 11, p. 289, pl. XI, 1.
[2] Ibid., p. 285 et p. 162, fig. VI, 10, p. 290, pl. XI, 6.
[3] Ibid., p. 279 et p. 289, pl. XI, 3.
[4] Ibid., p. 280 et p. 173, fig. VI, 24-25.

technique qui imprègne notre présentation actuelle.

Les vases de Jerba que notre étude va englober appartiennent à trois types de formes à savoir celle de vases dits étagés, de vases à godets multiples munis d'une lampe au sommet et enfin de vases à godets multiples. Nous allons essayer de présenter pour chaque forme utilisée à Jerba quelques une des principales formes proches qui sont utilisées à des périodes parfois très anciennes en plusieurs endroits d'Orient et d'Occident.

L'ustensile utilisé lors de la fête de circoncision à Guellala est composé de deux cuvettes étagées reliées par une poignée le tout reposant sur un support (figure 3). La forme de cet objet est très anciennement attestée en Orient ensuite largement diffusée en Occident avec quelques variantes soit munies ou non de poignée ou de support. Il est impossible dans ce cadre de mentionner toutes les données relatives à ce type d'objet, nous allons nous limiter aux quelques formes les plus représentatives. Nous avons auparavant mené un travail de synthèse, quoi que partiel, mais très instructif à ce sujet[1].

Pour ce qui des formes munies de support mais sans poignée nous allons nous contenter de citer deux repères l'un oriental et l'autre occidental. En effet, un vase provenant de Chypre représente cette catégorie de mobilier (Figure 7). Il remonte à une période comprise entre le huitième et le cinquième siècle avant J.-C.[2]. C'est cette forme qui a sans doute migré vers l'Occident. Elle est représentée par un exemplaire retrouvé dans le site de Trayamar en Espagne (Figure 8)[3].

Cette catégorie d'objets offre aussi d'autres variantes démunies de support. Elles présentent deux profils l'un avec une poignée comme le vase de Jerba l'autre sans poignée. Les exemplaires munis de poignée sont très rares. Un vase provenant de Palestine représente cette catégorie (Figure 9)[4]. Il est à noter que cette forme est encore absente en Occident. La deuxième série de ces objets démunis de support est caractérisée par l'absence de poignée reliant les deux cuvettes. C'est de très loin la forme la plus dominante par son nombre et sa diffusion. Nous allons nous contenter de citer deux exemplaires représentatifs. Le premier provient d'Orient. Il fut découvert à Chypre (Figure 10)[5]. L'autre provient du site de Trayamar en Espagne (Figure 11)[6].

Un autre vase intéressant est utilisé lors des cérémonies de mariage à Jerba (Figure 5). Cette forme appartient à une catégorie bien particulière de mobilier. Il s'agit des vases à godets multiples couronné par une lampe au sommet. Nous disposons jusque là d'un seul exemplaire antique il s'agit d'un kernos provenant de la nécropole de Sulcis (Figure12). Il se situe entre la fin du sixième et le début du cinquième siècle avant J.-C.[7]. La rareté du nombre d'exemplaires de cette catégorie de vases, la documentation de cette forme à deux périodes très éloignées l'une de l'autre, la conservation de cette forme à Jerba sont des données d'un grand intérêt sur lesquelles il est intéressant de se pencher à l'avenir afin d'en élucider les mécanismes.

L'ultime catégorie de mobilier cultuel utilisée à Guellala auquel nous consacrons cette note est représentée par un vase à plusieurs godets

[1] Njim, Survivance.
[2] Njim , Vases, p. 365-366, p. 370 n° 474.
[3] Ibid., p. 370, n° 473
[4] Ibid., p. 371, n° 477
[5] Ibid., p. 369, n° 469
[6] Ibid., p. 44, n° 7.
[7] Njim, Vases, p. 227-228, n° 290.

utilisé lors d'une cérémonie de puberté (Figure 6). La littérature scientifique qualifie ce type d'objet de kernos. Il va sans dire que le culte qu'on retrouve à Jerba mérite qu'on y revienne pour de multiples raisons mais avec le concours de plusieurs spécialistes et pas uniquement des historiens. Au cours de cette note on va se limiter à évoquer l'intérêt historique de cette catégorie d'objets. Un vase très ancien provenant de Chypre appartient à cette catégorie, il est constitué de quatre godets jumelés surmontés par la silhouette d'un personnage (Figure 13). Ce vase date du Chypriote Ancien III c'est-à-dire deux mille cent et deux mille avant J.-C.[1]. De la ville d'Ugarit nous avons un autre vase dont la base a disparu composé d'une cuvette centrale entourée de six autre godets (Figure 14). Ce vase est donc très proche du vase de Jerba. Il date de l'Ugaritique Récent c'est-à-dire entre mille quatre cent cinquante et mille trois cent soixante cinq av. J.-C.[2]. Un autre kernos provenant de la cité de grecque de Philakopi ressemble beaucoup au vase de Jerba (Figure 15)[3]. Une réplique de ce vase est utilisée dans les rites de fécondité de la cité d'Eleusis. Enfin, de l'épave d'El Sec nous avons un exemplaire en céramique à vernis noir constituée d'une cuvette munie d'un support et d'une cuvette centrale entourée de six autres godets (Figure 16)[4].

Cette rétrospective ne prétend pas à l'exhaustivité, elle s'est contentée de passer en revue quelques exemplaires représentatifs ressemblant à chaque forme de vase utilisé à Jerba dans des cérémonies cultuelles. Les considérations historiques de ces connexions sont certainement très complexes et nécessitent un travail plus profond. Par prudence, nous préférons les développer à l'avenir dans une recherche spécifique. Ainsi, dans ce cadre nous allons nous atteler à une autre tâche non moins importante. Il s'agit de tenter d'identifier la signification de ce mobilier cultuel surtout qu'il a joui à la fois d'une diffusion et d'une continuité pour le moins exceptionnelles qui ne sont sans nous interpeller.

D'abord, commençons par une remarque capitale. Les trois profils de vases de Jerba qu'il s'agit de vase à deux cuvettes superposées, de vase à cuvettes multiples surmontées d'une lampe et de vase à cuvettes associées tous traduisent un seul et même objet sous trois aspects différents. Quelle serait la signification de cet ustensile ?

La piste la plus probable serait que ces diverses formes représentent un bassin. C'est l'argument auquel nous adhérons et qu'on va tenter de défendre. Effectivement, la morphologie de cet objet sous ses multiples formes, et depuis les exemplaires les plus anciennement attestés, traduit irrévocablement un bassin. C'est à cette conclusion que nous sommes parvenus après de longues années de fréquentation de ce type de mobilier. Des arguments quant à l'usage et au contexte archéologique ne font qu'appuyer cette opinion.

Pour ce qui du contenu des cuvettes des objets anciens de cette catégorie que nous avons découverts, nous sommes pour l'instant dans l'incapacité de trancher cette question. Cependant, l'usage d'un vase de Jerba pourrait nous éclairer sur cette question. En effet, sur le vase de Jerba utilisé dans le culte relatif à la cérémonie de puberté (Figure 6) les godets inférieurs au nombre de quatre contiennent de

[1] Yon, Manuel, p. 96, fig. 33 b
[2] Njim, Ibid., p. 373, 385 et 389, n° 489.
[3] Ibid., p. 389, n° 493.
[4] Ibid., p. 388, n° 488.

l'eau et des parfums[1]. Ces bassins doivent avoir une importance particulière. Une représentation sur une amphore de Chypre figure deux génies portant chacun sur la tête un vase à cuvettes superposées (Figure 17)[2]. Une telle représentation accentue la valeur particulière des cet objet. Un autre argument vient accentuer cette hypothèse, il s'agit de ce qu'on peut qualifier d'ubiquité de ce type de vases. En effet, cette catégorie de vase est présente presque dans tous les contextes archéologiques. Les vases étagés sont omniprésents aussi bien dans les nécropoles que dans les sanctuaires du type tophet ou dans les milieux urbains. Sans pour autant prétendre trancher cette question de façon hâtive mais le bassin constitue une composante de certains milieux urbains depuis la très haute antiquité. Un bassin se trouve devant le temple du Prophète-Roi Salomon (Figure 18). Le bassin est une composante indispensable des lieux de culte chrétiens Les baptistères chrétiens découverts ici et là en Tunisie comme ailleurs en témoignent. Il suffit de citer un beau baptistère chrétien de Kélibia dans la région du Cap Bon en Tunisie (Figure 19).

Au terme de cette note, penchons nous sur l'origine de cette forme de vase. Deux hypothèses sont présentées. La première prétend que ces vases sont une invention grecque. Il faut dire que ce sont les données textuelles et quelques découvertes archéologiques majeures qui favorisé cette opinion. En effet, un sujet de ces vases appelés kernos, nous disposons d'un auteur grec texte Athénée qui en décrit l'usage el le rôle prépondérant dans le mobilier des banquets[3]. Cette opinion est renforcée aussi par les découvertes aussi bien de tables à offrandes en pierre que de vases en céramique de cette catégorie d'objet au palais de Malia utilisés destinées à des cérémonies cultuelles[4]. Cependant, les recherches que nous avons menées sur ce type de mobilier depuis quelques années, nous font pencher vers une autre opinion. Cette catégorie de vases ne pourrait être que proche orientale. L'épicentre de la naissance de cette forme de vase n'est pas encore fixé avec précision. De futures recherches plus poussées qui engloberaient un nombre d'exemplaires plus large et une révision des données avancées à ce sujet seraient nécessaires pour parvenir à ce résultat. Notre intuition est fondée sur quelques exemplaires découverts un peu partout en Orient nettement plus anciens que les vases grecs ce qui démontre l'antériorité de cette forme chez ces cultures. On peut aisément en déduire que les Grecs n'ont fait que puiser dans ce répertoire et sans doute emprunté ces pratiques déjà largement répandues. C'est à cette opinion que nous nous sommes ralliés lors de nos recherches doctorales sur cette catégorie de mobilier[5].

Au terme de notre note qui s'est penchée sur un groupe de vases cultuels utilisés jusqu'à une époque récente à Guellala dans l'île de Jerba où nous avons tenté de souligner leur connexion avec des vases similaires anciens en Orient et en Occident, nous tenons à souligner les points suivants. Cette recherche préliminaire a sciemment omis d'étudier les pratiques cultuelles dans lesquelles ces objets

[1] Combès-Louis, Op. Cit., p. 280.
[2] Njim, Vases, p. 370, n° 476.
[3] Athénée, Banquet, p. 265-266.
[4] Njim, Ibid, p. 378.
[5] Njim, Vases, p. 382 et suivant. D'ailleurs, cette opinion a eu l'aval d'éminents chercheurs, membre du jury de notre thèse que sont Mr. Antoine Hermary (spécialiste du monde grec) et surtout Mr. Jean Gran-Aymercich (spécialiste du monde ibérique).

cultuels sont impliqués. Cette tâche nous aura beaucoup tenté avec la collaboration d'autres spécialistes telle que des ethnologues et des sociologues. Le mobilier cultuel que nous avons étudié dans le cadre de cette communication est d'une très haute antiquité et de provenance le plus probablement orientale. Malgré le grand intérêt d'une recherche qui visera à élucider les conditions historiques de ces liens. Cette note s'est contentée d'évoquer la question. Une telle investigation nécessitera sûrement plus de temps. Aussi les vases cultuels de Jerba ainsi que leurs multiples formes originelles ne traduisent qu'un seul et même objet. Il s'agit d'un bassin. La raison de la prédilection pour ce type de monument qui a jouit d'une quasi-ubiquité durant l'antiquité reste à connaitre. C'est l'objectif de recherches futures plus poussée. L'épicentre de la naissance de ce type de mobilier est loin d'être la Grèce mais plutôt l'Orient. Cette précision dans l'histoire de ces vases est capitale à nos yeux. Enfin, cette recherche a eu pour mérite d'évoquer une grande question, celle de la continuité de la culture matérielle et des pratiques. Auparavant, nous avons eu l'occasion d'évoquer cette question pour d'autres endroits de la Tunisie. Il s'agit d'une niche cultuelle dans la ville de Kairouan recouverte d'empreintes de mains avec du hénné (Figure 20). Notre intuition nous a fait dire qu'un tel monument remonte à la nuit du temps, probablement même à la préhistoire[1]. Suite à cette étude, nous avons aussi découvert que dans l'actuelle ville de Dougga, un lieu de culte situé dans les ruines romaines de la ville est adressé à une divinité nomme Lella Mokhoula (Figure 21)[2]. Cette divinité ainsi que le culte qui lui est adressé sont assurément d'origine libyque. Cette continuité concerne certains objets également. C'est tout à fait par hasard que nous avons découvert dans le village de Rajiche au Sahel que les femmes fabriquent encore de nos jours des vases en céramique modelée en forme de barque et qu'elles offrent aux jeunes mariées (Figure 22). Nous pensons que cette pratique est très ancienne. D'ailleurs, nous pensons à l'avenir consacrer une note à part à cette question. Cette note que nous avons présentée lors de notre rencontre consacrée à la Petite Syrtes a au moins le mérite d'avoir démontré que cette zone de la Tunisie et en l'occurrence l'île de Jerba sur laquelle notre

[1] Njim, Culte, p. 221.
[2] Ibid., p. 222 et 224, figure 5.

communication s'est focalisée est un terroir immensément riche en traditions millénaires sur lequel il faut se pencher à l'avenir.

ABRÉVIATIONS ET BIBLIOGRAPHIE

Athénée, Banquet : Athénée, Banquet des savants, 5 volumes, Paris 1989-199

Cintas, Céramique : P. Cintas, Céramique punique, Paris 1950.
Combès-Louis, Djerba : Jean-Louis Combès-A. Louis, Les potiers de Djerba, Tunis 1967.

Njim, Catalogue : A. Njim, Catalogue de vases à feu phénico-puniques du Musée de Carthage et du Bardo, Diplôme d'Etudes Approfondies, Université d'Aix-en-Provence, Juin 1996.

Njim, Céramique cultuelle : A. Njim, Céramique cultuelle phénico-punique et méditerranéenne antique, Tunis 2014.

Njim, Culte : A. Njim, Un culte préislamique de fécondité à Kairouan, dans Ahmed El Bahi (coordinatuer), Kairouan et sa région ; nouvelles découvertes nouvelle approches, Colloque internatioanl, Département d'Archéologie, Faculté des Lettres et Sciences Humaines de Kairouan 6-8 mars 2006, Tunis 2009, p. 219-224.

Njim, Survivance : A. Njim, Survivance d'un type de vases à feu dit étagé trapu, REPPAL XIII, 2004, p. 183-200.

Njim, Vases : A. Njim, Les vases à feu phénico-puniques de la Méditerranée occidentale, Thèse de Doctorat, Université d'Aix-en-Provence, Juin 2008.

Yon, Manuel : M. Yon, Manuel de céramique chypriote, Lyon 1976.

LISTE DES FIGURES

Figure 1 : carte de l'île de la zone de la Petit Syrtes
Figure 2 : Carte de l'île de Jerba et de la région de Guellala
Figure 3 : vase cultuel de Jerba utilisé lors de la cérémonie de circoncision
Figure 4 : vase cultuel de Jerba utilisé lors de la cérémonie de mariage
Figure 5 : vase cultuel de Jerba utilisé lors de la cérémonie de puberté féminine
Figure 6 : vase ancien de Chypre ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 7 : vase ancien d'Espagne ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 9 : vase ancien de Palestine ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 10 : vase ancien de Chypre ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 11 : vase ancien de Trayamar ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 12 : vase dit kernos de Sulcis ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 13 : vase cultuel de Chypre ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 14 : vase cultuel dit kernos d'Ugarit ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 15 : vase cultuel dit kernos de Philakopi ressemblant au mobilier cultuel de Jerba

Figure 16 : vase en vernis noir dit kernos de l’épave d’El Sec ressemblant au mobilier cultuel de Jerba
Figure 17 : empreinte sur une amphore de Chypre représentant deux génies portant des vases cultuels sur la tête
Figure 18 : dessin du temple du Prophète-Roi Salomon avec un bassin au devant du temple
Figure 19 : baptistère chrétien de Kélibia au Cap Bon (en Tunisie)
Figure 20 : niche cultuelle à Kairouan (en Tunisie)
Figure 21 : monument cultuel à Dougga dit Lella Mokhoula
Figure 22 : barque actuelle en poterie modelée de Rajiche au sahel Tunisie

CATALOGUE DES FIGURES

Figure 1

Figure 2

Figure 5

Figure 6

Figure 7

Figure 8

Figure 3

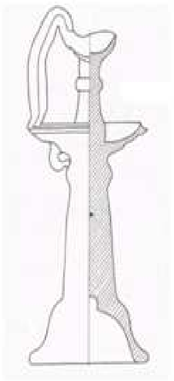
Figure 4

Figure 9

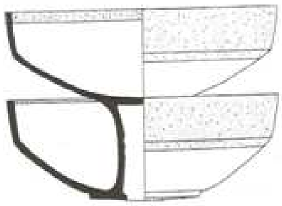
Figure 10

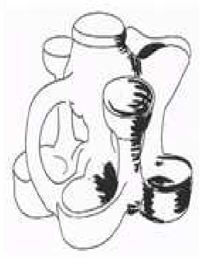

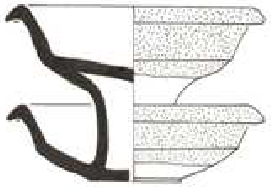

Figure 11

Figure 12

Figure 13

Figure 14

Figure 15

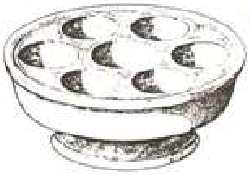

Figure 16

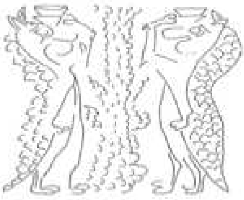

Figure 17

Figure 18

Figure 19

Figure 20

Figure 21

Figure 22

جانب من التأثير الثقافي والروحي لعلماء مغاربة في المشرق العربي: أحمد ابن أبي محلي السجلماسي نموذجاً

عادل جاهل
باحث في تاريخ الجنوب المغربي

مدخل:

تروم هذه الورقة تسليط الضوء على جانب من التأثير الروحي لعلماء مغاربة في المشرق العربي، من خلال نموذج الفقيه الثائر أبي العباس أحمد ابن أبي محلي السجلماسي أحد أعلام المغرب الكبار؛ الذي يُعد بحق من أبرز الشخصيات الفكرية والعلمية الذين كان لهم دور بارز في تنشيط وإنعاش الحركة الفكرية والعلمية بمغرب القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي، كما كانت له بصمات واضحة المعالم في الحياة السياسية، بل نجده قد شارك في صنع البعض منها؛ حيث كان ضمن من شقوا عصا الطاعة على الحكم السعدي المتآكل، بل ودخل معهم في حروب طاحنة أودت بحياة الكثيرمن الناس، وقد استمال إليه كثير من الأتباع والمريدين، فاستطاع بمؤازرتهم الاستيلاء على سجلماسة ودرعة ومراكش.

عايش إذن ابن أبي محلي مجمل التطورات والأحداث السياسية التي شهدها المغرب السعدي (تحديدا عهد السلطان عبد الملك المعتصم، وأحمد المنصور الذهبي، ومولاي زيدان الناصر)، وكان أيضا من الشخصيات الأكثر جرأة في مناقشة وطرح قضايا لها صلة بموضوع الاجتهاد والإصلاح، فآراؤه وتصوراته السياسية والفقهية مازالت تطرح الكثير من التساؤلات والإشكالات.

استطاع ابن أبي محلي بفعل تكوينه العلمي والصوفي المتميز، وعلو كعبه في العلوم الفقهية والنقلية، إلى التأثير على علماء أعلام كان لهم ذكر عاطر في أوساط معاصريهم بالمشرق العربي[1]، حيث صار له منهم أتباع ومريدون إلى درجة أنهم أصبح في نظرهم **"والي أمصار أرباب الطريقة، ومالك أقطار الحقيقة وقطب الوقت وكعبة العارفين وبرهان المحققين ومرشد الموحدين"**.

إذن فمن هو أحمد ابن أبي محلي السجلماسي؟ وما هي أبرز إنتاجاته الفكرية؟ وأين يتجلى تأثيره الفكري والروحي على علماء المشرق العربي؟

هذه الأسئلة وغيرها هي ما سنحاول الإجابة عنها في هذا المقال.

---

[1] علماء مصر تحديدا.

المبحث الأول:التعريف بأحمد ابن أبي محلي السجلماسي

(1)ـ مولده ونشأته ودراسته

هو ـ كما عرَّف بنفسه ـ أحمدبنعبد الله بنمحمد بن القاضي بن أبيمَحَلِّي (بفتح الميم والحاء وكسر اللام المشددة بعدها ياء تحتية ساكنة) السجلماسيثم الفيلاليالمعروف بابنالقاضي، وحسب المؤرخ أبو القاسم الزياني فهو **"ينتسب لبني العباس، واشتهر نسبهم بسجلماسة، ويعرفون بأولاد ابن اليسع أهل زاوية القاضي"**[1].

إزداد ابن أبي مَحَلِّي عام (967هـ/1559م) بحاضرة سجلماسة من أسرة عريقة عرفت بعلمها ومكانتها الإجتماعية الرفيعة؛ حيث توارث أجداده خطة القضاء منذ العهدالمريني بسجلماسة وأحوازها، فكما قال ابن أبي محلي: **"وأما جدودي (...) فهم قضاة بلدنا سجلماسة، قبل انكسار جفنها في دولة بني مرين، وقبل ذلك فيما أرى"**[2]، كما استمرت شهرتها في عهد الدولة السعدية؛ حيث نستشف ذلك بجلاء في نص الرسالة التي بعثها السلطان السعدي المولى زيدان إلى أحمد ابن أبي محلي، حيث ورد فيها: **"وزاويتكمالمباركةأعظمالزوايا، عمرها الله علىالدوام بالذكر، ولا أخلاهامنعظيمالثواب والأجر، آمين"**.

تربى ابن أبي محلي تربية دينية خالصة بكل صورها في حجر والده بالزاوية التي كان يُشرف عليها بنفسه، حيث حفظ هناك القرآن الكريم وتعرَّف على المبادئ الأولى للقراءة والكتابة، وقد اعترف ابن أبي محلي بأنه لولا صرامة والده لضاع، يقول أحمد ابن أبيمحليفي هذا الصدد:"**لكنه شديد البأس -أي والده- ربما ضربني بعدما يوثقني بالحبل لما رأى من شرودي، وولوعي بصيد العصافير، واللعب بالكرة وحضور الأعراس وزعامتي فلولا تعنيفه مع ماسبق لضعت، فجزاه الله عنا في ضبطه وضغطه**"[3].

لقد كان لهذه البيئة ونمط التربية الأثر الكبير في تنشئته الاجتماعية وتكوين شخصيته وبناء فكره، وفي تبلور آرائه وتصوراته لاسيما في الجانبين السياسي والعلمي.

ترك ابن أبي محلي، وهو ما يزال في ريعان الشباب، مسقط رأسه سجلماسة لينصرف إلى اكتساب العلم والتنافس في طلبه، وركوب المخاطر من أجله، والاغتراب عن الأهل والأحبة في سبيل تحصيله، هدفه الاستكثار من لقاء الأعلام، والحصول على إجازاتهم بأسانيدهم في رواية الكتب والعلوم، حيث نجده يستقر بمدينة فاس[4] التي شكلت منارة علم وقبلة كل راغب في التزود بالعلم والمعرفة من كل حدب وصوب رفقة أخيه محمد بن عبد الله، هذه المدينة ستشكل منعطفا متميزا في حياة ابن أبي محلي، إذ كان لا يتوانى في إعطاء الأوصاف الرنانة لها؛ لأنه إنبهربها وتأثر بجوها، **"فهي المدينة المنورة والبهجة البيضاء"**[5]، وقد مكث بها خمس سنوات فأخذ عن شيوخها المبرزين في زمانه أمهات

---

[1] أبو القاسم (الزياني)، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)**، [دراسة وتحقيق رشيد الزاوية]، الريصاني: مركز الدراسات والبحوث العلوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1992، ص:37.

[2] عبد المجيد (القدوري)، مادة **" ابن أبي محلي"**، معلمة المغرب، سلا: إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 1426هـ/2005م، الجزء 21، ص:6993.

[3] عبد المجيد (القدوري)، **ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت**، الرباط: منشورات عكاظ، الطبعة الأولى، 1991، ص:39-40.

[4] يقول ابن أبي محلي في هذا الصدد:**" وكان خروجي لطلب العلم بفاس في حدود الثمانين وتسعمائة، وأنا يومئذ مراهق أو بالغ الحلم، لا همة لي إلا في العلم".**
أحمد بن خالد (الناصري)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، [تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري]، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997، الجزء 6، ص:27.

[5] القدوري، م.س، ص:6993.

العلوم التي كان من ضمنها الأدب والنحو والفقه والحديث.

لم تطل إقامة ابن أبي محلي بمدينة فاس هذه المرة، فتركها متوجهاً ـ على إثر معركة وادي المخازن أو **"المخازى"**كما يسميها- بنصيحة من أحد أصدقائه إلى بلاد زعير، وكان يسميها **"بلاد السمن و العسل"** ليلتحق بزاوية محمد بن مبارك الزعري، حيث سيختار ابن أبي محلي لنفسه حياة الوحدة والانعزال بعيدا عن دائرة الأحداث ورداءة الزمن وأهله للتأمل في أحوال الوقت وتبدلها وفيما كان الداعي والسبب في ذلك، حصل خلالها على**"تكوين صوفي واسع علىالمستوى النظري والسلوكي، فخالط أرباب التصوف والمجاذيب ولبس المرقعة والقلنسوة وحمل العصا وجمع بين تصوف العامة والعلماء، وخَبَرَ هذا الميدان خبرة جعلت المشارقة يرغبون فيالانخراط في سلكه"**[1]. ثم اتجه لاستكمال رحلة طلب المعرفة نحو فجيج، وفي أثناء تطوافه في هذه البلاد، التقى عالمها أبي القاسم أحمد بن عبد الجبار (المتوفى سنة 1021هـ) الذي اشتهر بالعلم وسعة الاطلاع، والحزم والصلاح في تلك البلاد، حيث أجازه هذا الأخير في علم الحديث.

وبعد رحلة علمية حافلة بالاستفادة والتحصيل شملت كل ميادين المعرفة، قضاها في طلب العلوم الدينية الشرعية والعلوم الذوقية الصوفية وما يتصل بها من أسرار وعلوم روحية، استقرأحمد ابن أبي محلي السجلماسي سنة (1002هـ/1593م) بوادي الساورة تحديداً بقرى بني عباس في شرق المغرب، حيث تصدر للتدريس بها، فالتفّ حوله عدد كثير من الطلاب والمريدين والباحثين عن السر والطريقة، واستطاع بفعل علو مقامه العلمي والديني والروحي إلى جانب خبراته الشخصية وقابليته الفذة؛ في بسط سيطرته على مجمل الواحات الشرقية، الشيء الذي جعل السلطان أحمد المنصور الذهبي يتخذه مستشارا خاصاً له في الشؤون الصحراوية، تحديدا في ولايات توات وتيكورارين، ودعا عماله في هذه الجهات الاتصال به، والاعتماد عليه في حل بعض المشاكل التي تعترضهم هناك. وقد مكنه أيضاً الاستقرار بالساورة من التعرف على أشهر رجالات التصوف بها الشيخ عبد القادر بوسماحة المعروف بسيدي الشيخ[2]، حيث سيتزوج ابن أبي محلي إحدى بناته - وهي الزوجة الثالثة له ـ ، لكن لم يكتب لهذا الزواج أن يعمر طويلا؛ حيث انتهى سريعا بالطلاق، وذلك بعد أن اتهم ابن أبي محلي الشيخ السماحي بالإباحية والميل إلى العكاكزة (الطائفة اليوسفية)[3]،

---

[1] محمد (ماكَامان)، **الرحلات المغربية(ق.XI-XIIهـ/XVIII-XVIIم)**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة بحوث ودراسات، رقم 72، مطبعة الأمنية، الطبعة الأولى، 2014، ص:191.

[2] عبد القادر السماحي ولد بنواحي الشلالة الظهرانية ناحية العين الصفراء حوالي سنة 940 هـ الموافق لـ 1533 م، وتوفي في سنة 1030هـ/1621م، كان فقيهاً أديباً وصوفياً، كانت له زاوية بفجيجيؤمها تلامذته من المنطقة، وتتلمذ عليه أحمد ابن أبي محلي.

تعتبر"الياقوتة"أهم تراث فكري خلفه الشيخ السماحي في ميدان التصوف، وهي عبارة عن قصيدة تتكون من 178 بيت، خلالها دافع السماحي ونافح عن مذهب التصوف، وكانت أيضاً فرصة استغلها للرد على منتقديه دون أن يستعمل أسلوب التجريح.

[3] هذه الطائفة ينعتها ابن أبي محلي بالزائغة، حيث خصص لها الباب الأول من كتابه "منجنيق الصخور، لهدم بناء شيخ الغرور، ورأس الفجور" للتنديد بهذه الطائفة المنحرفة المتعارضة مع الدين والسنة.

والعكاكزة طائفة صوفية، اختلفت آراء المؤرخين في أصل وتاريخ هذه الطائفة الضالة، نشأت بالمغرب خلال الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي في إطار التيار الصوفي الزروقي-الراشدي الذي تدفق على البلاد من المغرب الأوسط، وتفرع إلى اتجاهات متعددة، وعرف إنتشاراًواسعاً، وصادف متعاطفين ومنتصرين، وواجه منكرين ومعترضين.

للتوسع في الموضوع ينظر: عبد الله (النجمي)، مادة **"العكاكزة"**، معلمةالمغرب، سلا: إنتاج الجمعية المغربية

فكانت نتيجة ذلك تحول العلاقة بين الرجلين من التناغم وصفاء الود إلى الاختلاف والجفاء، ويظهر ذلك جلياً في سلسلة المؤلفات التي خصّصها ابن أبي محلي للرد على الشيخ السماحي؛ حيث سيفجر ابن أبي محلي كل طاقته الفكرية والإبداعية، بقلمه الناقد وأسلوبه الحاد، في نعت الشيخ السماحي ـ أشد خصومه ـ بأقبح النعوت وبعبارات حادة وشديدة الوصف هو وشيعته، مما جعله أكثر جرأة في القول، وربما أبعده هذا الأسلوب الناقد عن مقاصد التدوين، حيث نجده يدعوهم بالفجار والجهلة والسفلة، ولا يرى فيهم إلا شدخ رؤوسهم بكل الأدوات الحربية المدمرة المتوفرة في زمانه من سيف ومدارس ومهراس ومنجنيق، ولما لا تقطيع أمعائهم بالسم الزعاف[1].

أعلن ابن أبي محلي بمجرد عودته من محجته الثانية سنة (1012هـ/1603م) ثورته بالجنوب على إثر تنازل الشيخ المأمون السعدي عن مدينة العرائش للإسبان سنة (1019هـ/1610م)، وعلى إثر ذلك اجتمع عليه خلق كثير، وازدحم الناس عليه، وكثر مريدوه، هنا بدأت أطماع ابن أبي محلي في الملك حيث قرر الدخول إلى مراكش، وهزم جيش زيدان الذي فر إلى ثغر آسفي، لكن حكم ابن محلي بمراكش لم يدم إلا ثلاث سنوات إلا ربعا، إذ استنجد زيدان المذكور بالفقيه أبي زكريا يحيى الحاحي شيخ زاوية زداغة بتافيلالت شمال تارودانت بجبل درن[2]، وقد أنجد زيدان بعد أن اشترط عليه شروطاً منها أن يتخلى عن شذوذه الجنسي، وقد تمكن يحيى الحاحي السابق الذكر من القضاء على ابن أبي محلي وكسر شوكته **"في أول معركة"**[3] بينهم في 8 رمضان عام 1022 للهجرة / 30 نونبر 1613 ميلادية، فكانت النتيجة وعلى لسان صاحب النزهة **"فرار جموعه وانهزام شيوعه ونهب محلته وقطع رأسه، وتعليقه على سور المدينة، إذ بقي معلقاً مع رؤوس جماعة من أصحابه نحوا من إثني عشرة سنة. وحملت جثته فدفنت بروضة الولي الشهير أبي العباس السبتي، تحت المكتب المعلق هنالك، قرب المسجد الجامع. وقد رمز لقيام أبي محلي ووفاته الشيخ الفقيه (...) أحمد المريدي المراكشي، فقال - رحمه الله - : "قام طيشاً ومات كبشاً"**[4].

مات أحمد ابن أبي محلي السجلماسي لكن أفكاره وتصوراته بقيت راسخة في أذهان الكثير من أتباعه ومريديه، حيث استمر عدد كبير منهم يعتقدون أنه لم يمت ولكنه اختفى وسيعود لامحالة، لدرجة أن بعضهم حسب محمد بن الطيب القادري، ورغم مرور أزمنة طويلة ـ أكثرمن قرنين ـ ظلوا ينتظرون ظهوره، كما ينتظر الشيعة خروج الإمام[5].

(2)ـ تآليفه

اقتحم أحمد ابن أبي محلي السجلماسي ميدان التأليف من بابه الواسع، حيث نجده تمكن في مدة قصيرة فيما بين 1011 و1019 للهجرة من تأليف ما يزيد على ألف صفحة في مختلف المعارف، تثيرعناوينها

للتأليف والنشر، مطابع سلا، الطبعة الأولى، 1424هـ/2003م، الجزء 17، ص:6994.

[1] محمد (حجي)، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1409هـ/1988م، ص:143.

[2] عبد الله (الحاجي)، **الدولة السعدية آليات التطور ومظاهر التدهور، سوس بين 916-1015هـ/1510-1609م**، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، الطبعة الأولى، 2013، ص:244.

[3] عبد اللطيف (الشادلي)، **المجاهد السلاوي محمد بن أحمد العياشي، من تاريخ المغرب في القرن السابع عشر**، الرباط: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سلسلة رسائل وأطروحات رقم 65، مطبعة الأمنية، الطبعة الثانية، 1433هـ/ 2012م، ص:28.

[4] محمد (الصغير الإفراني)، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، [تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشادلي]، الرباط: المطبعة الملكية، الطبعة الثانية، 1437هـ/2016م، ص:332.

[5] محمد (بن الطيب القادري)، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني**، [تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق]، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم رقم 8، الطبعة الأولى، 1397هـ/1977م، الجزء الأول، ص:190.

الغرابة لما فيها من عنف وتعبير على حالة نفسية قلقة ومضطربة[1]،وهي انعكاس لواقع جعل منه ممثلا لثقافة عصره بتنوع مجالاتها وكثرة أزماتها ووجوه الصراع فيها، نلمس كل ذلك بوضوح في العناوين التالية:

-الإصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت[2]

-منجنيق الصخور لهدم بناء شيخ‌الغرور ورأس الفجور

-الوضاح لكل متمشدق فضاح

-السيف البارق مع‌السهم‌الراشق

-سلسبيل الحقيقة والحق في سبيل الشريعة للخلق

-سم ساعة في تقطيع أمعاء مفارق الجماعة

-مهراس رؤوس الجهلة المبتدعة، ومدارس نفوس السفلة المنخدعة

-القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من السقيم

-تهييج‌الأسد

-أجوبة الخروبي

يتضح من خلال العناوين الغريبة والعنيفة أعلاه، أن ابن أبي محلي استعمل بكثرة الأدوات الحربية والعسكرية المدمرة (المنجنيق، السيف، المهراس، السم، التهييج)، وهذا تعبير عن حالته النفسية العصيبة والمضطربة، وهذا ما جعل المشارقة يتهكمون ويسخرون من أسماء تلك العناوين حتى أن بعضهم اعتبروا مؤلفاته إساءة كبرى للمغاربة، في هذا الصدد يقول ابن أبي محلي: **"إن المشارقة يضحكون من المغاربة بسبب تأليفي الأنيق"**[3].

(3)ـ ثقافته ومكانته العلمية

سنختصر قيمة ابن أبي محلي العلمية في نص بليغ مُعبِّر، صاغه صاحبه بأسلوب أدبي جميل، وببلاغة تعبيرية ذات حُسن معاني، إنه مؤرخ المملكة السابق عبد الوهاب بن منصور، يقول في كتابه (أعلام المغرب العربي) ما يلي: **"أما عن قيمته العلمية فقد كان مديد الباع واسع الاطلاع على العلوم الدينية والأدبية يستحضر النصوص المتعددة ويحتج بها في تأييد أفكاره وترجيح دعاويه، وكان فياض القريحة سيال القلم، ينظم الشعر على طريقة الفقهاء، يجيد فيه ويسف، ويثقل ويخف، كثير التأليف حاد اللسان عنيف الجدال خبيث الهجاء (...) كان من كبار المصلحين الدينيين في القرن الحادي عشر الهجري، لسعة علمه وثقوب ذهنه وثبات جنانه وذلاقة لسانه وسلاسة أسلوبه ومطاوعة قلمه، ولكن الوسواس الذي خامر عقله حاد به عن الطريق السوي وسار به في متاهات وترهات اوردته في النهاية حتفه"**[4].

ويضاف إلى هذه الشهادة ما قاله محمد الصغير الإفراني صاحب النزهة في حقه:**"كان فقيهاً محصلاً، له قلم بليغ ونفس عال (...) وله شعر وسط (...) ونصيب من الذوق"**[5].

ومن الشهادات الأخرى في حقه شهادة الأستاذ رشيد الزاوية محقق كتاب البستان الظريف، الذي قال عنه:**"أحمد بن عبد الله المعروف بأبي محلي أحد كبار فقهاء ومتصوفي عصره"**[6].

من خلال الشهادات أعلاه، يتبين أن أحمد ابن أبي محلي السجلماسي تبوأ مكانة علمية كبيرة جعلته زوبعة عصره الفكرية وظاهرته المتفردة، ومع الأسف لم يلق ما يستحقه من الاهتمام والتحليل لإبراز عبقريته من بين

---

[1] هذه الحالة النفسية العصيبة تطرح علامة استفهام كبرى حول معالم هذه الشخصية، هل هذه الحالة كانت نتيجة تربية أبيه القاسية المتسمة بالعنف والشدة؟ أم هي ناتجة عن بيئته التي ولد فيها، والتي تتميز بالخشونة والغلظة وضنك العيش؟

[2] لها عنوان ثان هو: عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر.

[3]القدوري، **الإصليت**...، م.س، ص:103.

[4] عبد الوهاب (بن منصور)، **أعلام المغرب العربي**، الرباط: المطبعة الملكية، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م، الجزء الخامس، ص:291-292.

[5]الإفراني، **نزهة‌الحادي**...، م.س، ص:326.

[6]الزياني، **البستان الظريف**...، م.س، هامش رقم 112، ص:75.

رجالات الفكر والسياسة بالمغرب برز ذلك في إنتاجه الغزير والمتنوع، فهو ينتمي إلى صنف أولئك العلماء الذين ساروا في طريق العلم، وركزوا قواعده، وتعمقوا في دراسته، ولا غاية لهم سوى مرضاة الله، وتركوا للزمن الحكم لهم أو عليهم.

المبحث الثاني:صور من التأثير الثقافي والروحي لأحمد ابن أبي محلي السجلماسي على علماء المشرق العربي

لا جدال في أن المشرق العربي يحتل مكانة متميزة لدى عموم المغاربة، لهذا نجد أن أقصى غايات العلماء المغاربة الذهاب إلى المشرق والأخذ عن علمائها الأعلام، ومجالسة نوابغ أدباءها، ولقاء أبرز مشايخها في التربية الصوفية، والتماس الأوراد منهم، وجلب أحمال الكتب والنوادر من المؤلفات، رغم بعد الشقة وعناء السفر، وقد أسعفت المشارقة في ذلك جملة عوامل ومؤهلات جعلت منهم رواداً للفعل الثقافي بامتياز، لما اشتهر به هؤلاء من تبصر في العلوم العقلية والنقلية وبراعتهم في ميدان اللغة والأدب، يقول العلامة ابن خلدون: **"فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع. حتى أنهم ليظن كثير من رحالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيسا بفطرتهم الأولى. وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب. ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك، ويولعون به، لما يرون من كيسهم في العلوم والصنائع"**[1].

من خلال النص الخلدوني أعلاه، نستشف بجلاء أن المشرق العربي من حيث هو مركز للعلم والمعرفة وبفعل وزنه الديني والثقافي، قد اضطلع بحكم عوامل ومؤهلات كثيرة أسهمت كلها في التأثير على العلماء

[1] عبد الرحمن (ابن خلدون)، **مقدمة ابن خلدون**، [اعتناء ودراسة أحمد الزعبي]، بيروت: دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بدون تاريخ، ص:471.

والطلبة المغاربة، حيث كان لهؤلاء المشارقة الباع الطويل في الإسهام في تنشيط الحركة الفكرية والعلمية بالمغرب، لكن نجد العكس مع أحمد ابن أبي محلي السجلماسي، الذي طبقت شهرته آفاق المشرق العربي خاصة مصر[2]، حيث لا يمكن لأحد أن يجادل في كونه يعتبر من الشخصيات المغربية التي أسهمت مساهمة فعالة في تثمين العلاقات الثقافية والروحية بين المغرب والمشرق العربي، فمن خلال رحلتيه الحجازيتين التي جمعهما في مُؤَلَّفٍ يحمل عنوان "إصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت"، نجد أن ابن أبي محلي ترك فيعلماء المشرق العربي تأثيرا كبيرا وأثرا بليغا، لاسيما فيمجال التصوف، وصار له أتباع ومريدون علماء كثيرون أمثال عبد الهادي المرصفي، وعلي الأجهوري إلى درجة أنهم أصبح في نظرهم**"والي أمصار أرباب الطريقة، ومالكأ قطار الحقيقة وقطب الوقت وكعبة العارفين وبرهان المحققين ومرشد الموحدين"**[3].

ومما خاطبه به علي الأجهوري بتاريخ جمادى الأولىعام 1015هـ قوله: **"ويرجومن الله تعالىأن تقبلوه منأتباعكموأن يكون في خاطركم مشمولاً بدعائكم وأن يكون ممن لكم به عناية وأن ترسلوا له رسالة لما يكون عليه من طريقتكم الحميدة، فلعل الله يحشره في زمرتكم"**[4].

وفي رسالة أخرى نقف على جملة من شيوخ الأزهر يسألونه الدعاء المعروف بدعاء الصمدانية، وفي

[2] يعتبر ابن أبي محلي حسب الأستاذ محمد حجي أول من أدخل التبغ إلى بلاد النيل، ومنها انتشر في الشام وشبه الجزيرة العربية، هنا بدأ المشارقة يتعرفون عليه، ومن خلال ذلك ازداد اهتمامهم به.

للمزيد انظر: محمد (حجي)،**الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، المحمدية: مطبعة فضالة، 1977، الجزء الأول، ص:247.

[3] القدوري، **الإصليت**...، م.س، ص:129.

[4] نفسه، ص:130.

طليعتهم سليمان البابلي (المتوفى سنة 1026 هـ)، وأحمد الكلبي (المتوفىسنة 1027 هـ).

بل أكثر من ذلك نجد أن الشيخعبدالهادي المرصفي، يبالغ فيالإطراءعليهمثلقوله: **"فأسأل الله الكريم المنان بالفضل والإحسان، أن يديم علينا طلعة بهجة عارف الزمان وأستاذي، ووصلتي إلى الله واعتمادي وحياة روحي ونور فؤادي، هو مولاي الشيخ أحمد بن عبد الله الفيلالي المعروف نسبه الشريف بإبن القاضي أدام الله ضياء الوجود بطول بقائه وأضاء قلوب المريدين بإشراق نجم سمائه"**[1]، **ويضيف المرصفي في حاشيته أيضا: "ثم إني أتطفل عليكم، وأسأل فضلكم الإنعام على الفقير بالوظيفة التي أذنتم الفقير بالاشتغال بها على وجه مخصوص (...) ونفس الفقير متشوفة إلى الوقوف على الصمدانية الكبرى فإنكم أشرتم إليها في القسطاس"**[2].

ستتوالى بعد ذلك على أحمد ابن أبي محلي السجلماسي مجموعة من المراسلات من العلماء الأزاهرة الذين تأثروا وأعجبوا به، لعل أبرزها مراسلة الشريف الميقاتي المعروف بالطحان، التي يصف فيها ابن أبي محلي بـ**"بهجة عارف الزمان"**[3]، و**"قطب دائرة العرفان، وإمام مسلكي العصر والأوان"**[4]، و**"القطب الرباني والعارف الكامل الصمداني"**[5].

لم يخفي الشريف الميقاتي تأثره بشخصية ابن أبي محلي، حيث نجده بروحانية مؤثرة وأسلوب أخاذ يقول:**"بعد تقبيل قدميه ويديه، أشرف تحيات، طيبات نشرها، وأوفى تسليم ...عطرها مستغفرا من إقدامي على هذا الأمر العظيم، وتهجمي على حضرة هذا المقام الفخيم، وهو أني أكاتب هذا القطب الرباني، والعارف الكامل الصمداني مع أني لست لذلك أهلا، ولا لمخاطبة مثله فحلا ولكن حملني على ذلك شدة شوقي إلى ذاته الشريفة، وطمعي في أن اندرج في سلك من انتمى إلى تلك المقامات المنيفة وأوسم بين أحبابي بأني أحد أتباعه وأعرف من العالمين بأني جملة أشياعه وربما وصل كتابي هذا إليه في حالة إفاضة وإشراق فنظر نحو نظرة رحمة ورأفة وإشفاق فنار قلبي وانشرح صدري، وذهب عني ظلام الشقاق ثم أعرض على مسامعه الكريمة ما عندي من كثرة الأشواق وهيبة الفراق،وألم طول عدم التلاق"**[6].

بالمقابل من كل هذا، نجد أن بعض العلماء **"الفحول الأقطاب والراسخين في العلم من حضرة فاس ومراكش ودرعة، وسوس، وسجلماسة، وفجيج، وتلمسان، وتونس بعد الجزائر. وغيرها من سائر البلدان"**[7] اعترفوا له **"بالقطبانية"**[8]، وبأنه**"شمس زمانه"**[9]، كما يطلبون منه الانخراط والانضمام في سلكه:**"فأردنا، سيدي الانضمام في عقدكم والانخراط في سلككم فلا تمنعونا (...) سيدي ابعثوا لنا سبيحة من أيديكم أو غير ذلك كشاشية من فوق رأسك لتكون عندي البركة"**[10].

إلى جانب تأثير ابن أبي محلي الصوفي هذا، نجد أن مؤلفاته المتعددة الاتجاهات تركت هي الأخرى صدى كبيرا لدى العلماء الأزاهرة؛ الذين أعجبوا بها، بعدما كانوا يتهكمون ويسخرون من أسماء عناوينها حتى أن بعضهم اعتبروا مؤلفاته إساءة للمغاربة، في هذا الصدد يقول أحمد ابن أبي محلي السجلماسي:**"إن المشارقة يضحكون من المغاربة بسبب تأليفي الأنيق"**،

---

[1] نفسه، ص:136.
[2] نفسه، ص:143.
[3] نفسه، ص:140.
[4] نفسه، ص:136.
[5] نفسه، ص:141.
[6] نفسه، ص:141.
[7] نفسه، ص:37.
[8] القبطانية: أو القطبية الكبرى تعني مرتبة قطب الأقطاب الأعلى باطن خاتم النبوة.
[9] نفسه، ص:37.
[10] نفسه.

لكن خلال رحلته الحجازية الثانية (1012/1014هـ) استطاع أن يتجاوز تلك الصورة السيئة التي تركها في رحلته الحجازية الأولى

(1001/1002هـ)، والتي قاس من خلالها صنوفاً من الازدراء مُبديا جلدا كبيرا في الوقوف أمام ظروف مثبّطة لأصدق العزائم، حيث ستعرف مؤلفاته إقبالا كبيرا لدى المشارقة، بعدما طبقت شهرتها الآفاق، لاسيما عندما ترك فيهم كتابه "الإصليت الخريت بقطع بلعوم العفريت النفريت" أو "عذراء الوسائل وهودج الرسائل في مرج الأرج ونفحة الفرج إلى سادة مصر وقادة العصر"، وقد تناول فيه حياته وإنتاجه وما عاشه من أحداث وتقلبات سواءٌ بالمغرب أو خارجه، ثم كتاب "الوضاح لكل متمشدق فضاح"، إضافة إلى كتاب "القسطاس المستقيم في معرفة الصحيح من السقيم"، وهما كتابان في علم التصوف والحقائق والمعارف. تركهما عند الأزاهرة فأعجبوا بها وكتبوا منها نسخاً كثيرة،وبهما عَظُمَ شأن ابن أبي محلي عند المشارقة.

خاتمة:

نافلة القول، حاز أحمد ابن أبي محلي السجلماسي مكانة رفيعة بين أترابه من علماء وأدباء المشرق العربي لاسيما المصريين منهم، وقيلت فيه مدائح كثيرة، وأثنوا عليه بما هو أهله، وأعجبوا بحدة ذكائه وصلابة عوده وتبحره في كل العلوم التي اشتغل بها؛ والتي تميزت بدقة التصنيف، وسعة الاطلاع، وتفتح في النظر، وحصافة في الرأي، فنال الصدارة والتقديم، وظفر بالحظوة والتقدير.

بل أكثر من ذلك فقد أسهم مساهمة فعالة بفعل نفوذه الروحي إلى جانب خبراته الشخصية وقابليته الفذة في امتلاك ملكة التأثير، حيث جذبت إليه النفوس وأخذت بمجامع القلوب، كما أنه ترك بصمات واضحة المعالم في تطوير قناة التواصل العلمي والحضاري وتثمين الصلات الفكرية والروحية بين المغرب والمشرق العربي.

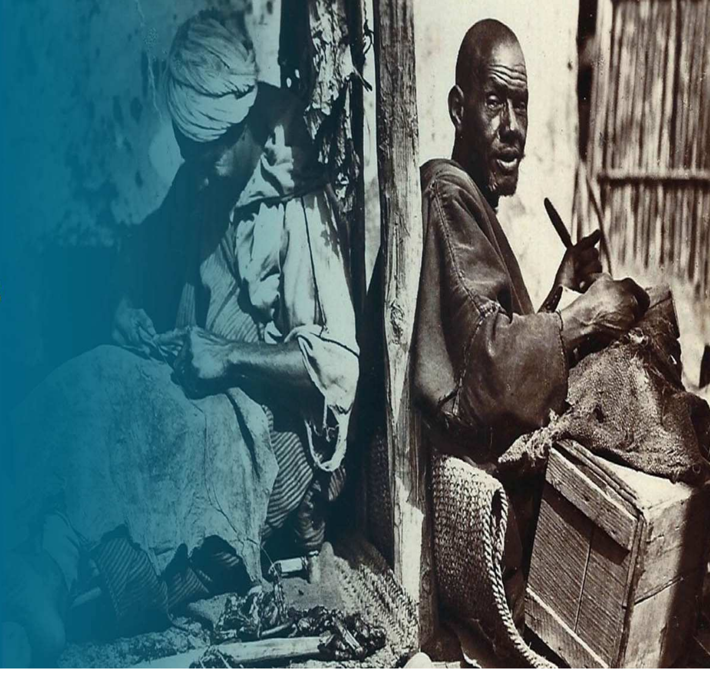

الحرف والصناعات التقليدية في غمارة خلال الفترة المعاصرة

د. معاذ البكوري
باحث في تاريخ المغرب المعاصر

ظل التاريخ الاقتصادي للمغرب المعاصر والراهن غير مفكر فيه بما يكفي من لدن المؤرخين المغاربة، في وقت جرى فيه التركيز بشكل كبير على التاريخ السياسي والعسكري، لدرجة أن تاريخ مغرب القرن العشرين جرى اختزاله، إما في تاريخ الحركة الوطنية المغربية وامتداداتها أو في تاريخ الأحزاب السياسية أو المقاومة المسلحة المرتبطة بالتصدي لزحف القوات الاستعمارية الساعية لاحتلال المغرب أو في الأحداث المرتبطة بتدبير الحكم في المغرب المستقل والصراع حوله. وهكذا تناسى معظم المؤرخين المغاربة الواقع الاقتصادي للبلاد إبان الفترة الاستعمارية وبعدها، مع أن الاقتصاد تحكم بشكل كبير فيما عرفته البلاد من أحداث وتحولات. وهكذا، ترك مجال تناول هذا الواقع لباحثين أجانب ولباحثين مغاربة من خارج حقل التاريخ، فكانت الحصيلة حرمان التاريخ الاقتصادي لمغرب القرن العشرين من المعالجة النظرية والتطبيقية، الكفيلة بتسليط الضوء على أماكن العتمة من تاريخنا المعاصر والراهن، وتفسير تطور البلاد، بعد توقيع معاهدة الحماية الفرنسية والإسبانية.

غالبا ما يرتبط التاريخ الاقتصادي بالاجتماعي، ويكفي القيام بفهرسة لمواضيع البحوث التي أنجزت حول تاريخ المغرب المعاصر للوقوف على الإنتاجات الغزيرة التي اختارت الاشتغال على مواضيع ذات طابع سوسيواقتصادي، ورغم ذلك فإن مكانة التاريخ الاقتصادي الحقيقية ضمن هذه الأبحاث كانت تراوح مكانها، حيث يتم المرور بشكل عابر على المعطيات الاقتصادية والانصراف بشكل مسهب في تحليل أثرها وتداعياتها على المجتمع. لذلك، كان من الأفيد إنجاز أعمال تهتم بالتاريخ الاقتصادي، وتعنى بتشريح الواقع الاقتصادي، وتقديم معطيات يمكن استثمارها لتحليل تطور البلاد في مختلف الأصعدة.

وبناء عليه، خصصنا هذا المقال للتطرق إلى بعض الركائز الكبرى في الاقتصاد الغماري المغلق: الحرف والصناعة التقليدية ومحاولة الإلمام بمؤهلاتها وخصائصها. فما هي أهم ركائز الصناعة التقليدية الغمارية ؟ وما أهم الحرف الغمارية وتوزيعها الجغرافي ؟ وهل شهدت المنطقة تأسيس نواة للصناعة العصرية خلال فترة الحماية؟

1-الاستغلال المعدني بقبائل غمارة

من المعلوم أن أي نواة للحرف التقليدية تحتاج إلى مواد أولية، ولن تستطيع توفير ذلك إلا من خلال الوسيط التجاري في إطار المعاملات التجارية المقننة،

ويمكن تصنيف المواد التي تتوفر عليها المنطقة إلى نوعين:

-المواد الفلاحية: الزيتون-الكتان-الجلد-الكروم-الصوف.

-المواد الأولية (المعادن): النحاس-الفضة-الفحم-الطين-الحديد.

بالنسبة للنوع الأول، ساعد توفر المنطقة على نسبة هامة من أشجار الزيتون (بما فيها أيضا العرصات والجنانات سواء التي في ملكية الخواص أو المحبسة) على خلق نواة صناعية محلية تتمثل في استخراج الزيوت والصابون.

(استخراج) الزيوت: يتضح من خلال الوصف الذي قدمه موليراس وأرشيف كارلوس بريدا أن معظم البوادي الغمارية كانت تستخرج كميات من الزيوت، كما وردت إشارات في كتب الحوالات الحبسية عن وجود دور خاصة لمثل هذه الصناعة في بني خالد وبني رزين.

الصابون: ذكر موليراس عن القبائل الجنوبية لبلاد غمارة أنهم يشتغلون بهذه الحرفة، بحكم قربهم لحاضرة قبائل غمارة "شفشاون"[1]. لكن يبدو أن هذا النوع من الصناعات طرح تساؤلات في الأوساط الدينية والفقهية، خصوصا المتعلقة بالممارسات غير المشروعة كالغش والتدليس، وقد كانت العناصر اليهودية والمسيحية هي التي تتعاطى لهذا النوع من الحرف.

الكتان: كانت منتشرة خاصة بمرتفعات غمارة (بني سلمان، بني منصور، بني خالد) وتزاول بشكل مكثف داخل بعض الأسر واعتبرت موردا رئيسيا لمتطلباتها[2].

الصوف: ارتبطت بنسبة قطيع الغنم، ويرجع ذلك إلى الظروف الطبيعية التي تتسم بها المنطقة، وقد لوحظ أن هذا النوع من الحرف كان أكثر التصاقا بالحياة اليومية من أي حرفة أخرى، فيما عدا المواد الغذائية وما ارتبط بها، وهي تتنوع إلى حرف يزاولها حرفيون في الأسواق، وأخرى عائلية تزاول في المنازل.

ونركز هنا على مساهمة المرأة الغمارية بشكل كبير في رفع نسبة إنتاج هذه الصناعات، لأنها كانت تهتم بتربية دودة القز لاستخراج الحرير، إضافة إلى مشاركتها الفعالة في عمليات الزرع والدرس والحصاد، وقد وجدت المرأة الغمارية أسواقا واسعة لبيع منتوجاتها وتحقيق أرباح هامة.

الجلود أوما يعرف بالدباغة: وهي عملية تنظيف الجلود وتليينها بآلة أو مادة، وينقع الجلد في الماء مدة معلومة تتزايد بقدم عهد الجلد والنقع إما في حوض أو في نهر، ويتكرر النقع والتنظيف عدة مرات. ومعروف أن المدابغ الغمارية عادة ما تكون بجوار الأودية.

وقد ذكر لنا موليراس أنه وجد بأحد مداشر قبيلة بني خالد "مدشر الدباغين" مئات من الأسر، غير بعيد عن منبع واد امطير عند الحدود الجنوبية لغمارة، كانوا يدبغون قديما جلد الخنازير، الذي يصنعون منه وزرة كبيرة من الجلد، تغطي الصدر والبطن إلى غاية الركبتين، وكانوا يقطعون الأدغال والغابات بهذه المآزر التي تحمي جلابيبهم من العليق والأغصان والأشواك[3].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الجلود، وفرت مادة أولية هامة لصانعي الأحذية (البلغة) و"البرادع" وسلع أخرى، فوجدت أسواقا متعددة، سواء لجلود البقر أو

[1] – أوجست موليراس،**المغرب المجهول، اكتشاف جبالة،** الجزء الثاني، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، الطبعة الأولى 2013، ص. 242.

[2] - Intervencion Territorial de Gomara,Comarcal de Puerto Capaz, Sintesis de Los Datos mas Interesantes de las Cabilas de Metiua, Beni Erzin, Beni Smih y BniGuerir, Puerto Capaz, 24 de Septiembre 1955. pp. 8-19 -20-30.

[3] – موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 270.

الماعز، وخلقت منافسات عديدة بين التجار لكونها كانت تحقق أرباحا.

زيت الطرو: يتم تحويل حب نبات الطرو إلى زيت، فعندما ينضج الحب في يناير ويتحول لونه إلى الأحمر ثم إلى الأسود يتم تجميعه، فيوضع فوق بعضه ليرقد لمدة عشرة أيام، ثم يصفى من الأوراق بواسطة الغربال، ويتم الاحتفاظ بالحبات السوداء فتسحق في حفر يصل عمقها إلى 50 سنتمترا بواسطة قضيب (الدقاق)، ويسخن الماء ليتم تبخير المسحوق كالطعام، وبعد غربلته يوضع في سلة من العزف (تاشميت) موضوعة فوق حجارة، وتوضع فوق "تاشميت" حجارة أخرى، وفي الأسفل توضع آنية لصب الزيت، وبعد الحصول على الزيت، يسخن لإبعاد الرائحة، ولزيت الطرو عدة استعمالات كعلاج الماشية وترطيب السوط.

"الخمور" أو "الصامت"(باستغلال الكروم): كانت منتشرة في غمارة بشكل مكثف، ويعزى ذلك إلى المساحات الشاسعة التي خصصت لهذه الأنواع من المزروعات التي لا تتطلب-كما سبق الذكر-تكاليف أو ظروفا طبيعية ملائمة. ويقول موليراس في هذا الصدد: "أما داخل الأسر الغمارية، فيصنع هلام العنب (الصامت)[1] والخمر والخل، ولا تتطلب الكروم أية عناية خاصة..."[2]. وقد رأينا كيف طرحت على الفقهاء المنطقة تساؤلات عديدة حول طبيعة استغلال الكروم.

أما بالنسبة للعنصر الثاني، فإن الخصائص الجيولوجية للمنطقة لعبت دورا مهما في تحديد نوعية المعادن التي يمكن أن تتوفر عليها لخلق "صناعة تحويلية".

- الحديد: إن أهمية هذا المعدن فرضته الظروف السياسية والتاريخية حيث إنه يستعمل لصناعة الأسلحة والعدة الحربية، إضافة إلى الأدوات الفلاحية كالفؤوس والمناجلالخ، والأدوات التي يحتاجها الصناع والحرفيون، وفي هذا الصدد أشار موليراس إلى وجود معدني الحديد والرصاص بقبيلة بني رزين.

- الفضة والنحاس: مادتان أساسيتان بالنسبة لاقتصاد المغرب بصفة عامة، والمنطقة بصفة خاصة، خصوصا لصناعة الحلي والعملة، إضافة إلى مصنوعات أخرى، ومن الأدوات المنزلية (الأواني). وقد أقبل التجار الأجانب عبر الساحل الغماري على هاتين المادتين بشكل كبير، نظرا لأهميتهما في الدورة الاقتصادية[3]، فمعظم المعاملات كانت تتم بواسطة النقود المصنوعة من الفضة والنحاس خصوصا خلال القرن 19م.

لكننا في الحقيقة لسنا واثقين من هذه المعطيات كل الوثوق لسبب بسيط، وهو أن ضرب السكة كان من اختصاص المخزن، لكن هناك دلائل تؤكد أن تاغسة كانت بها دار للسكة خلال العصر

[1] – الصامت هو هلام العنب gelée الذي يتم صنعه عبر تجفيف هذه الفاكهة، ونظرا لقساوة الطقس، فإن العملية تتسم بالصعوبة. ونرى في كل القرى قدورا موضوعة خارج المساكن، يتم تحضير الهلام فيها، أما طريقة إعداده فتتم من خلال عصر العنب الناضج ويطبخ العصير الموضوع في القدر ثلاث مرات، وبعد الطبيخ يترك ليبرد ثم يوضع على النار بعد ذلك، وينجز الهلام حينما يصبح الذي حفض بفعل التبخر إلى الثلثين، مخثرا وحلوا كالعسل. آنذاك يسكب في جرات كبيرة ويحتفظ به إلى الايام الباردة. أما الصامت المسكر Enivrant وهو نوع من الهلام المؤدي إلى السكر، فلا يطبخ سوى مرة واحدة. وقد انتشر بشكل كبير عند غمارة وجبالة.

[2] – موليراس: مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 221.

[3] – بنعبد الله عبد العزيز،"كيف بدأ التصنيع في المغرب"، **مجلة دعوة الحق**، العدد 267، شتنبر-أكتوبر 1987، ص. 93.

الوسيط (العهد المريني)[1].ويذكر أحد سكان تاغسة اليوم بأنه يتوفر على بعض القطع منها[2].

وعلى العموم فإننا نستبعد هذه الدار خلال الفترة المدروسة، وأما استغلال هذه المعادن من طرف السكان، ربما كان يتم بطرق عشوائية لبيعها عن طريق التهريب، وخاصة وأن الطلب على هذه المواد كان متزايدا خلال النصف الثاني من القرن 19م، أو كانت تقوم بسبكها وإرسالها إلى فاس حيث توجد دور الصناعة[3].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فقد حارب الفقهاء عمليات الغش التي كانت تحدث في هاتين المادتين (الفضة والنحاس) خلال المعاملات التجارية والاجتماعية، حيث كان الصناع يقومون بخلط مادتي الفضة والذهب بالنحاس.

وعموما، تكفي نظرة سريعة على الخريطة الجيولوجية لغمارة لإدراك غنى المنطقة بمناجم الرصاص والحديد والنحاس، وقد اشتهر الأهالي باستغلالهم لهذه المناجم، غير أن تنقيبهم لم يتجاوز الطبقات السطحية للأرض، ويتوقفون عند اصطدامهم بالصخور. ويفاجأ المرء بوجود آثارعميقة أغلقت مع مرور الزمن[4]، بينما يذهب موليراس إلى وجود الذهب بكثرة، حيث يقول: "إن الطبقة الجيولوجية لغمارة الشاسعة، هذا المعبر الجبلي المستقبلي لإفريقيا الشمالية، تحتاج إلى دراسة دقيقة، فمناجم الذهب التي مستها معاول الأهالي بالكاد تحتفظ بثرواتها لكل من سيحتل هذا البلد الغني"[5]، غير أن هذا الوصف كان دعائيا فقط يضخم الثروات النفيسة لتشجيع الفرنسيين من أجل احتلال المغرب، غير أنه استطاع أن يرصد لنا بعض التجارب الكيميائية في قلب غمارة (قبيلة بني بوزرة) حيث يقول: "وكانت أول زيارة قام بها محمد بن الطيب لبني بوزرع بمثابة حدث، إذ كان عبد الفضيل منهمكا في تجاربه الكيميائية، معتقدا أنه سيبتكر شيئا جديدا... وهو اليوم مقتنع بأن المغاربة لن يصلوا إلى نتائج مرضية اعتمادا على أدواتهم الغريبة، والتي تثير سخرية أهالي الأوطان المتنورة..."[6]، يتضح من خلال هذا الوصف، النظرة المتعالية والتبرير للإمبريالية اتجاه المغرب خلال نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م. وإلى جانب ذلك كان سكان المنطقة يستعملون الملح الصخري، حيث يقومون باستخراجه وتحويله إلى مادة صالحة للاستهلاك، ويجمعون "الحلفة"، ويغزلونها منها مجموعة من متطلبات الحياة في البادية الغمارية، كالحبل والطبق والقفة، وكذلك الأحذية التي كانت تسمى بـ "اركاسن". وفي قبيلة بني سميح توصل السكان إلى معالجة داء السعار حيث إنه في الحالة التي يعض فيها كلب مسعور أحد الأشخاص يتم علاجه بالطريقة التالية: "يقرع الحيوان ويأخذ حفنة من شعره وحرقها ويوضع رمادها ساخنا على جرح الشخص المصاب، ثم في نفس اليوم، يكتفي بأكل الثوم لمدة عشرة أيام دون تناول أي غذاء آخر، إذا سلمنا بتصريحات وتأكيدات أهل المنطقة، فإن العلاج الوقائي غير المعروف لدى باستور كلل دائما بنجاح"[7].

---

1 – يقول البعض إن المؤرخ عزوز حكيم يتوفر على وثائق بخصوص ضرب العملة بتاغسة، وأنهم اطلعوا عليها في بيته عند زيارتهم له.

2 – التهامي عبد الإله الوزاني، "حضارات سادت، غمارة الكبرى معقل العلم والجهاد والتصوف"، **جريدة تمودة**، العدد 210، من 4 الى 11 يناير 2009، ص. 7.

3 – بنعبد الله عبد العزيز،"كيف بدأ التصنيع في المغرب"، **مجلة دعوة الحق**، م. س، ص.93.

4 – موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 220.

5 – موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 229.

6– نفس المرجع، ص. 230.

7 – نفس المرجع،ص. 237.

والخلاصة أن هذه الأنواع من الحرف، سواء كانت تحويلية بمفهومها الضيق أو التقليدية، فإنها لم تكن بحاجة إلى رؤوس أموال كبيرة، ويعزى ذلك إلى بساطة الإنتاج والتقنيات المستعملة، حيث بحث تجار غمارة دوما عن أسواق لتصريفها عبر محاور تجارية مختلفة.

2-الحرف التقليدية بقبائل غمارة.

تتميز الحرف التقليدية بالمنطقة ببساطتها، نظرا لارتباطها الوثيق بالطبيعة، إلا أنها تلبي متطلبات الساكنة. فبني رزين استثمروا الغابة التي كانت ومنذ القديم تشكل مصدر رزقهم الذي لا ينفد[1]، وقد اشتهروا بممارسة حرفة النجارة التي يبدو أنها أصبحت حرفة متوارثة، إذ أشار لويس مارمول إلى أن النجارة بهذه القبيلة خلال القرن 16م كانت تعرف ازدهارا ورواجا[2]. وقد حافظت هذه الحرفة على مكانتها طيلة القرون اللاحقة، فخلال الفترة المدروسة كان السكان يشتغلون كحطابين يقطعون العود الجيد ويصنعون منه الألواح والأبواب والكراسي وبعض الأواني الأخرى التي تستعمل في حياتهم اليومية[3]، ويقول موليراس في هذا الصدد:"...فإنهم يمارسون النجارة، حيث يصنعون الألواح والأبواب والصناديق والمغازل(**Fuseaux**)ويستخدم واد أورينغا الذي يمكن عبوره بالمراكب من أعلى تازروت إلى مصبه وذلك لنقل الخشب المصنوع"[4]، وقد تفننوا في صناعة هذه الأشياء بإدخالهم عليها تحسينات كنقشها وزخرفتها بألوان مختلفة. كما" أنهم عرفوا بتخصصهم في استعمال مادة صباغية يستخرجونها من جذور الصنوبر، تعطي لونا برتقاليا جميلا ومن جذور نوع الدالية، صباغة بلون أحمر فاقع، فهم متحضرون لتمكنهم من استخلاص ستة ألوان صباغية من النباتات"[5]. وهذه الحرفة المرتبطة بالنجارة من دون شك كانت تضفي جمالا ورونقا على الأواني الخشبية، مما يجعل تسويقها أمرا مربحا. ومما يؤكد حنكة الغماريين في هذا المجال هو توصلهم إلى اختصار هذه الألوان الستة في كلمة "كصح" و"زخم"، التي يشير كل حرف منها إلى لون معين: الكاف يعني (كحل) أي أسود، والصاد أصفر، والحاء أحمر، والزين أزرق، والخاء أخضر، والميم ألوان أخرى[6].وإلى جانب النجارة عرفت هذه القبائل حرفة الحدادة، لصناعة بعض الأواني الفلاحية، كما ارتبطت أيضا هذه الحرفة في قبيلة بني سميح بصناعة أجزاء من البنادق وبارودها[7]. كما ظهرت في منطقتنا العديد من المهن المرتبطة بالأعشاب الطبية، حيث وقفنا على وثيقة تعود لسنة 1270 هـ/1854م، تبرز لنا العديد من الوصفات الطبية المكونة من الأعشاب السائدة في قبائل غمارة (كيفية تبييض الوجه + كيفية استخدام أوراق الدفلة لأغراض طبية)[8].وعموما يمكن حصر أبرز المهن والحرف الموجودة في قبائل غمارة خلال الفترة المدروسة في الجداول التالية:

---

[1] - مارمولكربخال، **إفريقيا**، ترجمة عن الفرنسية لمحمد حجي وأحمد توفيقومحمد الأخضر، الرباط 1984، ص. 71.

[2] - مارمول، نفس المصدر، ص. 71.

[3] - موليراس، **المغرب المجهول**،الجزء الثاني، مصدر سابق، ص. 241.

[4] - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 241.

[5] - موليراس، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص. 243.

[6] - موليراس، م. س، ص. 243.

[7] - موليراس، مصدر سابق، ص. 234.

[8] - وثيقة نتوفر على نسخة منها أمدنا بها الأستاذ محمد عبد المومن (أحد أفراد أسرة عبد المومن الغمارية).

الجدول رقم: 1

المكان	Abaceros البقالة	Aceiteros الزياتة	Albañilas البناية	Albarderos البرادعية	Alfareras فشاشات	Alfareros القشاشة	Alfondigueros الفنادقية	Almonderos اللالة	Armadores de jabegas صنعة الشباك	Atabaleros الطبالة	Babucheros الخرازة	Barberos الحجامة	Buñoleros الصفافة	Cafeteros القهوايجية	Carnalos الحمالة	Caldereros النحاسة	Caleros الشواشة
الشاون	97	4	60	4			5	3		4	43	17	9	23	32	2	15
الجبهة																	
بني زجل		3	3		3					10		1		10			12
بني زيات	13	7	10		13	1			4	9	8	4	14	17		3	1
بني بوزرة			8	3		4			2	2	3	5	1	4			1
بني جرير			20	3								2					
بني سميح																	
بني رزين			5			3											
متيوة			9	3		8	2		1			5		5	12		
بني خالد											8	2		7			
بني منصور		5	6	1		8				6		3	7	1			3
بني سلمان		15	8	1		12				5		9	11	2			4
بني احمد			38							14	8	1		8			
غزاوة		5	30	1						12		2		2			
الاخماس العليا		1	6		14	17					30	2	3	16	10		5
الاخماس السفلى		98	15	8	7	5				11	12	6		7			4
المجموع	110	138	218	24	37	58	7	3	7	73	112	60	45	101	54	5	45

ArchivoDonación Carlos Pereda Roig , Gomara,*Instituto Cervantes Tanger,* Caja 1 ,A/1–A/6 , Carpeta A/2 :المصدر

الجدول رقم:2

المكان	Carboneros الفحامة	Carniceros الجزارة	Carpinteras النجارة	Castradores الفحالة	Cerealistas الخياطة	Colchoneras المطارجية	Comerciantes الشرايا	Confiteros الحلوية	Cordeleros الشراطة	Cosecheras de frutas الغلالين	Curtidoras الدباغة	Enjalbegadores البياضة	Enterradores الحفارين	Especieros العطارة	Estereros الحصارة	Folleros الروابزية	Gaiteros الغياطة
الشاون		13	25		4	2		6			19	4		12			4
الجبهة																	
بني زجل	65		15	4		1	14	2							17		11
بني زيات	15	5	6		1		20				5	1		7			2
بني بوزرة	15	2			4		7	1			4						2
بني جرير	10		2				7							2			7
بني سميح							3										
بني رزين			13				1	1						1			10
متيوة	5		5				16	3	2			5	4	3	4		9
بني خالد	16	7	22	1			25	3			2			4			6
بني منصور	2	2	3			1	4		7					5	6		4
بني سلمان	3	3	8				11							3	6		7
بني احمد	18	18	16				243	9			9			23		1	3
غزاوة	4	10	1				37	1	45		6			10			10
الاخماس العليا	89	21	11				52	3			1			10			8
الاخماس السفلى	12	7	2				23	6	3		5			4	8		7
المجموع	254	88	129	5	9	4	463	35	57		41	10	4	84	41	1	90

ADCP ,Gomara , Caja 1 ,A/1–A/6 , Carpeta A/2:المصدر

الجدول رقم: 3

المكان	Guarnicloneros البزاطمية	Herradores السمارة	Herreros الحدادة	Hilanderas الغزالة	Hojalateros القزدارة	Horneros الفرارنية	Jaboneros الصوابنية	Ladrilleros القواجرية	Medidores العيارة	Molineros عمال المطاحن	Musicos الموسيقيين	Panaderos الخبازة	Pastores الرعاة	Pedreros عمال المقالع	Pescaderos باعة السمك	Pintores الطلاية	Plateros الصباغين
الشاون		2	7	90	3	17	2	9	1	17	10	7			23		1
الجبهة																	
بني زجل		4	14					2		31			43	4			
بني زيات			13		2		2			10	6	21	3		93		
بني بوزرة		3	6					2	1	2	7		30		96		
بني جرير			5			2		1		4					23		
بني سميح			5				59										
بني رزين			7						1								
متيوة		1	6		3			3	2	1		4			14		
بني خالد		2	4		2		5										
بني منصور					1			1	1	7	3		20		9		
بني سلمان					1		7	3	1	10		1	24	2	7		
بني احمد	3	2	2	6	2	5	3		16	93	9	8	757		12		
غزاوة	1	5	6	300	2				4	51	3		300	1			
الاخماس العليا		20	6		1		9	6		211		4	521	2	16		
الاخماس السفلى		11	20		1		4		8	103			210	6			
المجموع	4	50	87	396	18	24	91	27	35	540	37	45	1908	15	293		1

المصدر: ADCP, Gomara Caja 1 A/1-A/6, Carpeta A/2

الجدول رقم: 4

المكان	pOCEROS عمال المناجم	pregoneros البراحة	Rederos الشباكة	Recoveros	Relojeros المواكنية	Sastres الخياطة	Tejedores الدرازة	Tintoreros الصباغة	Tratantes de ganado تجار الماشية	Torneros الخراطة	Verduleros الخضارة	Zapateros الطرافة
الشاون		1		3	3	19	320	1	6	1	30	15
الجبهة												
بني زجل		2		5		13						2
بني زيات		1	11	19		4	30					4
بني بوزرة			6	5		7						
بني جرير				3		10	2					
بني سميح				1								3
بني رزين				2		5						
متيوة		1				4					4	2
بني خالد		1		6		1	5					2
بني منصور		1		2		10	3		7	4		
بني سلمان		1		6		12	18		2			1
بني احمد		3		11		13	14					3
غزاوة		1		10		30	20					2
الاخماس العليا		2		4		12	26		4		6	13
الاخماس السفلى		4		9		1	4		2			4
المجموع		18	17	86	3	141	442	1	21	5	40	51

المصدر: ADCP, Gomara Caja 1 A/1-A/2, Carpeta A/2

يتضح من خلال هذه الجداول ما يلي:
- أن المنطقة المدروسة كانت غنية بالحرف والمهن التقليدية، حيث ناهزت 63 حرفة وهو ما يؤكد على تمسك الغماريين بتراثهم وإرثهم الاقتصادي، رغم التغلغل الاستعماري وتأثيراته المختلفة.
- هيمنة الحرف والمهن المرتبطة بخصوصية المنطقة الطبيعية (الحواتة293) والغزالة (396) والخرازة (112) والنجارة (129).
- غياب عمال المناجم في قبائل غمارة، ما يعني أن الإمكانيات المعدنية في منطقتنا كانت متواضعة، حيث ظل استخراج المعادن عندما تكتشف، عملية سطحية في الغالب، نظرا لعدم التوصل إلى أساليب لبناء المناجم، الأمر الذي أدى إلى عدم نمو صناعة التعدين المحلية.
- لم تخرج الحرف التقليدية في المجتمع الغماري عن إطار الموروث والمألوف في هذا المجال، فكانت منتوجات القبائل الغمارية لا تتجاوز ما تحتاج إليه القبيلة في حياتها اليومية، ويرجع ذلك إلى انعدام الحس الفني وغياب القدرة على تمثل أشياء فنية أو جمالية، لأن ذلك يعتبر بلا قيمة بالإضافة إلى أشياء ذات قيمة نفعية متميزة بالصلابة والجودة.
- إن الحرف التقليدية القبلية في جميع ربوع المجتمع الغماري، كانت بدائية وثانوية بالمقارنة مع النشاط الزراعي، فكانت تقتصر في أغلب الأحيان على فئة من الناس، لا يملكون أرضا أو يعتبرون دخلاء على القبيلة أو لاجئين أو غرباء، ويكونون في الغالب "امزاوكين" بل لا تسترعي اهتمام سوى فئة قليلة من الناس، حيث كان الفخار يقاسم الحداد احتقار العامة، فكان يعيش في شبه عزلة اجتماعية دون أن يحصل من عمله على شيء يغنيه. ولا تعني هذه الاعتبارات أن الصناع لم يكونوا مندمجين اقتصاديا في وسط المجتمع القروي، بل كانوا مكفولين من طرف هذا المجتمع؛ حيث كان نوع من التعاقد الضمني قائما على تبادل الأدوات بجزء من الزرع، وكان هذا التعاقد يسود بقدر ما كانت تسود الأعراف الجماعية في تقرير شؤون القرية.
- لم تكن المواد الأولية دائما في ملكية الصناع، بل كانوا يضطرون إلى كراء استغلال حفر الخزف أو شراء الأخشاب أو التعويض عن محاجر الجبس أو الجير. وحتى عندما تكون بعض المعادن أو الأخشاب متوفرة في الغابات أو في المناطق المشاعة، فقد كان باستطاعة شيخ أو أبناء أسرة كبيرة أن يشعروا الصانع بما يجعله يسترضيهم ولو بتوفير حاجتهم من إنتاجه.
- ازدياد أزمة هذا النوع من الصناع بسبب ندرة المواد الأولية أو فقدانها، عندما تتعرض للمضاربة من أجل التصدير في النصف الثاني من القرن 19م فلم يعد الفلاحون والرعاة الغماريون يأتون بالصوف والجلد للصناع المحليين الذين كانوا يعالجونها لإنتاج حاجات محلية، يأخذ مقابلها جزءا من المال وقسطا من مواد الفلاحة، بل أصبح ينافس الصانعَ رأسمالي أجنبي أو وكيله، ولم يكونوا ينتظرون أن تأتي الجلود أو الأصواف والأخشاب إلى أسواق غمارة، بل كانوا يجرون معاملات تضمن لهم تلك المواد بتسبيقات مالية لفلاحين مفلسين. وقد كانت بوادر رأسمال محلي تقوم باستعمال بعض المتمولين المحليين خصوصا مع بداية التغلغل الاستعماري في شمال المغرب.
- إن هذه الحرف والأنشطة كانت محلية لأن القبيلة كانت تكتفي بصنع حاجياتها الضرورية والمستعجلة، دون التفكير في تعميم الصناعة من أجل التبادل المستمر، والذي يمكن أن يكون قاعدة أساسية لاقتصاد القبيلة لأن الحرف كانت تحتل مكانة ثانوية من انشغالات الفلاحين الذين يخصصون أغلب أوقاتهم للنشاط الفلاحي والرعي وتربية الماشية.

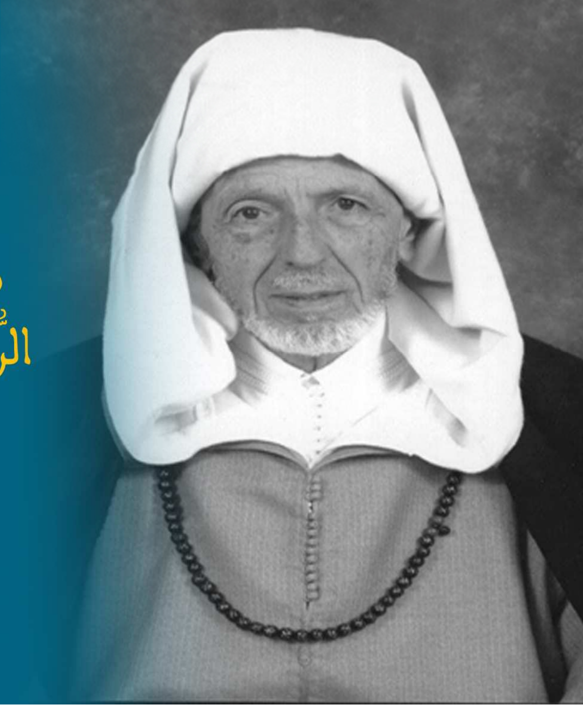

من أعلام شمال المغرب : الشيخ الأمين الرُّوسي الحسني وإسهاماته الفكرية والثقافية.

عبد الصمد المنصوري
باحث في تاريخ المغرب

مقدمة:

تكتسي الكتابات التي تعنى بدراسة الأعلام والتعريف بالشخصيات والأفراد أهمية بالغة في عملية كتابة التاريخ ،وذلك بالنظر لما تختزنه من أحداث ووقائع في ثنايا تراجمها ،وانطلاقا من هاته الأهمية التي تكتسيها مسألة التعريف بالأعلام والترجمة لهم ، وخاصة المنتمين منهم لمنطقة شمال المغرب ،سنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على جوانب من حياة شخصية مهمة عايشت مرحلة الحماية الإسبانية و تركت بصماتها بمدينتي العرائش والقصر الكبير ومنطقة بلاد الهبط بصفة عامة ، ويتعلق الأمر بالشيخ العلامة الأمين الروسي الحسني.

فمن يكون هذا الرجل ؟وما هي أصول أسرته وكيف كانت نشأته ؟ وما هي ظروف نشأة الزاوية التي انتهت مشيختها إليه بعد وفاة أبيه وإخوته ، وفيما تتجلى الأدوار التي اضطلعت بها أسرته في تاريخ المغرب عبر مختلف فتراته ؟ وكيف كانت مسيرته العلمية ؟ وما هي أهم المناصب التي تقلدها ؟ وما هي أبرز كتبه ومؤلفاته ؟

تلكم باختصار أهم الأسئلة التي ستحاول هذه الصفحات المتواضعة الإجابة عنها.

I. الشيخ الأمين الروسي الحسني : أسرته ونشأته و مسيرته العلمية والمناصب التي تقلدها.

أولا : ولادته ونشأته وأسرته:

ولد الفقيه العلامة الشيخ الشريف الأمين الرُّوسِي الحسني بمدينة القصر الكبير بتاريخ 28 من شهر نوفمبر سنة 1918م [1] الموافق لـ 23صفر 1337هـ ، توفي والده الشيخ عبد الله الروسي الحسني وتركه صغير السن [2] ترجع أصول أسرته إلى أبي زيان محمد بن أبي عثمان بن أبي تاشفين بن أبي حمو موسى بن أبي سعيد عثمان بن يغمراسن [3] وهو أمير من أسرة بني عبد الوادي ، عرف بالقبي لعظم رأسه وكان لا يدعى إلا بكنيته ، ولد بتلمسان ونشأ في قصور بني مرين بعد ما نقل السلطان علي المريني قومه بني عبد الوادي إليها إثر استرجاعه لتلمسان سنة 737 هـ ، ومقتل أبيه عثمان وجده السلطان أبي تاشفين الأول أثناء مدافعة بني مرين عنها ،ظهر على مسرح السياسة والحرب في أوائل عام 761هـ عندما أرسله السلطان ابراهيم بن علي المريني للتشغيب على السلطان أبي حمو الثاني الذي استطاع أن ينتزع تلمسان من الحكم المريني [4] ولما وقع الصلح بين حمو موسى الثاني وأبي سالم المريني اعتزل أبو زيان محمد الروسي تلمسان واستقر بدوار جامع الكبير بغياثة الشرقية بجماعة باب مرزوقة بجبل الطواهر على بعد 20 كلم من مدينة تازة ، ويلقب سكان الدوار حتى الآن بأهل الوادي ، وأولاد برواوسة أو الرواوصة [5]

بلغ إشعاع الأسرة الروسية أوجه خلال عصر المولى إسماعيل حيث برز من أبنائها حمدون بن أحمد بن محمد الروسي ، كمستشار سياسي محنك ، وقائد مغوار أهلته صفاته السالفة الذكر لنيل الحظوة والمكانة المتميزة عند المولى إسماعيل ، إذ نجده قد تقلد عمالة مدينة فاس بعد أن عينه السلطان واليا عليها بعد عزله لعلي بن عياد ، كما يؤكد ذلك صاحب تاريخ الضعيف ، يقول : «... وفي أخر ربيع الأول النبوي من عام 1088هـ عزل السلطان رئيس فاس علي بن عياد وولى مكانه القائد حمدون الروسي ونائبا عنه ولده القائد عبد الله » [6]

كما سيكون للوزير القائد عبد الله الروسي دور فعال في تحرير مدينة العرائش سنة 1101هـ/1689م [7] بعد أن وجهه السلطان المولى إسماعيل على رأس جيوشه إليها ، يقول صاحب نشر المثاني في هذا الصدد : «ومن حوادث هذا العالم فتح مدينة العرائش ،وذلك أن أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين ،الخليفة مولانا إسماعيل بن مولانا الشريف الحسني السجلماسي وجه إليها الجيوش مع وزيره القائد عبد الله الروسي ،وأكثر عليهم من الأمر بالقتال ونسب إليهم عدم النصح ،وألحوا بالقتال على من بها من الروم إلى أن اقتحموها عنوة وفتحوها وغنموا أهلها.» [8]

وسار أبناء الوزير عبد الله الروسي وأحفاده على نهجه وتقلدوا الكثير من المناصب السامية و حظوا بمكانة مرموقة لما لمسه فيهم المولاى إسماعيل ومن بعده المولاى عبد الله بن إسماعيل من دراية واسعة بالحروب والسياسة والعلم والمعرفة. [9]

وبعد وفاة المولى إسماعيل سنة 1139هـ/1727م ودخول المغرب في فترة من عدم الاستقرار السياسي نتيجة تنازع أبناءه على السلطة واستغلال جيش البخاري لهذا التدهور والضعف للتدخل في شؤون الحكم ،ستهاجر العائلة الروسية الحسنية من فاس و مكناس في اتجاه شمال المغرب بعد مقتل أحد أبناءها وهو أبو علي الحسين بن عبد الخالق بن عبد الله الروسي عامل السلطان على فاس. [10]

و كان من جملة من رحل من أسرة الروسيين الشيخ محمد الروسي واستقر بجبل الحبيب بقرية الروسيين المسماة حاليا على اسمه ،وانصرفت الأسرة الروسية بمقر سكناها الجديد بعدما توسعت وتفرعت سلالتها إلى حياة الزهد والتصوف ، فأسست أول زاوية لها

بمدشر الزوة بقبيلة جبل الحبيب على يد الشيخ الحاج المفضل الإدريسي الروسِي الحسني أتبعها بتأسيس زوايا أخرى في قبائل وقرى بلاد الهبط والغرب [11] كقرية الشرفاء الضعاف وقرية شرفاء اولاد جميل وقرية حجاوة في الغرب ،وقرية عين السمن وقرية بني مرقي في أهل السريف وقرية بوهاني في بني جرفط وغيرها ،كما أسس زاوية في القصر الكبير ،وبعد أن كثر مريدوه أسس زاوية أكبر وأوسع بأعلى الإهري وكلف بها كل من الشيخ عبد السلام الجيلاني والشيخ عبد الله الروسي.[(12)]

بعد وفاة الشيخ المفضل الروسي الحسني سنة 1327هـ ،سيتولى مشيخة الزاوية ابنه الشيخ العلامة المربي عبد الله الروسي الحسني ،وبعدما سلم هذا الأخير روحه إلى بارئها تولى المشيخة من بعده الشيخ المفضل ثم أخوه الشيخ الفقيه محمد الفاطمي.[13] ثم استقرت بعد الشيخ محمد الفاطمي لأخيه المترجم له في هذه الصفحات الفقيه العلامة الأمين الروسي الحسني .

ثالثا : دراسته و مسيرته العلمية :

تلقى الشيخ الأمين الرُّوسِي الحسني دراسته الأولى على يد أبيه الشيخ عبد الله الروسي الحسني ، وتوقف عن التحصيل بعد مرض ألم به وجعله طريح الفراش لشهور ، ثم تابع بعد تماثله للشفاء دراسته بزاوية أسرته بالقصر الكبير وتتلمذ بها على يد الكثير من الفقهاء الكبار كالفقيه : عبد السلام السريفي العزيبي والفقيه بوعصب والفقيه محمد بن حيدة والفقيه عبد السلام بن قدور والفقيه بوسلهام الحجوي والفقيه المختار الروسي والفقيه محمد الزكاري .

اتجه بعد حفظه للقرآن الكريم على يد الفقيه بوبكر بن أحمد بن مسعود ،لدراسة العلوم على يد الشيخ الفقيه العلامة الضرير حمان بن حسون ،حيث لقنه هذا الفقيه المتمكن الكثير من الفنون والعلوم كالأجرمية في النحو بعدة شروح ،والألفية لابن مالك ومتن ابن عاشر والرسالة لأبي زيد القيرواني وغير ذلك من المواد الفقهية في العبادات والمعاملات.[(15)]

وبعد تبحره في المعرفة وتضلعه في العلوم كلفه أستاذه بوبكر بن أحمد بن مسعود السالف الذكر بالنيابة عنه في تدريس تلاميذ الزاوية ، يقول في مذكراته : «..وبعد تمكني من ذلك والحمد لله تركني أستاذي السيد بوبكر أنوب عنه في تدريس تلاميذ الزاوية ،وبعد مدة قصيرة أصبحت مسؤولا عنهم في تعليمهم على اختلاف مستوياتهم فكان من جملة تلامذتي بعض أولاد مريدي شيخنا قدس الله روحه ،مثل السيد محمد بن الفقير والسيد الهاشمي الفلالي والسيد محمد بن الحاج ومحمد الريفي ،وغيرهم من أبناء سكان حي الزاوية. »[(16)]

ورغم حداثة سنه تولى مهمة تسير زاوية القصر الكبير بعد سفر أخيه الشيخ المفضل إلى بلاد الغرب وإقامته بها لرعاية شؤون الزاوية هناك ، وفي نفس الوقت الذي كان يسهر فيه على أمور الزاوية من صلاة وحفلات دينية ، التحق بالمعهد الديني بالقصر الكبير سنة 1936م وتزود هناك من معين العلوم المختلفة على يد علماء وفقهاء أجلاء كالشيخ علال الكشوري الزرهوني والفقيه العلامة المفضل الجباري ،والعلامة عبد الله الجباري والفقيه عبد السلام الجباري والفقيه أحمد البوطي والفقيه النحوي أحمد الجرفطي وغيرهم.[(17)]

رابعا : المهام والمناصب التي تقلدها:

بعد تسع سنوات من الدراسة النظامية في المعهد الأصيل بالقصر الكبير، التحق الشيخ الأمين الروسي وإلى جانب اشتغال الشيخ في مجال التربية والتعليم سيلج أيضا خطة العدالة كما تأكد ذلك رسالة التعين التي نتوفر عليها ، والتي حصل شيخنا بموجبها على الإذن بتعاطي خطة العدالة ، ملحقا لدى محكمة قاضي العرائش بتاريخ 2 غشت من سنة 1955م.[22]

يقول في كتابه لمحات من الذاكرة الجماعية : « وفي سنة 1951م ولجت خطة العدالة لحرمتها ولأجمع بين الحقيقة والشريعة وأقوم بواجبي تجاه ديني ووطني لما في الشهادة من فضل عظيم وشرف كبير في القرآن والسنة... »

وبالإضافة إلى مهمَّتَي التعليم وخطة العدالة أسندت إليه مهمة الوعظ والإرشاد والخطابة من طرف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بمختلف مساجد و زوايا مدينة العرائش ، بعدما كان يقوم بنفس المهمة اختياريا منذ سنة 1944م.

ومن بين المساجد التي ألقى فيها دروس الوعظ والإرشاد : مسجد الزاوية البدوية والذي مارس فيه مهمة الخطابة ظهرا يوم الجمعة ، والمسجد الكبير بداخل سوق الصغير ، والمسجد العتيق الأنوار بالقصبة ،ومسجد الزاوية المصباحية بالقبيبات ومسجد الزاوية الناصرية بحومة باب البحر، ومسجد الزاوية العيساوية ،ومسجد الزاوية البدوية، ومسجد الحسن الثاني ومسجد ابن حزم [23]

وسيلتحق الشيخ سنة 1961م برابطة علماء المغرب للإسهام في تفعيل أهدافها كما جاء على لسانه ، [24] يقول : «وللتفاعل مع إخواني العلماء والفقهاء في أنحاء المغرب كان من الضروري أن أكون من أوائل المنخرطين في رابطة علماء المغرب لأسهم بدوري مساهمة فعالة في أهداف الرابطة الست، وفي الحسني بسلك التعليم ،في السابع من أكتوبر سنة 1944م ،بعد تعينه للقيام بمهمة التدريس بالمعهد الديني بالعرائش.[19]

مؤتمراتها الحوارية التي كانت تنتهي دائما بوصايا هامة قيمة تشمل مختلف ميادين الحياة »[25]

وتقديرا لجهوده في مجال التربية والتعليم ومساهمته من موقعه في بلورة الوعي الوطني ومقاومة سياسات الاستعمار وتعزيز قيم الهوية الوطنية ومواجهة الخطط التعليمية الاستعمارية ، وشح الشيخ الأمين الروسي الحسني بوسام ملكي (وسام الرضى من الدرجة الممتازة) في 19 يوليوز من سنة 1977م.[26]

يقول في مذكراته « وفي سنة 1946 م التحقت بالمدرسة الأهلية الإسلامية الحرة بالعرائش بالموازاة مع عملي في المعهد الأصيل ، فكانت هذه المدرسة الحرة هي الأخرى واجهة فعالة في مواجهة الخطة التعليمية الاستعمارية وحقلا من حقول التوعية الوطنية ضد المحتل وأساسا من أسس الحركة الوطنية..» [27]

ويضيف في نفس السياق : « واستمرت الأسرة التعليمية في كفاحها اليومي ضد الاستعمار حيث اشتركت في الكفاح الوطني المغربي والجزائري ماديا ومعنويا حتى ظفر كلا البلدين باستقلالهما إلى أن جاء عهد المسيرة الخضراء التي أبدعها ملك المغرب جلالة الحسن الثاني سنة 1975م فكنت ممن حاولت المنافسة فيها والمشاركة رغبة منى في الجهاد في سبيل لله وأداء واجب تحرير وطننا إيمانا منى بأن الجهاد قد أوجبه لله علينا فكنت أحمل رقم التسجيل 1316 في لائحة المسيرة الخضراء لمدينة العرائش...» [28]

II. إسهاماته الفكرية والثقافية :

كان لشغف الشيخ الأمين الروسي الكبير بالعلم والثقافة والمعرفة ، دور كبير في دفعه للإسهام في إعداد الكثير من المقالات التوجيهية والإرشادية ، والتي قام

بنشرها في الجرائد التابعة لرابطة علماء المغرب (الميثاق ومنبر الرابطة) وهذه بعض عناوين هاته المقالات وأماكن نشرها:

- نسيم الوصال.[29]
- وأين الله.[30]
- الإصلاح المقدس.[31]
- ينتمون إلى الإسلام ويستثقلون تعاليمه.[32]
- عفرانك يا رب.[33]
- كل عمل بن آدم مجزي به.[34]
- نهضة في فداء.[35]
- مولد الهداية.[36]
- إلى الهجرة.[37]
- وفد لله لحج بيت الله.[38]

و بالإضافة إلى ذلك نجد في رصيد شيخنا الكثير من نماذج الوعظ والإرشاد وخطب الجمعة نشر بعضها في كتابه لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية [39]

وإلى جانب الخطب والمقالات المذكورة ترك لنا الشيخ الأمين الروسي الحسني مجموعة من المؤلفات والإصدارات المطبوعة في التصوف والأدب والتاريخ نذكر منها : **الجوهر المرصع القدوسي في شرف أبناء الروسي.**[40] **- أذكار شاذلية.**[41]**- نسيم الوصال.**[42]**- تحفة الخطاب.**[43]**- مفتاح السالكين.**[44]**- لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية.**[45]**-**

ويعتبر هذا الإصدار الأخير " لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية " من المصادر المهمة التي رصدت وأرخت لمجموعة من المظاهر الاجتماعية والصوفية بمنطقة بلاد الهبط على الخصوص ومناطق المغرب على العموم.[46]

وفاته:

توفي الفقيه العلامة الشريف الأمين الروسي الحسني ليلة الجمعة فاتح شعبان 1435هـ الموافق لـ30 ماي2014م بمنزله بمدينة طنجة عن سن يناهز الستة والتسعين سنة،وقد وري جثمانه الثرى امتثالا لوصيته [47] بضريح والده المرحوم الشريف عبد الله الروسي الحسني بالزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية بمدينة القصر الكبير.[48]

خاتمة:

لقد ساهم الشيخ الفقيه الأمين الروسي الحسني في تدعيم وترسيخ الثقافة الإسلامية الصحيحة و تعزيز قيم الهوية الوطنية ، انطلاقا من موقعه كشيخ للزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية من جهة ،وبصفته أستاذاً بسلك التعليم من جهة ثانية ، وألف في علوم ومجالات مختلفة ،من جملتها الفقه والتربية الصوفية والوعظ والتاريخ والأدب ، ما جعله من بين رجالات المنطقة الشمالية الذين أسهموا بشكل كبير في نشر الفكر والوعي الثقافي بها

الهوامش:

1) الأمين الروسي الحسني،نسيم الوصال،منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، ترجمة المؤلف المثبتة في صورة الغلاف ، الطبعة الأولى، 2005 م.
2) الأمين الروسي الحسني،لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية، تقديم الدكتور إدريس خليفة ،والأستاذ محمد اخريف ،الطبعة الاولى 2002م،ص:39
3) نفسه،ص:135

4) عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، الجزء الثاني (أبو الخـ ـ أحمد)، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1399هـ/1979م،ص:9-10.
5) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س،ص:39
6) محمد الضعيف الرباطي،تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعدية)،تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري،الطبعة الأولى ،نشر دار المأثورات،الرباط ، 1406-1986،ص:61
7) مصطفى الشريف الطريق ، معركة استرجاع مدينة العرائش في عهد مولاي إسماعيل وتداعياتها التاريخية والأدبية،منشورات المجلس العلمي المحلي للعرائش،دار ابي رقراق للطباعة والنشر،الرباط 2012،ص:223.
8) محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني ،تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق،الجزء الثالث ،منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر نشر وتوزيع مكتبة الطالب ،الطبعة الأولى ، الرباط ، 1407هـ / 1986م، ص:49.
9) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ،ص:49
10) نفسه ،ص:57
11) عبد الجليل الروسي الحسني،راعي الفضائل (مسيرة حياة)،تقديم الدكتور مصطفي الشريف الطريق ،منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية،الطبعة الاولى،مطبعة ألطوبريس للطباعة والنشر ،طنجة ،2015م،ص:168.
12) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ،ص:77
13) نفسه ،ص:120
14) عبد الجليل الروسي الحسني،م س،ص: 22
15) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ،ص:136
16) نفسه،ص:136
17) نفسه ،ص:138
18) محمد اخريف،محمد العربي العسري،القصر الكبير صور تحكي،معالم ووجوه وأحداث،منشورات جمعية البحث التاريخي والإجتماعي بالقصر الكبير،مطبعة الأمنية،الرباط،2015م،ص:187
19) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م،س،ص 139
20) نفسه،ص: 141
21) عبد الجليل الروسي الحسني،م س ص:35
22) ورد في مذكرات العلامة الشيخ الأمين الروسي الحسني ، كما أوردها في كتابه لمحات تاريخية من الذاكرة التاريخية ، أنه ولج خطة العدالة سنة 1951، وهو عكس ما تتضمنه رسالة التعين التي توجد نسخة منها في ملحقات الكتاب المذكور ،الصفحة 247 ، حيث تتضمن الرسالة تاريخ 13 من ذي الحجة عام 1974هـ/ الموافق لـ2 غشت 1955م
23) الأمين الروسي الحسني،لمحات...،م س،الهامش رقم 9،ص:141
24) استخرجنا تاريخ الالتحاق من نسخة بطاقة العضوية برابطة علماء المغرب سنة المؤرخة بتاريخ 1991م.
25) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ، ص:145
26) نسخة من شهادة الوسام الملكي ،مسجلة تحت رقم 694.500.77 ،بتاريخ فاتح شعبان 1397/19يوليوز1977م.
27) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ،ص:141
28) نفسه،ص:140
29) جريدة ميثاق الرابطة،9مارس 1995م
30) جريدة منبر الرابطة عدد 96-1994م
31) منبر الرابطة عدد 67-1993م

32) ميثاق الرابطة عدد673-1995م
33) منبر الرابطة عدد 85-1994م
34) منبر الرابطة عدد85-1994م
35) ميثاق الرابطة عدد-691-1995م
36) منبر الرابطة عدد،57-1992م
37) منبر الرابطة عدد،100-1994م
38) منبر الرابطة عدد،94-1994م
39) الأمين الروسي ، لمحات تاريخية... ، م س ،الهامش رقم15 ص:145
40) الأمين الروسي الحسني ، الجوهر المرصع القدوسى في شرف أبناء الروسي، بدون تاريخ، صورة الغلاف.
41) الأمين الروسي الحسني، أذكار شاذلية ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، بدون تاريخ، صورة الغلاف.
42) الأمين الروسي الحسني ، نسيم الوصال ،أوراد وأدعية من الكتاب والسنة مع شرح الصلاة المشيشية ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2005م.
43) الأمين الروسي الحسني ، تحفة الخطاب ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2006م.
44) الأمين الروسي الحسني، مفتاح السالكين ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2008م.
45) الأمين الروسي الحسني،لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية، م س، صورة الغلاف.
46) بوسلهام المحمدي،أدباء ومفكرو القصر الكبير العاصرون-بحث وتراجم،منشورات جمعية البحث التاريخي والإجتماعي بالقصر الكبير،الطبعة الأولى،مطبعة ألطوبريس،طنجة،المغرب،2008 ،ص:181
47) نص الوصية مثبت في كتاب،عبد الجليل الروسي الحسني،م س،ص:197
48) جريدة العرائش،العدد30،السنة الثالثة،يوليوز 2014.

المصادر والمراجع:

- الأمين الروسي الحسني ، **الجوهر المرصع القدوسى في شرف أبناء الروسي**، بدون تاريخ.
- الأمين الروسي الحسني ، **تحفة الخطاب** ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2006م.
- الأمين الروسي الحسني ، **نسيم الوصال** ،أوراد وأدعية من الكتاب والسنة مع شرح الصلاة المشيشية ،منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2005م.
- الأمين الروسي الحسني، **أذكار شاذلية** ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، بدون تاريخ.
- الأمين الروسي الحسني، **مفتاح السالكين** ، منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية، 2008م.
- الأمين الروسي الحسني،**لمحات تاريخية من الذاكرة الجماعية**، تقديم الدكتور إدريس خليفة ،والأستاذ محمد اخريف ،الطبعة الاولى 2002م.
- بوسلهام المحمدي،**أدباء ومفكرو القصر الكبير العاصرون، بحث وتراجم**،منشورات جمعية البحث التاريخي والإجتماعي بالقصر الكبير،الطبعة الأولى،مطبعة ألطوبريس،طنجة،المغرب ، 2008 م.
- **جريدة العرائش**،العدد30،السنة الثالثة،يوليوز ، 2014.
- **جريدة ميثاق الرابطة**، جريدة تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء ، عدد-691-1995م/ عدد673-1995م/ عدد 9مارس 1995م.
- عبد الجليل الروسي الحسني،**راعي الفضائل (مسيرة حياة)**،تقديم الدكتور مصطفي الشريف الطريبق ،منشورات الزاوية الدرقاوية الروسية الحسنية،الطبعة الاولى،مطبعة ألطوبريس للطباعة والنشر ، طنجة ،2015 م.

- عبد الوهاب بن منصور، **أعلام المغرب العربي**، الجزء الثاني (أبو الخـ ـ أحمد)، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1399هـ/1979م.
- محمد اخريف،محمد العربي العسري،**القصر الكبير صور تحكي،معالم ووجوه وأحداث**،منشورات جمعية البحث التاريخي والإجتماعي بالقصر الكبير،مطبعة الأمنية،الرباط،2015م.
- محمد الضعيف الرباطي،**تاريخ الضعيف(تاريخ الدولة السعدية)**،تحقيق وتعليق وتقديم الأستاذ أحمد العماري،الطبعة الأولى نشر دار المأثورات ،الرباط ، 1406-1986م.
- محمد بن الطيب القادري، **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر و الثاني** ،تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق،الجزء الثالث ،منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر نشر وتوزيع مكتبة الطالب ،الطبعة الأولى ، الرباط ، 1407هـ / 1986م.
- مصطفى الشريف الطريق ، **معركة استرجاع مدينة العرائش في عهد مولاي إسماعيل وتداعياتها التاريخية والأدبية**،منشورات المجلس العلمي المحلي للعرائش،دار ابي رقراق للطباعة والنشر،الرباط 2012.
- **منبر الرابطة** ، جريدة تصدر عن الرابطة المحمدية للعلماء ، عدد 96-1994م/ عدد 67-1993م/ عدد 85-1994م/ عدد85-1994م/ عدد،57-1992م/ عدد،100-1994م/ عدد،94-1994م.
- نسخة من **بطاقة العضوية برابطة علماء المغرب** سنة 1991م.
- نسخة من **رسالة التعين لتعاطي خطة العدالة** مؤرخة بتاريخ 13 من ذي الحجة عام 1974هـ/ الموافق لـ2 غشت 1955م .
- نسخة من **شهادة الوسام الملكي** ،مسجلة تحت رقم 694.500.77 ،بتاريخ فاتح شعبان 19/1397يوليوز1977م.

مواقف أطباء مملكة غرناطة من وباء منتصف القرن الثامن الهجري

يماني رشيد
قسم التاريخ جامعة
أبي بكر بلقايد – تلمسان
الجزائر

لعل أن الكتابات التاريخية حول التاريخ الديموغرافي والصحي لبلاد الأندلس لا يزال بكرا ، وأن معظم الدراسات انصبت حول الواقع السياسي والعسكري وحتى الحضاري بجوانبه الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والفنية، إلا أن الكتابة في جزئيات التاريخ والانطلاق من الجزء للوصول إلى الكل من خلال استنطاق كتب التراجم والمناقب والرحلات لمعرفة كل الخبايا واستكمال ما ينقص هذه الدراسات يبقى ناقصا .

انطلاقا من ذلك آثرنا أن نبحث في جوانب عديدة من خبايا الواقع الاجتماعي والديموغرافي والصحي وحتى الفكري للأندلس في منتصف القرن الثامن الهجري الذي صادف اجتياح الوباء على هذا الصقع والبحث في انعكاساته الفكرية خاصة .

تتفق الروايات والمصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ الاندلس بما فيها الأجنبية على أنّه مند تولية أبو الحجاج يوسف الأول السلطة في دولة بني نصر[1] بدأت معه ملامح العصر الذهبي للمملكة في شتى المجالات السياسية فعقد جملة من الاتفاقيات مع الممالك النصرانية الأسبانية بهدف الاستقرار ، مدعما ركائز الاقتصاد خاصة في الثغور الساحلية بتشجيع التجارة وتأدية دور الوسيط التجاري ، وإنشاء المصانع[2] ، حتى جاء في رثاءه قول ابن الخطيب:

تبكي عليك مصانع شهدتها
بيض كما تبكي الهديل حمام[3]

إضافة إلى ذلك إسهاماته الفكرية والحضارية بتأسيسه المدرسة اليوسفية ، أو النصرية في 750هـ[1] في

---

[1] - بنو نصر يرجع نسبهم إلى سعد بن عبادة بن الصامت الخزرجي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ينظر: ابن عبد البر القرطبي ، الاستيعاب في معرفة الأصحاب ، تخ: عادل مرشد ، دار الإعلام ،ط1،عمان 2002 ،ص469 - ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،تح: عبد الله عنان، ط2،مكتبة الخانجي ،القاهرة1973 ، ج2،ص 93. عنان، عنان محمد عبد الله ،دولة الإسلام في الأندلس ، ق4، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ،ط4، مكتبة الخانجي ،القاهرة 1997، ص 39 . وقد اعترفت الدراسات الاستشراقية بفترة الرخاء و الازدهار في دولة بني نصر على عهد أبي الحجاج يوسف الأول ، ينظر على سبيل المثال : Pascual de Gayganos, The History of Mohammedan dynasties in Spain , vol 2,London 1843 v2,p356. - وأبو الحجاج هو السلطان يوسف بن إسماعيل بن فرج المعروف ،تولى الحكم صغير السن (15 سنة) بعد مقتل أخيه في ظاهر الجزيرة الخضراء في 734هـ ،توفي قتيلا في عيد الفطر (أول شوال) سنة 755هـ، وفي رثائه يقول ابن الخطيب :

تولى شهيدا ساجدا في صلاته
أصيل التقى رطب اللسان من الذكر

ينظر : ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج4 ، ص317 ، 338 - ابن الخطيب ، اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية ، تح: محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة 1347 ، ص97

[2] - عقد أبو الحجاج يوسف الأول اتفاق سلام مع قشتالة سنة734هـ/1334 م،ثم تبعته جملة من الاتفاقيات مع الممالك النصرانية الأسبانية عن فحوى هذه الاتفاقيات وأطرها الزمانية ينظر:ابن الخطيب، كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تح:محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2002 ، ص132 وما يليها- , Atallah Dhina ,Les états de l’occident musulmans aux XIII ,XIV ,et XV siècles ,OPU –ENAL ,Alger,1984,p292-392- Rachel Arie, L’Espagne musulmane au temps des nasrides (1232-1492),ed De Boccard ,Paris 1990 ,p361 .

[3] - ابن الخطيب، الإحاطة، ج4، ص 337 .

غرناطة ، بـيد أن ما يقابل هذا التاريخ في الأندلس - - أسود سواد الظاهرة التي عرفتها مدن المملكة النصرية كغرناطة ومالقة والمرية وثغور أخرى كوادي آش ورندة وبلش ، حيث في عهده جرى الوباء الكبير الذي اجتاح المنطقة في 749هـ/1348م حتى سنة 750هـ/ 1349م[2] .

انطلاقا من هذه الملاحظات المصدرية سنحاول تناول ردود فعل الأعلام الأطباء من الأحداث الطبيعية التي أعاقت الحضارة الأندلسية كظاهرة الأوبئة والجوائح خلال حكم بني نصر ولعل أشهرها وباء منتصف القرن الثامن الهجري(منتصف القرن الرابع عشر ميلادي)، وتأثيراته على الحياة الفكرية الغرناطية .

وانطلاقا من الرصد البيوغرافي للعلماء من خلال كتب التراجم والفهارس والبرامج نسعى أولا التعريق بهذه الجائحة ثم تعقب أهم تداعيات هذه الأمراض على الإنتاج الفكري الغرناطي وإحصاء وتعريف بأهم أعلام المملكة الغرناطية الذين تأثروا بشكل أو بآخر من هذا الوباء .

أما الوباء[3] فهو كل مرض عام، يحدث بصورة سريعة، ويصيب أعدادا هائلة من جميع الأعمار والأجناس ، بينما الطاعون هو مرض وبائي سريع الانتشار مسببا الموت الجماعي[4].

يُـعد وباء الطاعون من أشد الجوائح الطبيعية ، ويُعرف بدوراته خلال عقد أو أكثر[5]، وتُشير الدراسات أن طاعون جوستنيان في الحوض المتوسطي كان من أشد الجوائح فتكا للبشرية في القرن السادس الميلادي[6].

أسهب المؤرخون في وصف الوباء ومدى انتشاره وتأثيره في العالم وعـرّفوه بتسميات عديدة: كالطاعون الجارف[7]، والطاعون الأعظم[8]، والطاعون العام[9] والموت الأسود[10]، والطاعون الأسود[11] أو الفصل الكبير[12] وسنة الفناء[1] ، والموتان[2]...

---

[1] - وبالضبط في محرم 750هـ / 22 مارس إلى 20 أبريل 1349 ، ينظر : Lucien Golvin , Quelques réflexions sur la fondation d'une madrasa a Grenade en 750=1349,Actas XII , congréso de la U.E.A.I, Malaga 1984 ,Huertaz Madrid 1986,p305

[2] - يبدو أن مدينة المرية اجتاحتها الجائحة أكثر من المدن الأخرى كمالقة مثلا ، José Angel Tapia Garrido,Historia genéral de Alméria y su provencia,TomoIV ,Alméria musulmana,Editorial Cajal,Almeria1986, p265

[3] - ابن منظور ، لسان العرب ، دار المعارف ، القاهرة ، د-ت ، ص4751 .

[4] - ابن حجر العسقلاني، بدل الماعون في فضل الطاعون، تح:أ حمد عصام عبد القادر الكاتب ،دار العاصمة، ص22 – ابن خاتمة ، تحصيل غرض القاصد نشر ضمن كتاب الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية لعبد الكريم الخطابي ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988، ص161 Biraben Jean Noel et Le Goff Jacques, La peste dans le moyen âge – Annales. Economies, Sociétés, Civilisations, 24 e année , n°6-1969, p1485

[5]- الحسين بولقطيب ، جوائح وأوبئة المغرب في عهد الموحدين ،منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002، ص22 - حسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ومحمد الأخضري، ط 2 ،ج2، دار الغرب الإسلامي،بيروت ، 1983، ص68- op cit, Le Goff ,p1492,1493 - Carpentier Autour Elisabeth , de la peste noire , Famines et épidémies dans l'histoire du XIV siècle , A. E.S.C n°17 ,1962, p 1082

[6] - سُمي بهذا الاسم نسبة إلى الإمبراطور البيزنطي جوستنيان ، وقد ضرب هذا الطاعون عاصمته القسطنطينية سنة 541م، ينظر: op cit ,p 1492. ,Le Goff- محمد الأمين البزاز ، الجراد والجوع والأمراض في المغرب خلال العصور القديمة والوسطى ، مجلة المناهل ، إصدار وزارة الثقافة المغربية ، عدد69-70، سنة 2004، ص296.

[7]- ابن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تح: خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت 2001 ،ج 1 ،ص42 .

[8] - ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص79 .

[9] - ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت ، 1993،ج1، ص9 و 419 .

[10] - Dols Michael Walter , The black death in the middle east , princeston university press, New jersey,1977 .

[11] – Le Goff , op cit , p1485-Angel garrido , op cit , p 265.

[12] - ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1992، ج10، ص184 .

ماجت المصادر المعاصرة لهذا الحدث بالتعريف بهذا الوباء وذكر انتشاره وآثاره المختلفة ، فتتفق كلها على أن ظهوره كان بأواسط بآسيا أو بما يعرف ببلاد الخلط[3] ، ثم انتقل ليكتسح البحر المتوسط فاجتاح جزيرة صقلية منذ747هـ/ 1347م فإيطاليا، والمغرب الإسلامي وشبه الجزيرة الأيبيرية وفرنسا ابتداء من748هـ / 1348م [4].

جاء في قول ابن خلدون الذي عايش الوباء وفقد والده عند حلوله في افريقية :"هذا إلى ما نزل بالعمران شرقاً وغرباً في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم "[5]، وبيّن ابن ثغري بردي عالمية هذا الوباء بقوله :"عم أقاليم الأرض شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً،جميع أجناس بني آدم وغيرهم ، حتى حيتان البحر، وطير السماء، ووحش البر" [6]، وقال فيه السخاوي:" ولم يُعهد نظيره فيما مضى ، فإنه طبق شرق الأرض وغربها، ووصل حتى مكة المشرفة ، وما سلم منه سوى طيبة"[7].

إن من أهم أسباب انتشار هذا الوباء هي قنوات التواصل كالحروب والتجارة والرحلات والهجرة ، ولعل حركة التجارة العالمية وخاصة عن طريق السفن التجارية الجنوية [8]، كانت هي أكثر العوامل بروزا، حتى كانت المرية "فرضة غرناطة" من أكثر المدن الأندلسية ضررا من جراء هذا. وقد كانت بدايتُه بها في فاتح جوان 1348م ما يقابل أوائل ربيع الأول من سنة 749هـ حيث فتك بأعداد كثيرة خاصة في الأحياء الفقيرة حتى وصل عددهم إلى سبعين ضحية يوميا[9].

كما يصف لنا القاضي النباهي في كتابه المرقبة العليا جسامة هذا الوباء عند حديثه عن جنازة أحد أعلام مالقة وهو ابن برطال أبو جعفر أحمد بن علي الأموي أن الوباء قد جرّ معه" ركب من الأموات يزيد عن الألف "من كل الفئات والأجناس إلى مقابر المدينة [10].

وتبرز المصادر ذلك على أنها لم تصب كل الأندلس الإسلامية كأحواز غرناطة ومدينة مالقة مثلا، وقد بيّـن ابن ثغري بردي بدقة كيف انتشر هذا الوباء حتى وصل إلى الأندلس وبلاد المغرب الإسلامي بقوله: "...وعم الموت أهل جزيرة الأندلس ، إلا مدينة غرناطة ، فإنهم نجوا ... وعم الموتان إفريقية بأسرها، جبالها وصحاريها ومدنها..."[11].

لكن على عكس ما نلاحظه من هذه القراءة للدراسات الأجنبية والعربية فإننا نلاحظ أن حتى أعيان وأعلام هذه المدن التي سلمت من الوباء كان لها ضحايا كثر، وجاءت على قلم عدد من المصادر التاريخية وكتب الرحلات ولعل أشهرها الرحالة الطنجي ابن بطوطة الذي عاصر الوباء وزار عدد من المدن التي انتشر بها هذا المرض وقد فقد فيه والدته بل كانت عودته من رحلته الأولى متزامنة معه .

يبدو أن المصادر الأندلسية والمغربية قد أطنبت في ذكر الوباء غرضا لا عرضا، مُشيرة إلى أسبابه المناخية والفلكية والبشرية وحتى السياسية ، ذاكرة آثاره وسُبل الوقاية منه ؛ وقد أشارت إليه منذ بداياته حتى ألفت فيه أرجوزات ومؤلفات طبية [12]. كما أسهبت في

---

[1] - عبد العزيز السيد سالم، تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة ،الاسكندرية ،1984،ص103.

[2] - ابن ثغري بردي ، المصدر السابق ، ج10، ص 159.

[3] - بلاد الصين في اللسان العجمي ، ابن خاتمة ، تحصيل ،ج1، ص173.

[4] - Yves Renouard ,Conséquences et intérêt démographiques de La peste noire de 1348 in population ,n° 03, 1948, p460 - Jean Favier , Orvieto et la peste noire , journal des savants , 1963, n 04 ,p271.

[5] - ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج 1، ص 43،42 .

[6] - ابن ثغري بردي ، المصدر السابق، ج10، ص156 .

[7] - المصدر نفسه، ج10 ،ص184.

[8] - بولقطيب ، المرجع السابق ، ص 51 - السيد سالم ، المرجع السابق ، ص 97- Yves Renouard , 460 op cit, p

[9] - Angel garrido , op cit , p 265. - Charles Verlinden, La grande peste de 1348 en Espagne, contribution a l'étude de ces conséquences économiques et sociales, revue belge de philologie et d'histoire , tome 17, fasc 1-2, 1938, p 117.

[10] - النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس كتاب " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا "، لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ط 5، بيروت 1983 ، ص 148.

[11] - ابن ثغري بردي، المصدر السابق، ج10، ص 159 – قارن الخريطة في : Carpentier, op cit , p1063

[12] - بدأت التأليف في مجال الأراجيز عند الأندلسيين بعد أن أسهموا في تراجم المؤلفات اليونانية ومن أبرزهم سعيد بن إبراهيم بن حدير (ت 342هـ)، ينظر: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح:

ذكر أسبابه المتعددة والتي أغلبيتها تُرجعها على الظاهرة الفلكية والمناخية ، فهذا ذو العمرين ابن الخطيب[1] يردّه إلى التأثير الفلكي فيقول:" له سبب أقصى وهو الأمور الفلكية ، وأدنى هو فساد الهواء الخاص بمعل ظهوره "[2]، وأما شاهد الوباء في المرية ابن خاتمة الأنصاري فألّف في الطاعون وشرح من خلالها انتقال عدوى الوباء وتأثيرها على الإنسان[3].

إن جسامة هذا الوباء في الأندلس كان لها تأثيرا واضحا ليس على الأحوال الاقتصادية والسياسية، والخسائر البشرية فحسب بل على الإنتاج الفكري، حيث تعج كتب التراجم المختلفة بالعلماء ضحايا الوباء شهداء الطاعون والتي من ورائها كفت أيديهم عن الإبداع العلمي؛ ولعل ما استقيناه من تراجم النباهي في وفاة ابن برطال أنه عند دفنه دفن إلى جانبه وفي نفس اليوم عدد آخر من أعلام مدينته مالقة ولعل أهمهم المقرئ الزاهد أبو عبد الله أحمد المعروف بالقطان، والواعظ أبو القاسم بن يحيى بن درهم [4].

برزت الأزمات الاقتصادية والآفات الاجتماعية، وتدهورت الأوضاع بتدني المستوى المعيشي والحرفي ونقص التعاملات التجارية نتيجة التخوف من انتشار العدوى[5]، كما اضطربت الأحوال الأمنية في المملكة النصرية بانتشار الثورات الداخلية والفتن ، وتزايد وتيرة الاسترداد النصراني، كما أضحت بعض الثغور الساحلية موطنا لإيواء قراصنة البحر[6].

قد لا يصدق القارئ لضحايا الوباء في المصادر المعاصرة له سواء في بلاد المشرق[7] أو أوربا[8] وحتى بلاد المغرب الإسلامي بما فيها الأندلس[9] حيث تشير إلى

محمد بنشريفة، مطبوعات أكاديمة المملكة المغربية، 1984، س4، ص25 .

[1] - كان لسان الدين ابن الخطيب مصابا بالأرق حيث يقول في "الوصول لحفظ الصحة " : "...العجب في مرجعي تأليفي لهذا الكتاب الذي لم يؤلف مثله في الطب ،لا أقدر على مداواة داء الأرق الذي بي ..." ينظر : ابن الخطيب ،الوصول لحفظ الصحة والأصول، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالرباط ، خط أندلسي 200 ورقة ، مسطرة : 16 ، مقاس : 230 / 180، مسجل برقم : 652 د ، وجه رقم 3- عبد الكريم أبو شوريب ، مساهمات الطبيب الأندلسي ابن الخطيب في مجال علم دراسة الأوبئة ،أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب ، معهد الثراث العلمي العربي ، 1986 اللاذقية ، ص166 .

[2]- نفسه ، ص169 .

[3] - ابن خاتمة، تحصيل، ص173 - محمد العربي الخطابي، الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة وتراجم ونصوص ،ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص161- STEPHANE BARRY , NORBERT GUALDE , La peste noire dans l'occident chrétien et musulman 1347-1353, CBMH/BCHM, Volume 25, 2 , 2008 , p466.

أما ترجمة ابن خاتمة في: ابن الأحمر، نثير الجمان فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة ،1968، ص 156 – ابن الخطيب، الإحاطة،ج1، ص 239.

[4] - النباهي ، المصدر السابق ، ص 148.

[5] - ابن خلدون، المصدر السابق، ج 1، ص43،42 - Charles Verlinden, op cit,p 113-Yves Renouard , op cit, p464 .

[6] - كان من آثارها السياسية المباشرة تزايد وتيرة حملات الحروب الصليبية على الإسلامي عموما ، Yves Renouard , op cit, p464 - السيد سالم ، المرجع السابق، ص 104 .

[7] - ابن ثغري بردي ، المصدر السابق، ج10، ص156 .

[8] - Yves Renouard , op cit, p461- Lucien Febvre ,L'histoire médicale , A.E.S.C, n° 4, 1949, p 102 ,103.

[9] - يواجه الباحث في التاريخ الديموغرافي للأندلس صعوبات جمة في مجال تقديرات السكان ، وأن تقديم أي رقم ولو كان تقريبيا يبقى مُجازفة ؛ ومن ثـمّ فإن مـحاولتنا لإبداء ملاحظات عن ديـموغرافيا الأندلس تبقى عامة في تلك الفترة والـمتأثرة بعوامل عدة . وبالتالي فإن الاعتماد على الدراسات والمصادر في سبيل تقصي ذلك يبقى مرهونا بمدى مصداقيتها وموضوعيتها. ينظر: ابن الخطيب، المصدر السابق،ج1،ص124- ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، س4، تح:حمزة أحمد عباس،ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ، ص230- La fuenté y Alcantara, Historia de Granada , Editorial Universidad de Granada ,1993, t III, p99- Rachel Arie , l'Espagne musulmane , p 338.
Ladero Quesada M.A, Datos démograficos sobre los musulmanes de Granada y castillaen el siglo XV, en anuario de studios médiévales, vol -8, ano 1972-1973;pp481,487. Rachel Arié , Aperçus sur le royaume de Grenade ,Quaderni di studio arabi ,Casa Editrice Armena ,Universita de Veniza ,venezia 1986,p64
--, Torres Balbas, "Extension y démografia de las

أعداد هائلة من عامة الشعب [1] مما قد يعطينا نظرة عن عدد العلماء الشهداء من جراء هذا الوباء ، ولعلنا نقف أمام أهم دراسة عدت لنا العلماء المتوفون من جراء هذا الوباء والتي قدمتها الأستاذة الأسبانية ماريا إيزابيل كاليرو سيكال[2].

يمدنا ابن الخطيب بوصف عن ميتة ابن فرتون الأنصاري وسنة وفاته بل وحدد لنا التاريخ الكامل في ذلك بقوله :" نفث دم الطاعون، صلى الجمعة ظهرًا وقد لزم الفراش ومات مستقبل القبلة على أتم وجوه التأهب، سابع شوال من عام سبعمائة وخمسين "[3].

إن مثل هذه الإشارات التي استقيناها من كتب التراجم تدل عل أن هذا الوباء قد طال أمده ببلاد الأندلس ودام قرابة السنتين (749 هـ -750 هـ) ، ولعل أن العالم الطبيب التاجر ابن عبد البر أحمد بن علي بن عبد البر الخولاني[4] وهو من أبناء غرناطة قد توفي بالطاعون من جراء عدوى تكون قد أصابته نتيجة احترافه للطب حيث قعد يداوي المرضى، أو نتيجة احتكاكه بالتجار بحكم أشغاله الإضافية في مجال التجارة خاصة وأنه توفي خارج الديار الأندلسية بتونس.

يبدو أن هذا الوباء قد زار أغلب البيوتات الكبرى الأندلسية ومنها بيت بني الحكيم اللخمي وعلى رأسهم أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي[5] الذي كان موسوعيا بنبوغه في علوم عديدة وتوفي في وقيعة الطاعون حين كان قاضيًا سنة 750هـ كما أهلك محمد بن عبد الله بن منظور القيسي وأصل بيته من اشبيلية ، وانتقلوا إلى مالقة أين أضحى بقصبتها قاضيا وخطيبا ، وهو من ألف كتاب "البرهان والدليل في خواص سور التنزيل "، ولم يسلم صاحب التآليف العديدة العالم المصنف سعد بن أحمد بن ليون التجيبي المكنى بأبي عثمان من هذا الوباء ، وقد كان من أجل علماء الأندلس وأبرعهم تأليفا، وله نحو ثلاثين تأليفا في الحديث والفرائض والمساحة[6] .

لم يكن علماء المرية أو غرناطة الوحيدين الذين مسهم الوباء الجارف سنتي 749-750هـ بل مست حتى الثغور والحواضر الغرناطية المتبقية كمالقة والجزيرة الخضراء ورندة بحكم أن العلماء المتوفون في الوقيعة كانت متباينة أصولهم. وفي المقابل لم يسلم العلماء الوافدون من العدوة المغربية على الحواضر الأندلسية من ذلك حيث كانت لهم نهاية بهذا الصقع ؛ فقد انتهت إيام الفلكي والطبيب أبي زكرياء يحي بن علي بن أحمد بن علي القيسي سنة 750هـ ببلاد الأندلس [7]،ولقي الأستاذ الخطيب محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي بكر بن خميس الأنصاري حتفه في وقيعة الطاعون بالجزيرة الخضراء كذلك سنة 750ه[8].والأمر نفسه ينطبق على الوافد الشاعر القاضي أبي عبد الله بن خميس التلمساني الذي توفي بالطاعون العام بالمرية في سنة 750ه [9]ـ وفي مقابل ذلك وجد من الأندلسيين الراحلين الذين توفوا خارج ديارهم شأن محمد بن عبد الله بن لب الـمُري النحوي المتوفى في

cuidades hispanomusulmanas", en Studia -Islamica, vol 3, ano 1955, p p 35,59- "Bernard Vincent , op cit , p161,163 .
علي حسين الشطشاط، نـهاية الوجود العربي في الأندلس، دار قباء ،القاهرة 2001،ص57 -عمر عبد السلام تدمري،"مشاهدات وأخبار عبد الباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس"، مجلة التاريخ العربي،ع17،ص 111 وما يليها.

[1]- السيد سالم ، المرجع السابق، ص 104-
Charles Verlinden, op cit, p 117

[2] - María Isabel Calero Secall ,La peste en Malaga , según el malagueño al-Nubahi , Homenaje al Prof, Jacinto Bosch Villa , vol 1 , 1991 , pp 57-72 .

[3] - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3، ص226 .

[4] - ابن حجر، الدرر،ج1 ،ص219 .

[5] - ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج2، ص266 .

[6] - التمبكتي، نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تح: علي عمر،ط1، مكتبة الثقافة الدينية ،2004،ج1، ص 201– ابن القاضي، ذرة الحجال في أسماء الرجال،تح:محمد الأحمدي أبو النور،دار التراث،المكتبة العتيقية،ط1، دار النصر للطباعة، 1970 ،ج3، ص 292 - المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تح :إحسان عباس دار صادر بيروت ، 1968،ج5، ص543 .

[7] - ابن القاضي ، درة ، ج3، ص330، تر : 1446.

[8] - ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3 ،ص 184.

[9] - المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تح: مصطفى السقا،إبراهيم الأبياري،عبد الحفيظ شلبي،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،القاهرة 1939،ج2، ص301- النباهي، المرقبة ،ص 114– طاهر توات ، ابن خميس شعره ونثره، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،ص 41 .

رمضان من سنة 749هـ ويُكنى ابن الصائغ، ارتحل إلى المشرق في حدود 720 هـ فلم يتجاوز القاهرة ، وبمدرستها الصالحية أقرأ العربية والنحو[1].

وبالتالي فإن هذا الوباء قد جعل حدا لعدد من العلماء الأجلاء بالثغر الأندلسي ومن الوافدين إليه ، بل وحدّ من الإنتاج الفكري المتنوع للعديد منهم .

وكان قضاء الله في وفاة الرحالة الأديب والقاضي أبي البركات البلفيقي محمد ابن الحاج بعدما مرّ الطاعون حيث سلم منه وكانت له مواقف آنذاك من هذا الوباء الفتاك .وقد كانت كانت له رحلتين خارج الأندلس آب بعدهما قافلا إلى بلده للتعليم والقضاء رجع واستقر ببلده ألمرية في وقت عصيب اشتد فيه الوباء الفتاك سنة 749هـ حتى جاء في قوله : وبقيت مقيمًا بها لما اشتهر من وقوع الوباء بألمرية ثم أعدت إلى القضاء والخطابة بألمرية وكتب بذلك في أوايل رجب عام تسعة وأربعين ثم صرف عنها ثم عاد سنة ست وخمسين [2].

والأمر نفسه انطبق على العالم أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد الهاشمي الطنجالي[3]ذوي الأصالة والجلالة من أهله الذي توفي بعده سنة 753هـ وقد صادفه في ذلك الوباء العام الذي أصاب المنطقة في منتصف القرن الثامن الهجري وتمنع منه ، إلا أنه كان من الأسباب المؤثرة في استقالة القاضي أبي عبد الله وطلب استعفاءه من الحكم، "خاصة بعد ترادف النوازل المشتبهات عليه بعد انصراف الطاعون، واختلاف من عاش بعده من الفقهاء، عند الأخذ معهم فيما يشكل عليه من المسائل وكان يكره مخالفة من جملتهم، ويحذر موافقة بعضهم " [4] ؛ إلا أن قريبه أبا جعفر أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي لم يسلم منه سنة 750 ه رغم مهارته في الطب[5] .

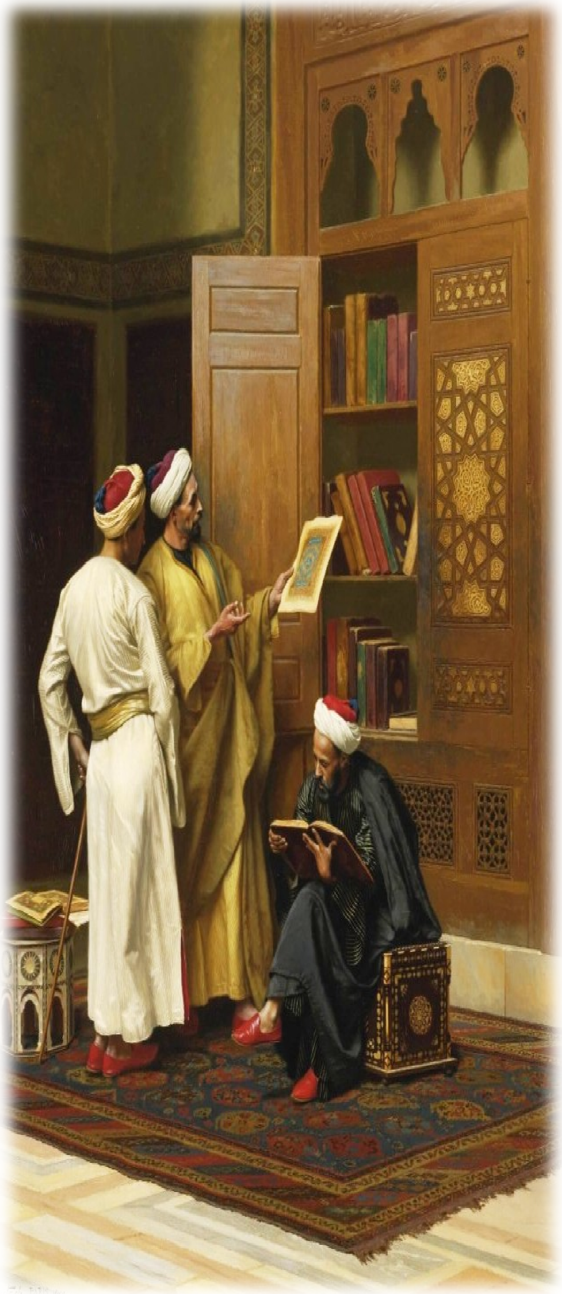

---

1 - وجد تباين في تاريخ وفاته بين المصادر ،ينظر : ابن الخطيب، الكتيبة الكامنة في شعراء المائة الثامنة،تح:إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ، ص 88 - وكذا الإحاطة ،ج2 ،ص433 – السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح:محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر 1979، ج1، ص 143- ابن حجر، الدرر، ج3، ص484 - المقري ، نفح، ج6 ،ص 226 .

2 - ابن الخطيب ، الإحاطة،ج2، ص143 - النباهي ، المرقبة ، ص164 .

3 - النباهي ، المصدر نفسه ، ص155 .

4 - نفسه ، ص159 .

5 - ابن حجر ، الدرر ،ج1، ص 183 ،184،تر: 473 - Miguel Jiménez Puertas , , Linajes y poder en la loja islamica, De Los Banu JĀLID a Los Alatares (Siglos VIII-XV) , Fundacion IBN AL-JATIB de estudios y cooperacion cultural, p 165.

جدول يوضح شهداء الطاعون سنة 750هـ

العالم	المدينةأ و المنطقة	العبارة الدالة على وفاته في وقيعة الطاعون	المهام- العلوم	المصدر
أبو زكرياء يحي بن علي بن أحمد بن علي القيسي ابن الزرقالة	ألمرية	توفي بالطاعون بالمرية يوم الثلاثاء 3 محرم 750هـ	الفلك والطب .	ابن القاضي، درة ، ج3 ، ص 330 ، تر:1446.
أبو القاسم محمد بن محمد بن محمد بن الحكيم اللخمي	رندة	أعبط في وقيعة الطاعون ...فكانت فيه الفجيعة عظيمة . 17 ربيع الثاني 750هـ	الوزارة - العلوم النقلية والعقلية .	ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج2، ص266.
سعد بن أحمد بن ليون التجيبي.	المرية - لورقة	توفي بالمرية بالطاعون العام إثر صلاة العصر . السبت 14 جمادى الثانية 750هـ	التأليف - الحديث والفرائض والمساحة .	التمبكتي،نيل ،ج1،ص 201- ابن القاضي، درة، ج3،ص 292 .
محمد بن عبد الله ابن فرتون الأنصاري	مالقة - بطليوس	نفث دم الطاعون . 7 شوال 750هـ	الأشغال السلطانية - الرواية- الرحلة .	ابن الخطيب ،الإحاطة ،ج3، ص227.
أحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الهاشمي الطنجالي أبو جعفر .	لوشة	نجمت به بواكي الوباء الأكبر صدر عام 750هـ بعد تمنع منه وإبانة .	صناعة الطب - الشعر - القضاء	النباهي ،المرقبة، ص155-ابن حجر،الدرر،ج1،ص 183 ، تر: 473 - Miguel Jiménez P ,op cit,p165.
أحمد بن محمد بن علي الأموي أبو جعفر ابن برطال	حارة البحر شرقي مالقة	توفي بها (مالقة) أيام الطاعون الكبير . الجمعة 5 صفر 750هـ .	القضاء والخطابة ، الحديث-التوثيق .	المقري، نفح، ج3، ص449 – ابن الخطيب، الإحاطة،ج 1،ص 171 – النباهي، المرقبة، ص148 .
عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي (ت 750هـ) ابن المُرابع	بلّش	وفاته في كاينة الطاعون ببلده . أواخر 750هـ	النظم والنثر - الأدب والمقامات	ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص421-المقري ، نفح ،ج6، ص 102، ص 255 -العبادي، مقامة العيد ، صحيفة الدراسات الأندلسية، مدريد،مج 2 ،ع1-2، 1954ص159.
علي بن محمد بن علي البنا الوادي آشي أبو الحسن (ت 751هـ)	وادي آش	توفي معتبطا في الطاعون ولم يبلغ الثلاثين . 4 شعبان 750هـ .	ديوان الإنشاء - نظم وأدب وشعر .	ابن الخطيب ،الإحاطة،ج4 ، ص 167 - المقري، نفح ،ج6، ص 128 .
علي بن يحيى الفازري المالقي ابن البربري (ت 750هـ)	مالقة	وفاته بمالقة بالطاعون عام 750هـ	الخط ، الشعر .	المقري، نفح، ج6 ، ص133 – ابن الخطيب ، الإحاطة،ج4، ص 194 .
محمد بن أبي الجيش محارب الصريحي أبو عبد الله (ت	مالقة، حصن	توفي بمالقة في كاينة الطاعون الأعظم، في أخريات ربيع الآخر 750هـ بعد أن	الفقه والأصول، - الرياضيات -الخطابة	ابن الخطيب ،الإحاطة، ج3، ص78- ابن حجر ، الدرر،ج3،

750هـ)	يسر ، مرسية	تصدق بمال كثير ...	-الإقراء-العلوم العقلية .	ص374 .
محمد بن أحمد بن جعفر بن عبد الحق بن حقاف السلمي القونجي(ت750هـ)	قونجة	وفاته في الوباء العام . الإثنين 20 شعبان 750هـ .	التصوف - التأليف" الأنوار في المخاطبة والأسرار " .	ابن الخطيب، الإحاطة،ج3، ص234 .
محمد بن أحمد بن قاسم الأمي القطان أبو عبد الله (ت 750هـ)	مالقة - جبل فاره	توفي شهيد الطاعون . الاربعاء 4 صفر 750هـ ... ودهم الوباء، فبذلوا من الأموال في أبواب البر والصدقة، ما لا يأخذه الحصر ولا يدركه الإحصاء	الزهد والورع- المجالس العلمية - الفقه- علم الكلام .	ابن الخطيب، الإحاطة ، ج3، ص241.
محمد بن علي السكوني الأندلسي ابن لؤلؤة (ت 750هـ)	من أهل حصن قمارش	توفي المذكور بالطاعون سنة 750 هـ .	- الخطابة الشعر - الزهد	المقري، نفح، ج5،ص 516.
محمد بن علي بن محمد العبدري ابن اليتيم (ت 750هـ)	مالقة	وفاته في وقيعة الطاعون العام. آخر صفر 750هـ .	التدريس لمدة ثلاثين سنة غاب فيها مرتين - الحديث والتفسير- الطب .	ابن الخطيب ،الإحاطة ، ج3، ص97- الكتيبة، ص 59 - أوصاف، ص 33 .
محمد بن عيسى بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي بكر بن خميس الأنصاري (ت 750هـ)	الجزيرة الخضراء	توفي في الطاعون بسبتة . آخر جمادى 2 سنة 750هـ	الفقه - القراءات الخطابة - الإقراء والتعليم - التأليف " النفحة الأرجية في الغزوة المرجية "	ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج3، ص184 .

من خلال الرصد البيوغرافي لأعلام الأندلس المتوفين في منتصف القرن الثامن الهجري وبالضبط سنتي 749 هـ و750هـ عثرنا على جملة من الأعلام اللذين لم تحدد سبب وفاتهم في كتب التراجم ، وإذا استطعنا أن نهتدي إلى تحديد تاريخ وفاة بعض الأعلام الآخرين من أهل غرناطة ممن لم تذكر أسباب وفاتهم إلا أننا نبقى نتساءل عنهم هل تعرضوا للوباء وماتوا من جراءه أم لا ؟ بالرغم من أننا وقفنا على عدة اعتبارات أهمها :

- أن ابن الخطيب أورد في فقرات متلاحقة لكل الأعلام المتوفين من جراء وباء الطاعون وقد خصه المحقق محمد عنان في قسمه الثالث من ذلك ، ووجدت هذه الأعلام ضمنهم متتالية إلا أننا لم نستطع الجزم نهائيا كون أن المحقق قد يكون أعاد ترتيبها خاصة وأننا لم نطلع على النسخة المخطوطة .

- ثانيا ولعله العامل الرئيسي في الترجيح ويتمثل في كون أن تاريخ وفاتهم لم تحدد فقط بالسنة وإنما كاملة، ولعل أغلبهم كانت في شهر شوال 749هـ ، وهو تاريخ يأتي بعد اجتياح الوباء للمنطقة . فهل هذا يعني أن الوباء لم يمس هؤلاء الأعلام ؟ أم أن غرناطة قد تأخر عنها الطاعون الذي ضرب ألمرية في بادئ الأمر في أوائل ربيع الأول من سنة 749هـ ثم انتقل إليها لاحقا لكن بعد عيد الفطر من سنة 749هـ.

ومقصدنا في ذلك من هؤلاء الأعلام ابن الجياب علي بن محمد بن سليمان الأنصاري أبو الحسن صاحب الرواية والعلوم ورئيس الأشغال السلطانية الذي وافته المنية يوم الأربعاء 23 شوال 749هـ ، حيث لم يورد لنا تلميذه ونائبه في الوزارة ابن الخطيب عن وفاته شيئا متعلقا بالوباء رغم أنه توفي

بغرناطة وكانت "جنازته آخذة نهاية الاحتفال ، وحضرها السلطان ومن دونه" [1].

إضافة إلى محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الصناع أبو عبد الله الزاهد من أهل البادية الغرناطية صاحب الرحلات العلمية الداخلية، ولم تذكر المصادر وفاته في وباء الطاعون واكتفت بذكر وفاته بتاريخ 7 شوال 749هـ ، لكن إذا قارناها مع الإطار الزماني للوباء بالأندلس ووفاة بعض العلماء في مثل هذا التاريخ أمكن لنا أن نحكم على سبب وفاته أنها كانت في الطاعون العام ، في حين وبكل موضوعية لا يمكن لأصحاب التراجم المتمرسين في هذا اللون الذي اشتهرت به الأندلس أن يتناسوا حدثا هاما كهذا وخاصة منهم ابن الخطيب صاحب البرامج والتراجم العديدة والذي عاصر أغلبهم وكان طالبا لأغلبهم[2].

ونفس الأمر ينطبق على محمد بن حسنون الحميري أبو عبد الله الإمام الزاهد صاحب الحرف اليدوية، أصله من مرسية وسكن غرناطة ، يقول عنه ابن الخطيب أنه كان حيا سنة 750هـ ، وعلى الأغلب أنه توفي في هذا العام ، إلا أننا لا نستطيع الجزم بأن وفاته كانت بسبب الطاعون [3].

لا يمكننا الإلمام بكل المتوفين من جراء وباء الطاعون من الأعلام ببلاد الأندلس في منتصف القرن الثامن الهجري من خلال هذا الرصد البيوغرافي ، واكتفينا بذكر كل النماذج التي اهتدينا إليها ؛ لكن البارز في الأمر أن هذا الوباء قد فتك بالعديد ممن أشارت إليه كتب التراجم بشكل عام سواء كانت مشرقية أو مغربية أو أندلسية محضة .

ومن جانب آخر يبدو أن التنوع جلي ما بين عدد المتوفين من العلماء في المدن الرئيسية كغرناطة ومالقة مقارنة بالثغور الأخرى، وبين الأصليين والوافدين إلى السلطنة النصرية، وبين الكهول منهم والشباب حيث وجد من توفي في مقتبل العمر. إضافة إلى تأثر عدد من الأفراد بالوباء من بيت واحد، كما حصد الوباء من الـمؤلفين والأطباء وولاة الحكم من العلماء الـمُقربين إلى السلطة عددا لا يُستهان به .

اهتم أهل الأندلس بصناعة الطب لـمُواجهة مثل هذه الظواهر حيث اختصت كتب التراجم والطبقات ومتون ما وصلنا من مصنفات في الطب وعلوم الطبيعة من المعلومات حول الاهتمام الأندلسي بالطب عموما[4]، ومن عناوين المصنفات الطبية المختلفة ما يفصح عن الحجم الحقيقي للتراث الطبي المتمثل في العدد الهائل مما كتب من تقارير الطب النافعة الأرجوزات والرسائل والنواذر والنسخ [5].

تعددت المؤلفات في ذكر وباء القرن الثامن الهجري ودور المسلمين في وضع حد لانتشاره بالوقاية والاحتياط منه [6]، ويذهب ابن خلدون الذي عاصر

---

[1] – ابن الخطيب ، الإحاطة، ج4 ، ص147 – ابن القاضي، درة، ج 3، ص234 ،تر 1254– المقري، نفح، ج5 ،ص434 – التمبكتي ، نيل،ج1، ص367 .

[2] – ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص235 . التمبكتي ، نيل، ج2، ص205.

[3] – ابن الخطيب ، الإحاطة ،ج3، ص234.

[4] – يعرف ابن خلدون هذا العلم بأنه علم ينظر في بدن الإنسان من حيث يمرض و يصح فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية بعد لن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن، ينظر : ابن خلدون ، الـــمقدمة ، تح: عبد السلام الشدادي ، خزانة ابن خلدون ،ط1، الدار البيضاء 2005،ج5، ص162 . وقد كان أول كتاب تأليف في علم الطب لعبد الملك بن حبيب السلمي الإلبيري (238هـــ)، ينظر :محمد العربي الخطابي ، المرجع السابق ،ج1، ص 39 وما يليها .ومؤلفه هو المختصر في الطب ، خط أندلسي واضح ، ورقة 1/ب إلى 46/ب ، مسطرة : مختلفة ، مقاس : 195 / 140 ، مسجل برقم : 1442 د .

[5] – ابن عبد الملك المراكشي ،المصدر السابق ، س5، ق1، ص252،251 – س4، ص25 – أحمد الطاهري ، الطب بالأندلس بين الحكمة والتجريب ، ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية – تيارات الفكر في المغرب والأندلس الروافد والمعطيات ، أبريل 1993، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية 5، تطوان، ص 370 ،371 .

[6] – هناك جملة من الأحاديث النبوية يعمل بها المسلمون في حال حدوث الوباء، ينظر مثلا: ابن حجر، بذل الماعون، ص30

هذا الوباء بعد أن شخص الأسباب بطرح طرق الوقاية منه بقوله :" ولهذا تبين في موضعه في الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالط الحيوانات..."[1].

أما أهم ما ألفه الأندلسيون فاستأثر به ابن الخطيب الطبيب [2] منها في الوباء :"مقنعة السائل عن المرض الهائل " والذي يصف فيها ظروف ظهور الوباء وانتشاره، وأعراضه الأولى وسبل الاحتياط منه[3]، وألف ابن خاتمة الأنصاري " تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد "[4]، بينما خط أبو عمرو محمد بن أبي بكر محمد بن منظور القيسي [5] "وصية الناصح الأوذ في التحفظ من المرض الوافد إذا وفد " [6]؛ حيث تناول في ثلاثة فصول النصوص والأحاديث المتعلقة بالوقاية من الوباء، ومسائل العدوى[7]. أما طبيب الدار السلطانية بغرناطة أبو عبد الله محمد بن علي اللخمي الشقوري (و 727 هـ)[8] والذي أحرز شهرة واسعة في معالجة المرضى فقد ألف في الطب عموما[9]، وفي الوباء على وجه الخصوص" تحقيق النبأ عن أمر الوباء" المعروفة باسم النصيحة والذي تناول في جزئه الأول الهواء ،وفي الثاني إصلاح الأبدان والدواء[10].

كما ألف محمد بن محمد بن جعفر بن مشتمل الأسلمي البلياني (ت 764هـ) - الذي كان موسوعيا وتولى القضاء في عدة حواضر- " إصلاح النية في المسلة الطاعونية "[11].

خاتمة :

عموما ما يمكن أن نخلص إليه في مثل هذه الدراسات ذات الأبعاد الصحية والاجتماعية والفكرية وحتى

- وعن دورهم في صد الوباء و طرقهم في ذلك ينظر : Dols ,op cit , chapitre4

[1] – ابن خلدون ، المقدمة ،ج5، ص32 .

[2] – جاء في شعر لسان الدين ابن الخطيب على لسان والده : الطب والشعر والكتابة سماتنا في بني النجابة . ينظر :المقري، النفح ، ج5، ص 16.عن مؤلفاته الطبية ينظر : أبو شويرب ، المرجع السابق، ص165 .

[3] – توجد نسخة منه في مكتبة الاسكوريال تحت رقم :1785 ، 5(f39 r°) ،خط أندلسي، 18 سطر ، بدايته : لما كان على الشيء فرعا من تصوره وجب لنا أن نبين فرعا من هذا المرض .

[4] – توجد نسخة منه بالمكتبة الوطنية بالرباط ،خط أندلسي حسن ق، 16 ، مصورة عن نسخة الاسكوريال ،مقدمته : الحمد لله المحمود على المحبوب و المكروه...فإن بعض أصدقائي ..سألوني عن حقيقة هذا الطاعون في المرية ،تحت رقم :د4505، ميكروفيلم 1212- في حين اعتمدنا على دراسة محققة ضمن كتاب الطب والأطباء للخطابي .

[5] – ترجمته في : ابن الخطيب، الإحاطة ،ج2 ، ص170 – النباهي ، المرقبة، ص154- ابن الخطيب ، الكتيبة، ص 119 .

[6] – توجد نسخة من المخطوط عند الأستاذ محمد المنوني بالرباط ، تحت رقم 455/1، 22ص، 21 سطر، 20.5x16 سم .

[7] - Millas A. Cristina, Tres op□sculos inéditos sobre la peste en un manuscrito magreb□, Anaquel de Estudios □rabes ,n°3, 1992 ,p 185,186.

[8] – ابن الخطيب ، الإحاطة، ج3 ، ص 177 – Ahmed Mujtar Al-Abbadi , El reino de Granada en la época de Muhammad 5 , Vida Social y Cultural , *Revista* del *Instituto* Egipcio de Estudios Isl□micos, 5 1957, p163.

[9] - Renaud, Henri-Paul-Joseph,Un chirurgien musulman du royaume de Grenade Muhammad al-saquri, Hespéris , Institut des hautes études marocaines ,T. 33, 1946 , p 31-64 .

[10] - Rachel Arie, Etudes sur la civilisation de l'Espagne musulmane, leiden , E.J . Brill,1990, in n°8,chapitre 4 - Rachel Arie , Un opuscule grenadin sur la peste noire de 1348 : la Nasiha de Muhammad al-saquri , Bolet□n de la Asociaci□n Espa□ola de orientalistas, N° 3 , 1967 ,P189-199.

[11] – في الإحاطة وفاته في 764هـــ ، ينظر للمقارنة: ابن الخطيب، الإحاطة، ج2 ،ص 364– ابن حجر، الدرر ،ج2 ،ص 62 – السيوطي ،بغية ، ج1، ص221- ابن القاضي ، درة ،ج2 ،ص76 ، تر: 519 – التمبكتي ، نيل ،ج2، ص43 .

الديموغرافية أنها قد أتاحت لنا فرصة التعريف بحياة المملكة النصرية في منتصف القرن الثامن الهجري عند حدوث أبرز كارثة جسدت علاقة الإنسان بالطبيعة؛ فقد شكل الوباء نقطة سوداء في تاريخ المملكة النصرية وفترة حكم أبرز سلاطينها وبالتالي أثر بشكل أو بآخر في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

أما من الجانب السوسيوثقافي فإن الوباء فعلا قد أثر في محن ونكبات العديد من العلماء البارزين حتى أننا أحصينا عددا لا يستهان به من هؤلاء لقوا حتفهم من جراء ذلك ، إلا أنهم في المقابل لم تقف الفئة المثقفة مكتوفة الأيدي بل عملت على التحسيس والتفكير في توعية مجتمعاتها المنغمسة في التحديات الاجتماعية والأمنية من خلال إنتاجها الفكري الهادف وسيادة ثقافة التضامن والتكافل الاجتماعي بنزول معظم علماء وزهاد وأدباء وأطباء وفقهاء ذوي البيوتات النبيهة وذوي المكانة في التقسيم الطبقي إلى العامة والسعي لمساعدتهم وتدبير أحوالهم.

كما كان لهذا النوع من الكوارث الطبيعية أثرا عميقا في ذهنيات المجتمع الأندلسي سواء من خلال زيادة وتيرة التصوف الذي اكتسح النسيج المجتمعي، أو ببروز السلوكات والمعتقدات الباطلة ورواج التقاليد المتعلقة بالظواهر الفلكية والروحانية .

دور المعاهدات في تسييج السيادة المغربية خلال القرن التاسع عشر

هشام الجعادي
باحث في تاريخ المغرب

يأتي الاهتمام الأوربي بالمغرب في سياق التحولات الكبرى، التي عرفتها أوربا بداية من القرن السادس عشر؛ سواء على المستوى الديمغرافي أو التقدم العلمي والتقني. و ما رافق ذلك من تراكم في الإنتاج الصناعي وتطور المواصلات. وهو المنطلق الذي يمكن من فهم السيطرة الأوربية على العالم .القائمة أساسا على عنصر التفوق.

في ظل ذلك وجد المغرب نفسه وجها لوجه مع الامبريالية الأوربية الحديثة. التي نزلت عليه بكل ثقلها وفرضت عليه عدد من المعاهدات مكنتها من تحديد قواعد اللعبة السياسية والاقتصادية معه. ومما ينبغي التأكيد عليه من ناحية أخرى فإن العلاقات الثنائية التي جمعت بين المغرب[1] وأوربا ظلت إلى حدود القرن التاسع عشر مبنية على أساس التعامل بالمثل .ولكن بعد

منتصف هذا القرن بدأت تظهر ملامح رجحان هاته الكفة لصالح أوربا. ومنذ ذلك الوقت لم تعد تلك العلاقات متكافئة، مثلما تشهد على ذلك المعاهدات التي وقعها المغرب مع القوى الأوربية[2].

إجمالا لم تكن المعاهدات الشاكلة الوحيدة التي اعتمدتها الآلة الامبريالية الأوربية ،لتفكيك البنية " السيادية " المغربية .بل إنها اعتمدت على وسائل آخرى من قبيل : التجارة، وشبكات القنصليات ،والحمايات ،والبعثات الدينية والطبية ،إسوة بالأسلوب العسكري.غير أنها – المعاهدات - شكلت المرتكز القانوني لتسرب الامتيازات الأوربية في المغرب.

- فكيف ساهمت إذن هذه المعاهدات التي وقعها المغرب مع القوى الإمبريالية الأوربية في إضعاف السيادة المغربية ؟.

عملت القوى الامبريالية الأوربية على دفع المغرب لتوقيع عدد من المعاهدات التجارية (عامة وخاصة)، كان الهدف منها توطيد الامتياز الأوربي به . ومنحه طابعا قانونيا . لقد تعددت هذه الامتيازات بين ما هو متعلق بتقليص المجال الحدودي للمغرب ،وسحب امتيازات اقتصادية على حسابه ،إسوة بتوفير الحماية لمواطنيها وعدم إخضاعهم للقانون المحلي. وبالتالي تعبيد الطريق نحو اكتساح البلاد في مختلف المجالات.

[1] في إطار تحليله للعوامل الي تحكمت في الركود الذي طبع تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر ،ينطلق عبد السلام الحيمر ،من ثلاثة عوامل أساسية يعتبرها العوامل الرئيسية التي تحكمت في تدهور الانتاج الفلاحي (باعتباره عماد الاقتصاد والاستقرار لأن المخزن يعتمد بالأساس على الضرائب المفروضة على السكان ،هذه التي يصب تحصيلها في أوقات الجفاف) ،وهشاشة الفائض الاقتصادي ،ينطلق في تحليلاته من ثلاثة عوامل وهي: العامل التاريخي ،والعامل الديمغرافي ،والعامل التقني .حول هذا يمكن العودة إلى:
-الحيمر (عبد السلام) ،**النخبة المغربية وإشكالية التحديث** ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط1 ، 2001 ،ص،ص،82-91.

[2] ابن المليح (عبد الله) ،**التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار** ،ترجمة محمد لناجي ، الدار البيضاء ،افريقيا الشرق ، ،2014 ،ص. 65.

وحري بالذكر أن الاتفاقيات التي كان المغرب قد وقعها ،لم تعد تشكل خطرا حقيقيا عليه إلا أواخر القرن الثامن عشر ،بحكم أنها ركزت أساسا على تثبيت ضمانات التواجد الأجنبي داخل المغرب ،في الوقت الذي كان فيه هذا التواجد نادر الوقوع ،وأغلب الأجانب الذين كانوا يستوطنون البلاد إنما يتنسبون إلى الهيئات الدبلوماسية وفئة قليلة من التجار،ويتواجدون فقط ببعض المدن الساحلية وبشكل خاص في : طنجة و تطوان و الصويرة.[1]

في هذا الإطار بدأ مسلسل فرض المعاهدات على المغرب.كما هو حال معاهدة الصلح التي وقعها السلطان محمد بن عبد الله مع فرنسا في عهد لويس الخامس عشر بواسطة القنصل الفرنسي "دبرينيون" بتاريخ 28 ماي 1767م ،والتي تضمنت عشرون شرطا تهدف بالأساس وضع الأرضية القانونية للقضاء على "الجهاد البحري" كعامل مهدد للمصالح الحيوية لهذه الدول، وفتح السوق المغربية في وجه المنافسة التجارية الحرة ،وتوفير الحماية للتجار الفرنسيين ؛ أي سحب امتيازات ممهدة لتثبيت ضمانات التواجد الأوربي بالبلاد كما توضح ذلك شروط المعاهدة . وخاصة : **الشرط الثاني** القاضي بتوفير الحماية لتجار البلدين ،"أن لرعيتي الدولتين أن يذهبوا حيث شاءوا بتجارتهم ومراكبهم برا وبحرا ،في أمن وأمان ".[2]و**الشرط الخامس** من نفس المعاهدة على تحرير التجارة بين البلدين ،وفتح السوق المغربية في وجه التجارة الحرة ،دون قيد أو شرط. "لرعيتي الدولتين الدخول لأي مرسى شاءوا من مراسي سيدنا أيده الله أو من مراسي بلاد الفرنصيص والخروج منها سالمين آمنين... ،ولتجار الفرنصيص التصرف في البيع والشراء في جميع إيالة سيدنا نصره الله كغيرهم...".[3]

يبدوا جليا أن هذه المعاهدة كانت تهدف بشكل أساسي لتحرير التجارة المغربية ،وربطها بالتجارة العالمية ،مع الـتأكيد على حق فرنسا في تعيين قناصل لها يقومون بمساعدة تجارهم ورؤساء البحر والبحرية في جميع ما قد يحتاجوا إليه [4].ولم تكتف من ناحية أخرى بفتح السوق المغربية ،وتحرير التجارة بل إنها تعدتها ،إلى إقرار مبدأ حماية مواطنيها ،بحيث أقرت بضرورة حضور القنصل الفرنسي أثناء محاكمة أي فرنسي ،كما أنه في حالة "وقع نزاع بين مسلم وفرنصيصي فإن أمرهما يرفع مباشرة للسلطان نصره الله"[5].

في نفس الظرفية عملت القوى الامبريالية الآخرى على سحب نفس الامتيازات التي سحبتها فرنسا من المغرب ،تلك هي حالة المعاهدة المغربية السويدية سنة 1767م ،التي هدفت إلى تحقيق الأمن للتجار السويديين ضدا على المجاهدين ،كما هو موضح في الشرط الأول من المعاهدة :"أن يكونوا مؤمنين على أنفسهم وأموالهم في جميع إيالة سيدنا نصره الله ومراسي برا وبحرا هم وتجارهم في سائر المدن والثغور..."[6]. كما ينص الشرط العاشر من نفس المعاهدة في إطار توفير الأمن للتجار السويديين على أنه في حالة "إذا كان قرصان من عدو سويد (ي) بمرسى من مراسي سيدنا نصره الله وهناك مركب سويدي وأراد السويد (ي) [7] أن يسافر فيثقف القرصان العدو لهم عن أمر سيدنا نصره الله إلى أن تمضي ثمانية وأربعون ساعة"[8] .

وقد ساهمت هذه المعاهدة بدورها في فتح السوق المغربية في وجه التجار السويديين ،بنفس الشاكلة التي أقرتها المعاهدة المغربية الفرنسية قبلها. لكن الأخطر هو أن هذه المعاهدة أقرت بعدم خضوع المواطنين السويديين للقانون المغربي في حالة كانت الجنحة مرتبطة بالمواطنين السويديين "إذا تخاصم اثنان من سويد فالقنصو يتولى الحكومة (كذا)[9] في قضيتهما بما

---

[1] أفا (عمر)، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر :البنيات والتحولات (1830-1912)** ، الرباط ،مطبعة الكرامة ،ط1، 2006 ، ص: 58.

[2] بن زيدان (عبد الرحمان) ،**اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس** ، تحقيق علي عمر ،(ج3) ،مكتبة الثقافة الدينية ،ط1 ،2008، ص،313.

[3] نفسه ،ص ،314.

[4] الشرط الحادي عشر من معاهدة المغرب وفرنسا (نفسه ، ص ،316).

[5] تضم المعاهدة عدد من حالات الخلاف التي قد تحدث بين المغاربة والفرنسيين في الشروط 12 و 13 و 14 ،لكن الأهم هي أنها حتمت على وجوب حضور القنصل الفرنسي أثناء الفصال في الدعاوي التي يكون فيها الفرنسيين طرفا ،وهو ما شكل الأساس للحماية القنصلية التي سنوضحها في ما بعد.

[6] نفسه ص،325

[7] جاءت في **الاتحاف**(السويد) دون أن ينبه المحقق لها ،لذاك أضفنا الياء لتصير (السويدي) ،كي يستقيم الكلام.

[8] الشرط العاشر من المعاهدة المغربية السويدية .

[9] يقصد الحكم.

يقتضيه دينهم ،وإذا كانت خصومة السويد مع أحد من غير جنسه فحاكم البلاد والقونصو يفصلان نازلتهما ".[1]

إن التمعن في هذه المعاهدات[2] يوضح المنحى الذي حاول الأوربيون رسمه لعلاقتهم مع المغرب ،وهو تسييج سيادته وربطها بمعاهدات قانونية ،في أفق تفكيكها.في خضم هذه الظروف بدأت انجلترا من جهتها تبحث عن عقد معاهدة مع المغرب مباشرة بعد اندحار جيوشه أمام فرنسا ،مستغلة تدخلها لصالحه. هكذا طالبته بتخفيض الرسوم الجمركية على وارداتها. غير أن المخزن رفض الطلب الانجليزي بدعوى أن له سياسة جمركية راض عنها .كما يتضح ذلك من خلال رسالة المولى عبد الرحمان إلى وكيل المغرب بجبل طارق محمد الرزيني بتاريخ 12 جمادى الثانية 1261 هـ الموافق لـ 18 يونيو 1845م قائلا:"فقد وصلنا كتابك وعرفنا مضمنه وعلمنا ما أجبت به حاكم جبل طارق حين خاطبك في أمر الزيادة في الصاكة لما ألح عليه التجار في ذلك ،طلبه تمييز سلعة الانجليز بالنقص وبمثله أجبت قونص الانجليز لما خاطبكم بمثل ذلك .وذكرت أن كل واحد يفعل في بلده ما شاء وسردت عليهما قضايا مما هو في اللندرة فانصفا للحق فقد أصبت في ذلك أصلحك الله..."[3].

وعلى الرغم من هذه الانتكاسات العسكرية التي عرفها المغرب فإن انجلترا ركزت على أسلوبي الإقناع والدبلوماسية ،كما يتضح ذلك من خلال عبارات الممثل البريطاني "**دراموند هاي**" ،الذي حاول إقناع السلطان بأهمية ربط التجارة المغربية بالتجارة العالمية ،التي أجملها في :"النفع لعباد الله ،سعينا في الخير للمسلمين ،نريد الخير ومصالح المسلمين في جميع أقطار العالم ،مرادنا الخير ،تباحث الخير بين الدولتين ،زيادة الخير بين الرعيتين ،نفع الجانبين والرعيتين ،صادق ،مرادنا هو القوة والغنى لإيالة مراكش ،النفع لبيت المال ،النفع لتجار الجانبين ،مباشرة الأمور على جميل..."[4].

وقد شكلت هذه المعاهدة من جهتها استمرارا لتلك المعاهدات السابقة .غير أنها وضحت الصورة الجديدة التي صارت عليها العلاقات بين البلدين ،القائمة على حماية التجار الانجليز وتمكينهم من المتاجرة داخل المغرب ،مع التأكيد على حقهم في السكن كما يوضح ذلك الشرط الأول من المعاهدة[5] : "لتجار النجليز الإتيان والسكنى والبيع والشراء في جميع مراسي سيدنا أيده الله دون أمد محدود في كل محل يكون به غيرهم من الأجناس ..."[6] .كما قام المخزن بتوقيع معاهدة صلح مع الانجليز في نفس السنة ،شكلت البداية القانونية لما يعرف بالحماية القنصلية .وأكدت على حرية السكن والتنقل بالنسبة للانجليز ،وعدم إلزاميتهم بأداء الضرائب.

وعموما فإن هذه الاتفاقيات قد عالجت قضية الغاء الاحتكارات والقيود المفروضة على السلع المستوردة ،ففيما عدا استثناءات قليلة تقرر ألا تزيد الرسوم المفروضة على السلع عن 10 في المائة من قيمتها .كما تقرر تحديد الحد الأقصى للرسوم المفروضة على الصادرات طبقا لجدول ألحق بالمادة السابعة.وتمت بذلك الاستجابة للغالبية العظمى من شكاوى التجار البريطانيين ان لم يكن كلها. على أن تطبق هذه الامتيازات التي حصل عليها البريطانيون بمقتضى الاتفاقية على سائر رعايا الدول الذين يتاجرون مع المغرب[7].

وحري بالقول إن هذه المعاهدة شكلت إطارا جديدا للعلاقات المغربية الأوربية في إطارها التوسعي ،على اعتبار أن الامتيازات التي نالتها انجلترا سحبتها على كافة القوى الامبريالية الأخرى ،في إطار تحالفها المشترك لفتح المغرب وجعله فائض انتاج مصانع أوربا.عموما فقد

---

[1] الشرط السابع عشر من المعاهدة المغربية السويدية .

[2] نفس الظرفية وقع المغرب معاهدات أخرى مع الدانمرك والبرتغال كانت تهدف إلى فتح السوق المغربية ،وحماية التجار الأوربيين وعدم إخضاع للقانون المغربي الذي يقوم على الشريعة الاسلامية.بالإمكان العودة لهذين المعاهدتين عند بد لرحمان ابن زيدان في الجزء الثالث من الاتحاف الصفحات من 332 إلى 347.

[3] داوود(محمد) ،**تاريخ تطوان،** (ج9) ، تطوان ،المطبعة المهدية ، 1965، ،ص،209.

[4] كنبيب (محمد) ،**المحميون** ،،الرباط ،دار أبي رقراق ،ص ،79.

[5] نص المعاهدة يوجد عند صاحب الاتحاف ،الجزء الخامس ،ص ،ص: 222-229.

[6] الشرط الأول من المعاهدة المغربية الانجليزية ،أنظر :

- عبد ارحمان ابن زيدان ، م س،ص:222.

[7] ب.ج. (روجرر) ، **العلاقات المغربية الانجليزية حتى عام 1900** ،ترجمة وتعليق يونان لبيب رزق ،الدار البيضاء ،دار الثقافة ،الطبعة الأولى ،1981 ،ص،220.

اقترن نماء التجارة غداة 1856 م بارتفاع مثير لعدد المحميين ،وهو ارتفاع لم يسفر عنه نماء التجارة البحرية فحسب بل تداخلت فيه عوامل أخرى مرتبطة بالحسابات والمناورات السياسية والدبلوماسية الأوربية أكثر من ارتباطها بالمعاملات التجارية. ولا أدل عل ذلك من التضخم المهول الذي شهده عدد المحميين الإسبان في ظرف سنة واحدة ؛حيث قفز من 90 محميا سنة 1859 م إلى 763 في سنة 1860 م. وبحكم تأخر اسبانيا الاقتصادي وبؤس معظم المهاجرين الاسبانيين المقيمين بالمراسي المغربية لم يكن لدى المفوض الإسباني بطنجة وقناصله ما يبرر قانونيا توزيع بطاقات السماسرة على كل المغاربة الذين تحولوا إلى محميين إسبانيين بين عشية وضحاها غير أن ذلك لم يمنع المفوض[1] الإسباني "**فرانسيسكو مري إلكوم** " من تجاوزها عنوة وتعويضها باعتبارات سياسية ،إثر اشتباك أهل قبيلة أنجرة مع جنود حامية سبتة عقب إقدام حاكم هذه المدينة المحتلة على بناء برج جديد خارج الحدود المعتادة[2].لقد كان ذلك مدعاة لنشوب حرب تطوان (1859-1860) ،التي انتهت بهزيمة المغرب أمام الآلة العسكرية الاسبانية .لتفرض عليه إثرها مجموعة من الشروط نذكر منها: " أن يوقع المغرب مع إسبانيا وفاق تجاري ،وإجراء رعاية إسبانيا على القواعد الجارية عليها الدول الحائزون تصرف الامتياز " [3].

وفعلا فقد تم عقد المعاهدة التجارية ،وهي تشتمل على أربعة وستين شرطا ،مكنت إسبانيا من تحقيق نفس الامتيازات التي حققتها انجلترا في معاهدة 1856م[4].ومن بين شروط هذه المعاهدة ؛ما يؤكد على التوجه العام لدى الدول الاوربية نحو الحد من سلطة المخزن تجاه الأجانب وإضعافه .بدفعه الى عدم ممارسة أي رقابة على منازلهم وأمتعتهم ،ومنازلهم ووثائقهم للتفتيش إلا بموافقة قناصلهم ،و تسويتهم في الحقوق الأمنية مع الرعايا المغاربة[5].كما أكدت نفس المعاهدة من خلال الشرط التاسع والأربعون على فتح السوق المغربية أمام السلع الإسبانية ؛بمعنى الغاء نظام الاحتكارات السلطانية الذي كان يعرف باسم الكنطرادات.

كما تم دفع السلطان أيضا الى تصدير السلع التي كانوا يحتاجون إليها ،وجعله يفرض على تلك السلع رسوما منخفضة .على الرغم من معارضته لذلك على لسان النائب محمد بن العربي الطريس معللا ذلك بالواقع التجاري الذي تعرفه المقارنة بين انخفاض أسعار مثيلاتها في البلدان الأوربية وأي تخفيض مفاجئ في الرسوم سيشجع التجار على مزيد من التصدير وإخراج المواد الأساسية من البلاد ؛وبالتالي ستكون له انعكاسات على المجتمع من حيث انتشار المجاعة وتذمرها.[6]

يبدوا جليا من خلال هذا المنحى الذي سارت إليه البلاد بعد حرب تطوان .كما يصف ذلك بكل تدقيق صاحب الاستقصا أحمد الناصري بقوله : "ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب ،واستطال النصارى بها وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد له مثله، وكثرت الحمايات ونشأ عن ذلك ضرر كبير نسأل الله العفو والعافية ،في الدين والدنيا والآخرة "[7]

ومن جهتها ستحاول فرنسا عقد تسوية أخرى مع المغرب ،على اعتبار أن معاهدة 1767 م ،التي عقدها البلدان في السابق لا تخول لفرنسا إلا امتيازات ضئيلة مقارنة مع ما حصلت عليه انجلترا وإسبانيا ،يضاف إلى ذلك " أن بعض عبارات معاهداتها مع المغرب جوفاء لا يستخلص منها حتى حقها في منح الحماية القنصلية عند ذوي الانصاف ساعة الحجاج فبدأت محافلها الرسمية وأنديتها السياسية تهمس بضرورة عقد معاهدة جديدة

---

[1] بالضبط الشرط الرابع من المعاهدة (انظر : ابن زيدان عبد الرحمان ،**الاتحاف**، ج 3 ، ص:194.

[2] محمد كنبيب ،**المحميون** ، م س ، ص ،ص ،86-87.

[3] المشرفي (محمد)،**الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية ،(ج2)** ، تحقيق إدريس بو هليلة، الرباط ،دار أبي رقراق ، ط 1 ،2005 ،ص ص 93-94.

[4] توجد بنود هذه الاتفاقية كاملة عند عبد الرحمان بن زيدان في كتابه إتحاف أعلام الناس ،الجزء الثالث من الصفحة 562 إلى الصفحة 590.

[5] بالضبط الشرط الرابع من المعاهدة (انظر : ابن زيدان عبد الرحمان ،م س، ج 3 ، ص:194.

[6] عمر أفا ،م س، 63.

[7] الناصري (أحمد بن خالد) ،**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ،(ج 9) ،الدار البيضاء ،دار الكتاب ،1997 ص.101.

تمكنها بعبارات واضحة من مثل ما تمكنت منه بريطانيا وإسبانيا أو أزيد "[1].

ومن ذلك اتجهت لعقد تسوية أخرى مع المغرب الذي لم يعد له " مناعة " رفض ما قد يضره في سيادته ،على اعتبار الضعف الذي انتابه بعد الهزيمتين العسكريتين أمام فرنسا في إيسلي وإسبانيا في تطوان ،إسوة بالغرامة المالية المفروضة عليه والتي زادت في محنه.

في ظل هذه الظروف وقع المغرب تسوية جديدة مع فرنسا ،تهدف بالأساس إلى تنظيم الحماية القنصلية حيث أقرت أن الحماية تنقسم إلى قسمين ،"يشمل القسم الأول أولاد البلد الذين يخدمون في دار الباشدور وديار القنصوات نوابهم مثل الكتاب والمخازنية والممثلين وشبههم.

والقسم الثاني : السماسرة المستخدمين عند التجار الفرنصويين في أمور تجارتهم، هؤلاء التجار المشار إليهم لا يسمى أحد منهم تاجرا إلا الذي يكون يتاجر تجارة كبيرة وتكون تجارته بالداخل والخارج في المرسى ،سواء كانت تلك التجارة له أو كان نائبا فيها من غيره ،عدد السماسرة الذين يكونون في الحماية لا يزيد على اثنين في دار كل متجر، نعم الدار التي تكون لها دار أخرى في مرسى أخرى فيكون لها في كل دار سمساران محميان.

حماية دولة فرنسا لا تشمل أولاد المستخدمين في البادية في مثل أمور الحراثة والفلاحة رعى الغنم وشبه ذلك "[2].

لقد أدت هذه الاتفاقيات إلى "تذمر السلطان وولاته والشعب المغربي من عواقب المعاهدات الممضاة ،فالنكسة الخطيرة التي أصيب بها المغرب في معركته بإيسلي سنة 1844 مع فرنسا ،ومعركته بتطوان سنة 1860 مع إسبانيا والشروط المذلة المفروضة عليه إثرهما أذهبت هيبته وفتحت بابه على مصراعيه أمام الأجانب الذين صاروا يفدون عليه بدون إذن ويستقرون حيث شاءوا من أرضه من غير ترخيص وكثرة هؤلاء الوافدين والمستوطنين واتساع نطاق أعمالهم التجارية مد نطاق الحماية إلى القرى والأرياف الداخلية بعد أن كان مقصورا على المدن الساحلية ،كما جعل عدد المحميين يكثر ويزداد بسرعة فائقة سيما بعد حرب تطوان سنة 1860 "[3].

وأكثر من ذلك فإن تكاثر المحميين انعكس كذلك بشكل سلبي على الاقتصاد الوطني ،على اعتبار أن المحميين كان يتم إعفاؤهم من الضرائب. وقد حاول المخزن ،في إطار ردة فعله، مواجهة هذا التحدي الأوربي عن طريق دعوته لإقامة مؤتمر دولي لحل معضلة الحماية القنصلية ،في هذا الإطار تمت الدعوة لعقد مؤتمر مدريد سنة 1880م ،الذي عوض أن يحل مشكل الحماية القنصلية وما تبعها ،أدى إلى نتائج عكسية منها:

- "الفصل الأول يؤكد بنود المعاهدتين البريطانية والاسبانية مع المغرب ،وشروط التسوية المبرمة بين فرنسا ودول أخرى من جهة .
- يسمح لنواب الدول باختيار تراجمهم وموظفيهم من المغاربة وغيرهم ويعفيهم من الضرائب ما عدا الذي نص علي الفصلان 12 و13. وهذا مكسب نسبي للمغرب.
- صار من حق السلطة المغربية أن تتابع تعتق كل مستخدم مغربي يعمل في خدمة مغربي لدى سلطة دبلوماسية ,إذا لزم الحال اعتقاله قضائيا ,بشرط إخبار الهيئة التي يعمل في خدمتها "[4].

"لقد أدى مؤتمر مدريد إلى تزايد التدخل الأجنبي في المجال التشريعي من خلال تقييد حرية المخزن في وضع القوانين الجبائية وتعليق تطبيقها إلى حين موافقة الهيأة الدبلوماسية كما جاء في الفقرة الأخيرة من الفصل 13

[1] المنصور (عبد الوهاب) ،**مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880** ،الرباط ،لمطبعة الملكية ،ط 2 ،ص ،ص ، 17-18.

[2] انظر بنود التسوية عند :
- عبد الرحمان بن زيدان ،م س ،ص ،ص ،604-605.
- محمد داود ،،م س ،**(ج 5)** ،،ص:164.
- عبد الوهاب بن منصور ، م س ،،ص،ص،182-183.

[3] نفسه ،ص:18.

[4] حركات (ابراهيم)،**المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء ،مطبعة النجاح الجديدة ، ،1984،ص،278.

،بعدما كان الأجانب قد حصلوا في وقت سابق على حق التدخل في المجالين الجمركي والقضائي "[1].

إن من النتائج العملية لمؤتمر مدريد أنه ساهم في ارتفاع عدد المحميين ،الرافضين لأداء الضرائب ،ومن بين عواقبها ما نستشفه من خلال رسالة من السلطان عبد العزيز موجهة إلى النائب الحاج محمد الطريس "حتى صار جماعات من الغرب متمنعة عن الواجبات والكف بسببهما وإذا تكلم الأشياخ مع أحد من الجماعات بإتيان إليهم ويهددانهم بدعاوى الباطل "[2].

كما عمد المخزن أيضا في إطار سلسلة ردة فعله ،خاصة بعد خيبة أمله في مؤتمر مدريد ،و الضغط الديبلوماسي الذي رافقه بقيادة بريطانيا في شخص نائبها في طنجة **وليام كرين** وانضمام ممثلي كل من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا لمقترحه . عمد إلى مواجهة هذه السياسة الجماعية بسياسة جديدة تقوم على اساس التنازلات الفردية ،وتتجلى في توقيع المولى الحسن معاهدة مع ألمانيا سنة 1890 م كحليف ،علما أن هذه المعاهدة كانت لفائدة كل الدول الأجنبية بالمغرب طبقا لمبدأ الدولة المفضلة.[3]

كل هذه الاجراءات التي قام بها المخزن ،لم تكن لتوقف النزيف الذي كانت البلاد تعاني منه ،والذي زاد حدته بروز التمردات الداخلية ،وسياسة القروض التي نهجتها البلدان الامبريالية المتنافسة حول المغرب ،ناهيك عن ما رافق فشل تطبيق ضريبة الترتيب التي حاول المولى عبد العزيز احياءها بعد أن سنها سلفه المولى الحسن دون طائلة في ظل معارضة القوى المناهضة للاصلاح لها.

---

[1] بياض (الطيب) ،**المخزن والضريبة الاستعمار** ،ضريبة الترتيب1880-1915 ،الدار البيضاء ،إفريقيا الشرق ،ط1 ، 2011 ،ص،189.

[2] و.خ,ع.ت،مح14\5.

[3] عمر أفا ، م س ،ص: 64.

لائحة المصادر والمراجع المعتمدة:

- الحيمر (عبد السلام) ،**النخبة المغربية وإشكالية التحديث** ، الدار البيضاء ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط1، 2001.

[1] ابن المليح (عبد الله) ،**التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار** ،ترجمة محمد لناجي ، الدار البيضاء ،افريقيا الشرق،2014 .

- أفا (عمر)، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر :البنيات والتحولات (1830-1912) ،** الرباط ،مطبعة الكرامة ،ط1، 2006 .
- بن زيدان (عبد الرحمان) ،**اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس** ، تحقيق علي عمر ،(ج3) ،مكتبة الثقافة الدينية ،ط1، 2008.
- داوود(محمد) ،**تاريخ تطوان**، (ج9) ، تطوان ،المطبعة المهدية ، ،1965.
- ب.ج. (روجرر) ، **العلاقات المغربية الانجليزية حتى عام 1900** ،ترجمة وتعليق يونان لبيب رزق ،الدار البيضاء ،دار الثقافة ،الطبعة الأولى، 1981 .

المشرفي (محمد)،**الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية ،(ج2)** ، تحقيق إدريس بوهليلة، الرباط ،دار أبي رقراق ، ط 1 ،2005.

- الناصري (أحمد بن خالد) ،**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ،(ج 9) ،الدار البيضاء ،دار الكتاب، 1997 .
- المنصور (عبد الوهاب) ،**مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة 1880** ،الرباط ،لمطبعة الملكية ،ط 2 .
- حركات (ابراهيم)،**المغرب عبر التاريخ**، الدار البيضاء ،مطبعة النجاح الجديدة ، ،1984.
- بياض (الطيب) ،**المخزن والضريبة الاستعمار** ،ضريبة الترتيب1880-1915 ،الدار البيضاء ،إفريقيا الشرق، ط1، 2011 .

الصراع الأوروبي حول السواحل الجنوبية المغربية: نموذج أيت باعمران

كريم بوريش
باحث في تاريخ الجنوب المغربي

شهد الجنوب المغربي خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر، تكالب العديد من القوى الاستعمارية، التي انقسمت نواياها ومساعيها بين السيطرة على طرق التجارية، وبين التدخل الفعلي في تسير أمور هذه المنطقة؛ فقد اشتد الصراع بين كل من اسبانيا وفرنسا للحصول على منطقة أيت باعمران، كل حسب سجله التاريخي، ومدى قدرة مفاوضيه على التدخل في هذه المنطقة.

أولا:محاولات التسرب الأوروبي إلى سواحل أيت باعمران

1- التسرب الاسباني إلى سواحل أيت باعمران

تعود علاقة اسبانيا بقبائل أيت باعمران إلى سنة 1476م، عقب الصراع الايبري حول مناطق النفوذ خارج حدودها[1]، فبعد احتلال جزر كناريا، عملت اسبانيا على تعزيز نفوذها عبر النفاذ إلى أجزاء من السواحل الجنوبية للمغرب، وأنشأت مركزيين تجاريين بكل من بوجدور، وسواحل واد نون، وأطلقوا على المركز الأول "بوير طو كاراتو"Puer to carrato" والثاني " سانطا كروز دي مار بيكينيا" "Santa cruz De La Mer Pequena"[2]؛ وتزامن تأسيس هذه المراكز مع ضعف سلطة بني مرين؛ لكن سرعان ما تجندت القبائل لتحرير هذه الثغور بعد ما تقلد السعديون مقالد الحكم في المغرب، واضطلاعهم بتحرير السواحل المحتلة وتدمير كل المراكز الأجنبية بها؛ وبالرغم من ذلك لم تتوقف الأطماع الاستعمارية؛ بل ظلت هذه الرغبة تراود الإسبان على مر السنوات، ففي سنة 1746م، نزل البريطاني (كلاس) بحصن سانتا كروز دي مار بيكينيا، مما دفع الاسبان إلى التحرك نحو سيدي محمد بن عبد الله لتحصين موقع سانطا كروز دي مار بيكينيا، وصرف نظر الدول الأوروبية عنه.

عرف تحديد موقع سانطا كروز دي مار بيكينيا، مخاضا عسيرا بين المخزن المغربي، والمستعمر الاسباني، خاصة بعد هزيمة المغرب في معركة تطوان سنة 1860م، مما دفع الاسبان إلى صياغة معاهدة الصلح على أساس تقنين تدخلهم في الجنوب المغربي؛ غير أن جميع المحاولات الاسبانية، لم تتجاوز حدود المفاوضات قبل سنة 1836م/ 1251ه، بعد نزول الطبيب البريطاني "دافيدسون" بودا نون، الأمر الذي اعتبرته منافسة من بريطانيا على هذا المجال.

أ- تحديد موقع سانط كروز ديمار بكينيا

أملت ظرفية الهزيمة في معركة تطوان على المغرب الرضوخ لمطالب الإسبان، التي همت بالأساس جانبيين هما: الجانب المالي، والجانب السياسي؛ هم الجانب المالي تحميل المغرب أوزار الحرب وخسائره، وفرضت عليه 20

---

1 – Robert Montange,**les Berbérs et Le Makhzen dans le sud marocain** , Essai sur la transformationpolitiques des berbérs sédentaires (groub chleuh) Edition Felix alcan.Paris .1930.. P.2.

2– نور الدين بلحداد، ، **التسرب الاسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (1860 –1934)**، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2008، ص73.

مليون ريال[1] كتعويض عن أضرار الحرب، في حين مس الجانب السياسي التدخل في شؤون الدولة من خلال المطالبة بتخويل موقع للصيد بالجنوب المغربي، مقابل استرجاع تطوان؛ لكن هذا الموقع خلف تجاذبا كبير بين المغرب واسبانيا، لعدم وضوح معالم هذا الموقع؛ فقد طالبت اسبانيا في بداية الأمر بأكادير؛ غير أن رد المخزن المغربي كان مخالفا " **وإن ذكرو لك أكادير فأعلموهم بأن أكادير دشرة على حجرة ملتفة بالغابة وسط قبيلة إذ وتنان**"[2] وبالرغم من ثبات الموقف المخزني واستقراره على منطقة إفني، إلا أنه لم يتوانى في تحسيس اسبانيا بخطورة هذه القبائل، "**إن أهل [وادنون] أصعب من أهل الريف، وإذا حصلت المسألة، لا تبقى إلا مدة وتقع الكرة [الحرب] ثاني، ويبقى العيب على الدوام**"[3].

لقد كان للخطاب الترهيبي هذا وقع طفيف على نوايا اسبانيا، لكنه لم يكن ليعدل من مساعيها التوسعية من شيء، مما دفع بالمخزن المغربي إلى تعديل رنة خطابه من الترهيب إلى الإغراء، فاقترح مقابل التنازل عن البند الثامن من معاهدة تطوان، 3 ملايين ريال[4]، غير أن اسبانيا لم يغريها التعويض الذي اقترحه المغرب، فعاد المخزن من جديد اقتراح "كبدانة" في الشمال، كمقابل ترابي لموقع سانط كروز دي مار بكينيا، قصد استغلاله كمحل صيد للاسبان[5]، إلا أن مآل هذا الاقتراح كان هو الرفض.

أمام هذا الطرد والجدب بين المغرب، واسبانيا، وأمام تعنت المغرب ونهجه سياسة المماطلة في تنفيذ البند الثامن من معاهدة تطوان، طالبت اسبانيا من المغرب تشكيل بعثة لتحديد موقع سانط كروز دي مار بكينيا، مكونة من مغاربة واسبان، سنة 1877م[6]، لكنها لم تفلح في تحديد الموقع، مما استلزم إرسال بعثة أخرى بعد سنة من ذلك 1878م، اتفقت على أن إفني هو المقابل لموقع سانط كروز دي مار بيكينيا، بعد عثورهم على أثار حصن قديم رجحوا أنه هو المقصود. وبذلك وافق السلطان على منح إفني للاسبان، قصد الصيد فقط " **بالرغم [من كون] كويدير الرجيلة هي المراد بسنطا كروز(...) إلا أن لاسبانيا أن تبني مجالا لصيادة الحوت بإفني، على وجه الخير والإحسان، لا على وجه القيد والشرط...**"[7]

سعى الاسبان، بعد موافقة السلطان على تخويلهم منطقة سيدي إفني، إلى التقرب من الزعماء المحليين والشيوخ، الذين طالما شكلوا المفتاح الحقيقي للنفاذ إلى هذه القبائل، وتكررت الاتصالات بين الشيخ بيروك والاسبان لإنشاء شركة تجارية منذ 1277ه/ 1861م[8]؛ لكن هذه الشراكة لم تكن لتتم بوجود منافس أكثر نفوذا في سوس الأقصى من الشيخ بيروك، هو الحسين أوهاشم الذي اشتكى للسلطان تعامل بيروك مع الأجانب، فبعث السلطان إلى الشيخ بيروك يحثه" **على ترك مخالطة أولئك التجار، وعدم البيع والشراء معهم، وحدرناهم من شؤم عاقبةالبيع والشراء معهم**"[9]، وعلى الرغم من تحذير المخزن للشيخ بيروك من الاتصال بالأجانب، إلا أنه أعاد الكرة من جديد سنة 1876، مع اسبانيين هما .Silva Puyana، وانتهى بهم الأمر إلى الأسر، ولم يتم افتدائهم إلا بعد تدخل من الحسين أوهاشم.

2- التسرب الفرنسي إلى سواحل أيت باعمران

1- دانيل شورتر، **تجار الصويرة : المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب،1844-1886**، [تعريب خالد بن الصغير]، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص. 254.

2- عبد الكبير الفاسي، إفني ، رسالة المغرب، العدد الثاني، 1848م/ 1366ه، المطبعة الوطنية.ص.94.

3- محمد داود، **تاريخ تطوان**، الجزء الرابع، مطبعة المهدية.ص.247.

4- ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج 3، الدار البيضاء، ط 1، 1985، ص. 263.

5- ابراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، م.س، ص.263.

6- عمر أفا، **التجارة المغربية في القرن التاسع عشر، البنيات والتحولات (1830-1912)**، دار الأمان، الطبعة الأولى، الرباط، 2006. ص،399.

7- عبد الهادي التازي ، **الثغور المحتلة المغربية والمواجهة المسلحة والتدخل الدبلوماسي**، مجلة البحث العلمي، العدد 27، السنة 14، الرباط، 1977، ص.17.

8- أحمد تانضافت، **التسرب الأوروبي بالسواحل الأطلسية الجنوبية للمغرب1836-1895**، نشر المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير، ط1، 2014 ،ص.69.

9- رسالة حسنية إلى الفقيه العربي الأدوزي، تهم تعامل أيت باعمران مع الأجانب؛ المختار السوسي، **المعسول**، ج5، ص.203.

عبرت فرنسا عن نواياها التوسعية الاستعمارية في المغرب، منذ احتلال الجزائر سنة 1830م، فعلى غرار باقي الدول كبريطانيا وألمانيا التي كانت تحركها دوافع اقتصادية في المنطقة، ففرنسا لم تكن لها نوايا اقتصادية، بقدر ما كانت لها أطماع تتجاوز الحصول على امتيازات تجارية، إلى السيطرة على المغرب وضمان التدخل بشكل مباشر في شؤونه الداخلية.

تعود جذور الأطماع الفرنسية بمنطقة أيت باعمران إلى سنة 1261ه/ 1845، بعد تمكنهم من ربط الاتصال بالشيخ بيروك ومرافقة وكيله بوعزة الصويري لمركب فرنسي إلى سواحل واد نون، ظل بها مدة شهريين، حتى شاع خبره وتناهى إلى مسامعي السلطان عبر غريمه التقليدي الحسين أوهاشم، فبعث السلطان بأحد أنجاله وكلف الحسين أوهاشم بمد يد العون له، مما اضطر الفرنسيين إلى العودة إلى الصويرة، في حين زج ببوعزة الصويري في سجن مراكش بعد اعتقاله في الصويرة[1].

لم تتوقف المحاولات الفرنسية، لكنها غيرت من معالم سياستها المباشرة في التدخل، بسياسة جديدة تعتمد على الخديعة والمكر؛ حيث انتحل الفرنسي (Panet) بانيت، صفة مسلم جزائري سنة 1267ه/ 1850م[2]، متدرعا بغطاء عقد اتفاقيات تجارية مع الشيخ بيروك، والتواصل مع كل من زعيم إليغ وواد نون، والوقوف على مدى نفوذهم داخل هذه المناطق؛ مما رجح كافة الحسين أوهاشم على حساب الشيخ بيروك.

تبين لفرنسا مكانة وقوة الحسين أوهاشم كزعيم للحلف تاكزولت، فلم تذخر جهدا في كسب وده والتواصل معه، وتذكر تقارير القنصلية الفرنسية أن الأخير بدأ يرسل مبعوثين سريين إلى فرنسا[3]، توصلوا إلى عقد اتفاقية شراكة سنة 1853م، تنص على فتح مرسى أكادير في وجه التجار الفرنسين، مع تخفيض قيمة المنتجات المحلية، في مقابل تمكين الحسين أوهاشم من السلاح[4]، وبالرغم من كل هذا إلا أن الحسين أوهاشم لم يتجاوز حدود التفاوض وعقد الاتفاقيات إلى تطبيقها، فقد رعى في ذلك سخط السلطان عليه، وما يمكن أن يترتب عن ذلك إن هو أقدم على فتح مرسى أكادير، الذي أغلق بأمر سلطاني.

أسهمت كل هذه الأحداث المتشابكة والمتضاربة بين الرغبة في التواصل مع الأجانب، والعدول عن تطبيق مقررات التفاوض معهم، من قبل الزعماء المحليين في تعتيم الصورة أكثر حول مسألة حضور سلطة السلطان في السوس الأقصى التي تأرجحت بين الحضور الاسمي والفعلي وفق ما أملته جدلية الظرفية التاريخية؛ مما وضع سلطة السلطان محط ارتياب وتساؤلات عديدة، ولعل التساؤل الذي يفرض نفسه أمام ما بلغه كل من نفوذ زعيم إليغ والشيخ بيروك. لماذا لم تتبلور مشاريع سياسية تعوض ضعف السلطة المخزنية على غرار سالف القرون منذ العصر الوسيط، بالرغم من تنافي موجبات بروز المشرع السياسي؟

وهذه المترابطات المعقدة في علاقة الطرف بالمركز، ساهمت فيها بشكل كبير نوايا الإمبريالية الفرنسية، التي توقفت ردحا من الزمن قبل أن تستأنف سنة 1881، مباشرة بعد مؤتمر مدريد بسنة، وقبل حركة المولى الحسن الأولى إلى سوس؛ حيث عمد الحسين أوهاشم إلى الاتصال بالقنصل الفرنسي بالصويرة، للتوسط له لدى الحكومة الفرنسية، من أجل فتح مرسى " كولوميا" الواقع بالقرب من شاطئ سيدي محمد ابن عبد الله[5]، وذلك في إطار المنافسة مع الحبيب ولد بيروك، الذي فتح محطة بطرفاية مع ماكينزي.

3- التسرب البريطاني[6] إلى سواحل أيت باعمران

1- شروتر، **تجار الصويرة** ، م.س، ص، 304.

2- أحمد تانضافت ، **التسرب الأوروبي**، م.س، ص، 72.

3- شروتر، **تجار الصويرة** ، م.س، ص، 304.

4- ينظر في هذا الصدد :

شروتر، **تجار الصويرة** ، م.س، ص، 305.

Miége T. **Le Maroc et L'Europe** , Les Difficultés , Tome 3 et 8, Paris, 1951 P.312.

5 -Miége T. 3. Op. cit , p 316 .

6- درس موضوع التسرب البريطاني بالجنوب المغربي بتفصيل من طرف كل من الباحث، خالد بن الصغير، في أطروحته: **المغرب وبريطانيا العظمى 1885-1904**، كما خصص الباحث عمر أفا فصلا كاملا في دراسته:

عرفت علاقة المغرب ببريطانيا، نوعا من الاستقرار خاصة، وأن بريطانيا بذلت جهدا دبلوماسيا من أجل بقاء سيادة المغرب وترابه بعيدا عن أية سيطرة أجنبية[1]، إلا أنها تعاملت مع منطقة الجنوب بمنطق معاير، خاصة المناطق الواقعة، ما بين وادنون حتى طرفاية، التي تعتبرها خارج عن نفوذ سلطة السلطان، خاصة فيما يتعلق بالمشاريع التي حاول التجار الانجليز إنشائها بالسواحل الجنوبية، وتدخل في هذا الإطار محاولة كل من "جورج دوكلاس" سنة 1764م، و "جون دافيدسون" سنة 1836م، ومحاولة "دونالد ماكينزي" 1872م، ومحاولة " جيمس كورتيس"؛ غير أننا في هذا المقام سنقتصر فقط على محاولة "جيمس كورتيس" التي تنسجم والضوابط المنهجية المؤطرة لحدود الدراسة.

جاء اهتمام "جيمس كورتيس" بمجال أيت باعمران، عقب الاتفاقية المبرمة سنة 1879م بين "دونالد ماكينزي"، ومحمد بن بيروك، القاضية بتخويل التاجر البريطاني محلا للصيد بطرفاية، فصار على نهج سابقه في استمالة 3 من التجار لدعم مشروعه، وهم: "برومو"،"Broom"، و"يول"،"Yule"، من جنسية بريطانية، وأخر ألماني هو، "بروار" "Brauer"، فنزل بأركسيس بقبيلة اصبويا بأيت باعمران، واستطاع أن يعقد اتفاقا[2] مع أعيان أيت باعمران[3]، ينص على أربعة شروط هي:

- ✓ فتح مرسى تجاري بقبيلة أيت باعمران، وإقامة مركز تجاري بها على غرار مركز طرفاية.
- ✓ تخويل التجار الأربعة مكان لإنشاء مخازن للسلع.
- ✓ عدم السماح لأي دولة أخرى بالاتجار في منطقة أيت باعمران.

التجارة المغربية في القرن التاسع عشرا، وكذلك الباحث أحمد تانضافت: **التسرب الأوروبي بالسواحل الأطلسية الجنوبية للمغرب 1836-1895م**.

1- عمر أفا، **التجارة المغربية**، م.س، ص.401.

2- عثر الباحث خالد بن الصغير على نص الاتفاقية في الأرشيف البريطاني، مكتوب باللغة الإنجليزية، وترجمه ضمن مقاله في ندوة مدينة تيزنيت وباديتها، تحت عنوان: "كورتيس وشركة سوس وشمال افريقيا"، ص ص. 75-76.

3- المختار السوسي، **المعسول** ،ج 20، م.س، ص. 11.

- ✓ مطالبة شيوخ أيت باعمران بالحرص على سلامة وأمن التجار الإنجليز وسلعهم داخل منطقة أيت باعمران.

تم الاتفاق بين شيوخ أيت باعمران وكورتيس، وأعلن عن الاتفاق في نشرة مفصلة، تضمنت تأسيس "**شركة سوس وشمال إفريقيا**" في بريطانيا يوم 25 شتنبر 1881م[4]؛ ويبدو أن هذا الاتفاق الذي تم في سرية تامة بعيدا عن أنظار المخزن، سرعان ما داع صيته وانتهى خبره إلى الأعتاب الشريفة، عبر الحسين أوهاشم، فما كان رد المخزن حيال هذا الاتفاق؟

على عكس محاولد " دونالد ماكينزي"، لم تلقى محاولة "جيمس كورتيس" تأيد وترحيب من طرف الحكومة البريطانية، التي تعتبر مجال أيت باعمران ضمن نفوذ السلطة المخزنية، عكس طرفاية؛ مما ساعد المخزن المغربي في التعجيل بالقضاء على محاولة كورتيس، وعبر عن استيائه من المحاولات المتكررة للتجار البريطانين للتواصل مع مناطق نفوذ المخزن، دون تزكية من هذا الأخير، فقد نشر إعلان في جريدة "تايمز البريطانية"، يؤكد فيه على أحقية المخزن على المناطق التي تدخل فيها التجار البريطانيين، كما أكد على تمسك أطراف البلاد على الميثاق الذي يجمعهم بالسلطة الحاكمة؛ غير أن كورتيس لم تثنيه مواقف حكومة بريطانية المناوئة لمشروعه، ولا استرعاء المخزن المغربي من قضيته، عن إتمام مشروعه، فقرر في سنة 1883 شحن سفينة من القمح والأرز، ونزل بيها في أركسيس[5]، مستغلا بذلك ظروف المجاعة التي ألمت بسوس خلال نفس السنة، مما أثار حفيظة السلطان، وأصدر أمره بالقبض عليه، فعين لذلك ابن عمه "مولاي الكبير بن مولاي سليمان" والقائد "محمد ابن الطاهر الدليمي"[6] معززين بقبائل ماسة، وبعقيلة،

4- خالد بن الصغير، " كورتيس وشركة سوس وشمال إفريقيا"، **ندوة مدينة تيزنيت وباديتها**، م.س، ص. 75.

5- نفسه،ص.84.

6- ابن زيدان، **اتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، ج2، الطبعة الثانية، مطابع إديال، الدار البيضاء، 1999، ص،382.

ومجاطة، وما وراء أيت باعمران، بعد نزولهم بمنطقة مستي، فتقدم القائد محمد بن الطاهر الدليمي إلى اصبويا مع القائد حسن بن عليات، فدبروا حيلة[1] للقبض على كورتيس، ونقله إلى الصويرة[2] وتسليمه للقنصل البريطاني، وبذلك تم تصفية قضية كورتيس.

4- التسرب الألماني إلى سواحل أيت باعمران.

سعت ألمانيا في إطار الصراع المحتدم بين الدول الإمبريالية، إلى إيجاد موطئ قدم لها داخل المغرب، فقد شكل الجنوب المغربي[3] مسرحا للعديد من التسربات الأوروبية، الفرنسية والاسبانية والبريطانية، وأخير الألمانية؛ فما هي دوافع اهتمام ألمانيا بالجنوب المغربي:

- ✓ الرغبة في استغلال الثروة المعدنية التي يزخر بها سوس[4].
- ✓ بعد الجنوب المغربي عن نفوذ السلطة المركزية.
- ✓ كون سوس ممر أساسي للقوافل التجارية.
- ✓ وجود زعامات محلية متحكمة في المجال، يمكن الاحتماء بها.

اعتمدت سياسة ألمانية في سوس على " **الجواسيس التجاريين والسياسيين [الذين] كانوا يستخفون كثيرا لاستطلاع شؤون المغرب**"[5]، كم استفادوا كذلك من علاقتهم الوطيدة بالزعامات المحلية المناوئة للفرنسيين.

تعود الجذور التاريخية لعلاقة ألمانيا بقبائل أيت باعمران، إلى سنة 1298ه/ 1881، فقد رست أول بعثة ألمانية بسواحل إفني، عبر السفينة (Nautieus)[6]، مما أثار غضب اسبانيا التي تعتبر نفسها الأحق بسيدي افني، و أيت باعمران، فاقترحت الشركة الميركانتيلية الاسبانية على تكتل الشركات الألمانية الدخول في مشروع مشترك لتنمية واستغلال منطقة واد الذهب، سنة 1300ه/ 1883م، غير أن رغبة ألمانية في الانفراد بمعادن منطقة سيدي افني، جعلها ترفض مقترح الشركة الاسبانية[7]، وترسل بعثة أخرى بقيادة (Jannasch) إلى سواحل واد نون، من أجل فتح ميناء به، غير أن مرابطة قبائل العسة بهذه السواحل، حالت دون تنفيذ ألمانية لمساعيها؛ بل تم اعتقال مجموعة من الألمانيين، وتسليمهم للمولى الحسن الأولى، الذي أمر بإطلاق سراحهم[8].

تدخل محاولات ألمانيا في أيت باعمران، في إطار الصراع الإمبريالي بين الدول الأوروبية الكبرى حول المستعمرات، فبعد سلسلة من محاولات التسرب بالسواحل الجنوبية؛ دخلت الدول الاستعمارية في مسلسل المفوضات حول تقسيم مناطق النفوذ بعموم افريقيا، تمخض عنها العديد من الاتفاقيات بين هذه الدول، رجحت كافة فرنسا واسبانيا في تقسيم المغرب، بينهما على أساس تخويل اسبانيا الأجزاء الشمالية، والجنوبية ومنها أيت باعمران.

ثانيا: الاتفاقيات الدولية حول أيت باعمران

لعبت التطورات التي عرفتها أوروبا خلال القرن التاسع عشر، دورا كبيرا في صياغة أنماط جديد من العلاقات بين المغرب وأوروبا، التي كانت فيما مضى تقوم على المثل، غير أن التضخم الاقتصادي الذي عرفته أوروبا خلال العصر نفسه، حتم عليها البحث عن أسواق جديدة لتصريف فائض إنتاجها خارج القارة العجوز، فقد كان المغرب على مر التاريخ ممرا لا محيد عنه لأوروبا من أجل النفاذ إلى إفريقيا، مما وضعه ضمن دائرة الدول المعنية بالاستعمار؛ وزاد من حدة هذه الاضطرابات الخارجية، هشاشة الصرح السياسي المغربي وعجزه عن مسايرة التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي تشهدها الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، وقد مكنت التسربات الأجنبية إلى الجنوب المغربي، من كشف بواطن الضعف في الجهاز المخزني؛ بحيث سعت الدول الأوروبية لاستغلاله من خلال توقيع مجموعة من

1- تفاصيل الحادثة في **المعسول**، ج 20، ص ص، 11-12.

2- ابن زيدان، **اتحاف أعلام الناس**، ج2، م.س، ص، 382.

3- نقصد بالجنوب المغربي هنا المجال الممتد بين أكادير شمالا، وواد الذهب جنوبا.

4- حول أهمية الثروة المعدنية بسوس يرجى الإطلاع على: عمر أفا، **مسألة النقود**، م.س، صص، 288-304.

5_ محمد المختار السوسي، **المعسول** ، ج15، م.س، ص، 233.

6- أحمد تانضافت ، **التسرب الأوروبي**، م.س، ص.77.

7 - Miége , T 3 op. cit , p 335.

8- نور الدين بلحداد، **التسرب الاسباني**، م.س، ص، 252.

الاتفاقيات والمعاهدات الثنائية[1]، التي ستخول لها السند القانوني للتدخل في المغرب، وتشرعن الاستعمار.

استأثر الجنوب المغربي بصفة عامة، وأيت باعمران بصفة خاصة، بأهمية كبيرة بين الدول الاستعمارية الكبرى، التي عملت على صياغة إطار قانوني يضمن لها التدخل في أيت باعمران والانفراد به، فما هي أبرز الاتفاقيات الدولية حول أيت باعمران؟

1- الاتفاقيات الاسبانية المغربية، حول أيت باعمران.

أ- معاهدة الصلح بتطوان 26 أبريل 1860م.

اضطر المغاربة بعد الهزيمة في تطوان 1860م، إلى توقيع معاهدة الصلح بين الطرفين في يوم 26 أبريل 1860م، اشترطت في بندها الثامن تمكين اسبانيا من محل للصيد بصفة دائمة في الجنوب المغربي، جاء في نص البند ما يلي: **" إن سلطان مراكش يعطي لسلطانة اصبانيا على الدوام أرض على ساحل البحر المحيط قريبا من سانط كروث الصغيرة يعني بالعربية، قريبا من أكدير حتى تبني فيه بنيانا لصيادة الحوت مثل الذي كان هناك قديما، وحتى يكمل ما ذكرناه في هذا الفصل يوجب أن سلطان الدولتين يتوافقوا مع بعضهما ويسموا في هذاك الوقت الوكلاء من الدولتين حتى يعلموا الأرض والحدود لهذين البنيان"**[2].

خلف الانتصار في معركة تطوان، في نفوس الاسبان جشعا كبيرا، فبالإضافة إلى الاقتطاعات الترابية، حملت المغرب أوزار الحرب وتكاليفه، وذلك من أجل إغراق خزينة الدولة وإنهاكها ماليا واقتصاديا حتى يتسنى تنفيذ مخططاتها الاستعمارية دون عناء، إلا هذا الجشع حال دون تحديد دقيق لموقع سانط كروز دي مار بكينيا المتنازع عليه، كلفها الأمر عقدين من الزمن[3] قبل أن يتم تعيين لجنة لتحديد الموقع المتنازع عليه.

ب- الاتفاق المغربي الاسباني، حول افني و أيت باعمران

اشتدت وثيرة الصراع وتزايدت أكثر بين اسبانيا وفرنسا، بعد انفرادهما بالمغرب بموجب الاتفاق الايطالي الفرنسي المبرم في 3 نونبر 1902م، والذي ينص على اعتراف فرنسا بأحقية ايطاليا في ليبيا مقابل، تنازل ايطاليا عن أطماعها في المغرب[4]، والاتفاق الفرنسي البريطاني المبرم في 8 أبريل 1904م، القاضي بتنازل فرنسا لبريطانيا عن مستعمرة مصر، مقابل تنازل بريطانيا عن أطماعها في المغرب[5]، ومكنت هذه الاتفاقية فرنسا من إزالة أهم عائق أمام عملها في المغرب[6]، في حين بقيت مسألة المغرب مدار مفاوضات بين فرنسا واسبانيا، انتهت إلى تقسيمه إلى منطقتين قي 7 أكتوبر 1904[7]؛ غير أن تخويل منطقة الشمال لاسبانيا والجنوب لفرنسا، لم يكن ليرضي أطماع اسبانيا، ويثنيها عن المطالبة بما تسميه بحقوقها التاريخية في منطقة سانط كروز؛ لذا قررت فرنسا أمام إلحاح اسبانيا وتمسكها بسانط كروز تخويلها إياه مقابل منح اسبانيا لفرنسا المناطق المحاذية لمليلية[8]، غير أن اسبانيا رفضت الاقتراح، وشرعت في ربط الاتصال بالحكومة

1- يرى عبد الله العروي أن هناك ثلاثة وسائل من التوغل الأوروبي : الأولى هي وسيلة القوة، وهي المرحلة التي توافق التسربات الأجنبية بالسواحل الجنوبية، والوسيلة الثانية هي التجارة الأوروبية، التي عملت على تفكيك البنيات الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربي، في ظل عجز التجارة المغربية عن مسايرة نظيرتها الأجنبية، ناهيك عن توالي مسلسل المجاعات والأوبئة على المغرب،وأخير برنامج الإصلاحات التي عملت فيه فرنسا من أجل تعزيز نفوذها داخل المغرب. عبد الله العروي، الأصول الاجتماعية والثقافية للوطنية المغربية.

2- عبد الوهاب بن منصور، **مشكلة الحماية القنصلية بالمغرب، من نشأتها إلى مؤتمر مدريد سنة1880م**، المطبعة الملكية، الرباط، ط، 2، 1985، ص. 153.

3- عبد المالك علاء الدين، **الوجود الاسباني بايفني وأيت باعمران (1934-1969)** ، دكتوراه في التاريخ، الرباط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية أكدال- الرباط ، 2005-2006، (مرقونة)،ص، 45.

4- ركزت أطماع إيطاليا في المغرب على الجانب، فكانت سياستها تعتمد بالأساس على إبقاء الوضع على ما هو عليه دون الإخلال بموازين القوى.

5- ينظر في هذا الصدد كل من:

علال الخديمي، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب، 1894-1910، حادثة الدار البيضاء واحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، ط، 2، 1994،ص، 47.

محمد أمين القبلي، **تاريخ المغرب**، م.س، ص ص، 504-505.

6 - Charles André Julien. **Le Maroc face aux impérialismes 1415-1956**, Paris : 1978, p. 54.

7- علال الخديمي، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب**، م.س، ص، 505.

8- عبد الجليل ضريف، **المنافسة الفرنسية الاسبانية بشأن المغرب، 1902-1912**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط 1992-1993، (مرقونة)، ص 263-264.

المغربية من أجل التباحث في مسألة سانط كروز، وأفضت هذه الاتصالات بتوقيع الوزير "المقري" معاهدة باسم السلطان، تنص على الحد من النزاع بين اسبانيا والمغرب، وجاء في نصها ما يلي:

" **وزير الخارجية المغربي لجلالته الشريفة إلى وزير الدولة في 17 نونبر 1910/ 14 ذي القعدة 1328ه، الحمد لله وحده، وبعد. استنادا للاتفاق السابق بين الطرفين، المستند إلى الطلب الشفوي الموجه إلى المخزن، من أجل النظر في تحديد موعد سفر اللجان الشريفة لما اتفق عليه في الفصل الثامن من اتفاقية 26 أبريل 1860 (4 شوال 1276ه)...**"[1]، إلا أن حرمان ألمانيا من -حقها- كدولة امبريالية في المستعمرات، كان له أثر كبير في تأخير تسليم سيدي إفني لاسبانيا؛ ففي الوقت الذي اشتغلت فيه كل من فرنسا واسبانيا بتقسيم "الكعكة المغربية"، ظهرت بارجة ألمانية في ميناء أكادير[2] سنة قبل توقيع الحماية 1911، مما أثار حفيظة الفرنسيين الذين ظنوا بأن بساط المغرب مهدت لهم بعد التحالفات الودية المبرمة مع الدول السابقة، فسارعوا إلى إحياء مطالب ألمانيا القديمة، المتمثلة في إشراكها في تقسيم المغرب، وانتهى الأمر بتوقيع اتفاق، قوبل بترحاب كبير بين البلدين[3]، في 4 نونبر 1911م، تخلت بموجبه فرنسا عن الكونغو لألمانيا، وأقرت لها بمبدأ المساواة الاقتصادية في المغرب، وبتوقيع هذه الاتفاقية أزاحت فرنسا أخر عائق في طريقها لاحتلال المغرب[4].

2- الاتفاق الفرنسي الاسباني حول افني و أيت باعمران

حصرت التسويات بين الدول الامبريالية الكبرى، مسألة المغرب بين كل من فرنسا واسبانيا، فقد تم تقسيم المغرب بموجب اتفاق ثلاثي بين فرنسا وبريطانيا، واسبانيا في 13 أكتوبر1904م، إلى منطقتين، حيث؛ "**تعهدت الدولتين بأن يكون شمال المغرب من نصيب اسبانيا، شرط أن يكف السلطان عن ممارسة حقوقه على تلك المناطق**"[5]، إلا أن السلطان لم يكن ليتخلى عن حقوقه إلا تحت طائلة الضغوط الأجنبية، التي لم تذخر جهدا في سبيل نهب الجسم المغربي المتهالك و المتهرئ، في حين نص الشق الثاني من الاتفاقية على تخويل فرنسا الأجزاء الجنوبية للمغرب، تماشيا مع التصورات التي عملت فرنسا على ترويجها عن الجنوب، كونه "لا يخضع لسلطان المغرب"؛ غير أن الأطماع الاسبانية في الجنوب المغربي، لم تشفي غليها بعد، في الحصول على مطلبه القديم الجديد (سانط كروز)، وطالبت فرنسا الالتزام بحقوقها في المركز المذكور أنفا، خاصة بعد تزكية بريطانيا لمطالب اسبانيا في الحصول على موقع سانط كروز[6]، وأمام إلحاح الاسبان على مطلبهم في الحصول على سيدي إفني، قررت فرنسا تسليم اسبانيا سيدي افني، مقابل تسليم اسبانيا فرنسا المناطق المحاذية لمليلية[7]، إلا أن جواب اسبانيا جاء بصيغة الرفض، تجاه مقترح فرنسا.

خلفت تزكية الانجليز لمطالب اسبانيا غضبا كبيرا في الأوساط المخزنية المغربية، التي كانت "تعول عليها لردع فرنسا والتقليل من مخاطرها المتنامية بشكل رهيب ضد السيادة المغربية"[8]، واتهمتها بالخيانة وموالاة القوى الإمبريالية على حساب المغرب؛ في حين دخلت علاقة فرنسا واسبانيا بالمغرب منعطفا خطيرا وحاسما، بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء يوم 12 صفر 1324/ 7 أبريل

1- عبد المالك علاء الدين، **التواجد الاسباني**، م.س،ص 55.

2- للمزيد من التفاصيل حول ظهور البارجة الألمانية بأكادير يرجى الاطلاع على:

علال الخديمي ، **المغرب في مواجهة التحديات الخارجية**، م.س، ص،ص. 124-125.

علال الخديمي، **التدخل الأجنبي والمقاومة بالمغرب**، م.س، 55-59.

كتاب جماعي،"مقاربة تاريخية لأزمة أكادير 1911"، تنسيق يوسف أكمير.

3- علال الخديمي، **المغرب في مواجهة التحديات الخارجية**، م.س، ص114.

4- عبد الله ابن المليح، **التاريخ السياسي للمغرب إبان الاستعمار، البنيات السياسية**، [ترجمة محمد الناجي]، إفريقيا الشرق، 2014، ص 84.

5- علال الخديمي، **التدخل الأجنبي**، م.س، ص.47.

6- عبد المالك علاء الدين، **التواجد الاسباني**، م.س، ص.52.

7- ضريف، **المنافسة الفرنسية**، م.س، ص ص، 263- 264.

8- عبد الله استيتيتو، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقة بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر**، نشر المندوبية السامية لقدماء المحاربين وأعضاء جيش التحرير،ط، 1، 2013.، ص، 220.

1906م[1]، الذي كشف المستور والمسكوت عنه في سياسة كل من فرنسا واسبانيا، وأعلن بداية العد التنازلي للمواجهة العسكرية بين الأطراف الثلاثة، خاصة بعدما حشدت فرنسا ما يزيد عن 100000 ألف جندي من قواتها مدججين بأحداث الآليات العسكرية.

1- للمزيد من التفاصيل حول مؤتمر الجزيرة الخضراء، يرجى الإطلاع على:
محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، مطبعة الأمنية، ط،1، الرباط، 1974،ج2.
عبد الله استيتيتو، **دور تافيلالت**، م.س، صص. 224-230.
= علال الخديمي، **التدخل الأجنبي**، م.س، صص. 73، 77.
علال الخديمي ، **المغرب في مواجهة التحديات الخارجية**، م.س، ص،111.
محمد أمين القبلي، تاريخ المغرب،م.س، صص.505-508.

دة. فطيمة الكنوني
باحثة في تاريخ المغرب الوسيط

قراءة في كتاب: المرابطون، الدولة، الاقتصاد، المجتمع للدكتور حسن حافظي علوي

يمثل هذا الكتاب المرحلة الثالثة من تطور الكتابة التاريخية ألا وهي مرحلة الاستشكال[1] إذ نجد الباحث ينفتح على مختلف العلوم الاجتماعية موظفا تقنيات حديثة في البحث التاريخي منها المصادر النمية[2] المتعلقة بالدولة المرابطية.

يندرج الكتاب ضمن الحقل السياسي والاجتماعي والاقتصادي نظرا لتناوله مواضيع تتعلق بفئات اجتماعية مختلفة(فقهاء، متصوفة..)، مثيرا كذلك، قضية اللثام المرابطي ومداخيل الدولة من جبايات ومغانم وطرق السقي... فهو يعالج قضايا مختلفة انطلاقا من أبعاد متعددة.

1- التعريف بالكتاب:

صدر عن دار النشر "جذور النشر" بدعم من وزارة الثقافة، وهو من الحجم المتوسط تبلغ صفحاته 164 صفحة. وهو عبارة عن ست دراسات غير متصلة في الموضوع والزمن، يربطها الاهتمام بتاريخ المرابطين جمعها صاحبها باقتراح أحد أصدقائه كما ورد في مقدمة الكتاب، بهدف استفادة من بحاجة إليها. سبق للمؤلف المساهمة بواحدة من تلك المقالات بمجلة علمية واثنين ضمن أعمال ندوات بينما نشر الثلاث الباقية لأول مرة.

2- دراسة نقدية:

أ- تقديم محتويات الكتاب:

حملت الدراسة الأولى عنوان "**علاقة السلطان علي بن يوسف بالفقهاء**". استهلها الباحث بالحديث عن علاقة علي بن يوسف بالفقهاء، مبررا اختياره كلمة الفقيه لدلالتها على مختلف أنواع المعرفة خلال العصر الوسيط، موردا شهادة المقري. كما أشار لضرورة التعامل بحذر مع كل ما كتب عن الدولة المرابطية. لخص أسباب ذلك في ضياع أغلب مؤلفات الفترة واقتصار ما وصل منها على نوعين من المصادر: أندلسية تسعى لإثبات ريادة الأندلس في شتى المجالات، وحاملة كراهية واضحة للمرابطين وولاتهم مستدلا على قوله برسالتي الشقندي وأبي مروان بن أبي الخصال. أما المصادر الثانية فموحدية من صنع خلفاء بني عبد المومن ولسانهم المعبر عنهم مثل المعجب وأخبار المهدي ونظم الجمان. وظفت من قبل المستشرقين المتعصبين والمتحاملين على المرابطين منهم المؤرخ الهولندي دوزي والمستشرق الألماني يوسف أشباخ الذي وصفهم بالبدو السذج وبأعداء الحضارة العربية.

وصف المراكشي علي بن يوسف بالضعف وتحكم الفقهاء بأمور دولته. حاول المؤلف تفنيد ذلك بكون علاقته بالخلفاء كانت مبنية على قاعدة إسلامية تربط

---

[1] تميزت هذه المرحلة بوجود دراسات غنية تعتمد على ما حقق سابقا، كما ترتكز على تقنيات جديدة سمحت بطرح إشكالات لم تطرح سابقا مثل: الشرافة والولاية والذاكرة والرق والفقر والكوارث الطبيعية...مع استمرار تحقيق نصوص جديدة مثل المقصد الشريف للبادسي والمعيار المعرب للونشريسي. اتسمت أيضا بإعادة تحقيق المؤلفات التي حققت في المرحلة الأولى من التطور التاريخي: مرحلة الاستكشاف والبحث الاستعماري مثل كتاب اقتضاب الأخبار للأنصاري السبتي الذي أعاد تحقيقه ذ عبد الوهاب بلمنصور، وكتاب التشوف من قبل د. أحمد التوفيق الطيبي...

[2] أو علم النوميسماتيك الذي بات من أهم المصادر لدراسة تاريخ الشعوب لكونه يقدم مادة تتميز بالمصداقية قد لا توجد في المصادر الأخرى. حول هذا الموضوه انظر "منهج البحث التاريخي" لحسن عثمان- دار المعارف طبعة1986م.

الأمير بالفقيه، معللا آراء المراكشي بتغير أوضاع الفقهاء خلال العصر الموحدي.

بعد ذلك، عالج المؤلف علاقة علي بن يوسف بالفقهاء من خلال أربعة عناصر:

أولها: **إحراق كتاب علوم الدين** للإمام الغزالي مشيرا لتهويل الاستغرافيا الموحدية للأمر، مبينا أن تلك الظاهرة أي الإحراق، كانت مألوفة قبل العصر المرابطي، بل وعرفها العصر الموحدي أيضا. مستشهدا بإحراق كتب ابن حزم وكتب المذاهب من قبل يعقوب المنصور الموحدي. أما المستشرقين وعلى رأسهم ليفي بروفنصال، حملوا مسؤولية الإحراق لعلي بن يوسف. واصفين إياه بالضعف وسيطرة الفقهاء عليه، بينما يرى المؤلف أنها دعاية موحدية لإلغاء أهليته لإدارة شؤون رعاياه، ومن ثمة شرعية الإمامة المهدوية. واستشهد بأمثلة عديدة محاولا إثبات حنكة الأمير المرابطي وحزمه، فأرجع سبب الحادثة إلى دعوة الكتاب المبالغة للزهد والانسياق وراء الغيبوبة الصوفية في الوقت الذي كانت الدولة بحاجة للجهاد والتيقظ لمواجهة أخطار المسيحيين بالأندلس، وأضاف لذلك المبرر تأييد الفقهاء للأمر. مما يعكس في نظر الباحث، صراعا حادا بينهم وبين المتصوفة من جهة، وتوافق مصالح السلطة والفقهاء من جهة أخرى. يضيف المؤلف سببا آخر للإحراق، هو تضمن الكتاب تناقض الشريعة وآراء حول خلق العالم. فتمت مطاردة الكتاب حتى في عهد تاشفين بن علي الذي بعث رسالة لأهل بلنسية لتنفيذ ذلك القرار، فربط المؤلف بينها وبين ثورة المريدين.

يتمثل المؤشر الثاني في **علاقة علي بن يوسف بالمتصوفة**، المتسمة بالازدواجية: متسامح مع الزهاد منهم المنحرفين عن أمور السياسة فكان نفسه ورعا تقيا، ومتشددا مع كل من شكل منهم خطرا على الدولة مثل نكبته لأقطاب التصوف الأندلسي كابن برجان وابن العريف وأبي بكر الميورقي. مشيرا لاختلاف المصادر حول أسباب نكبتهم، ومسجلا الدوافع الأمنية التي كانت وراء استقدامهم ليكونوا تحت أعين السلطة. موازاة مع ذلك، بين المؤلف الوجه الآخر لعلاقة السلطة بالمتصوفة، والمتمثل في تقريب الأمير للبعيدين منهم عن المدار السياسي مبررا ذلك بتقواه وورعه، مستشهدا على ذلك بما ورد في البيان المغرب والإحاطة والحلل الموشية وروض القرطاس، لينتقل من جديد لسرد صفاته التعبدية الزهدية.

يتجسد العنصر الثالث في **استشارته للفقهاء وتشدده في معاقبة من أساء لهم.** مبينا أن الأمر ليس طارئا بل ترجع جذوره للإمارة والخلافة الأمويتين حيث وصل نفوذهم لدرجة الإفتاء في الحياة الخاصة للأمراء، وهي في الآن نفسه امتدادا للعهود السابقة على اعتبار أن الدولة نفسها قامت على أساس ديني، مما يفسر تقديرهم للفقهاء الذين حققوا أطماعهم الدنيوية بفضل تلك المكانة. بينما استغل آخرون ذلك لتحقيق طموحاتهم السياسية كما هو حال المهدي بن تومرت.

أما المؤشر الأخير فيتعلق **بأنواع المعرفة السائدة في عهد الأمير علي**، فانتقد المؤلف الدراسات المبنية في معظمها، على أقوال المراكشي بكون المرابطين نبذوا علم الكلام بناء على آراء ومواقف الفقهاء. فهو يرى أنه اختيار رسمي للدولة لم يمنع من وجود علوم ومعارف أخرى مثل الطب والفلك والفلسفة، مستدلا بأسماء بارزة من المغرب والأندلس، مما يؤكد في رأيه التسامح الفكري للمرابطين. لقد وظف ذلك لتفنيد آراء المستشرقين الواصفين الحياة الفكرية في ذلك العهد بالجمود وتحطيم الروح الإبداعية في المجال الشعري والنثري. ويواصل دفاعه برجوعه للدراسات الحديثة التي تبنت رد المرابطين الاعتبار للشعر بعد ركوده بالأندلس.[1] يختم المؤلف هذا المبحث بكون العصر المرابطي لم يفتقر لأسس النهضة الأدبية والفكرية، إنما حولت الاستغرافيا الموحدية طمس معالم تلك النهضة.

قارن الباحث في الدراسة **الثانية** المعنونة ب "**جوانب من تاريخ المرابطين من خلال النقود**" بين تاريخ المرابطين

---

[1] استدل المؤلف على قوله برواج الشعر على ما قاله ذ.لحسنالطريبق في مقاله بمجلة المناهل العدد 16 ص ص 367-371 سنة 1979م. بينما نعلم أنه رغم الاندحار السياسي بالأندلس خلال عصر الطوائف، عرفت المنطقة ازدهارا ثقافيا مهما تناقض مع الأوضاع السياسية وذلك قبل قدوم المرابطين، بل نجد بعض ملوك الطوائف أنفسهم كانوا شعراء مثل عبد الله بن بلقين(انظر كتابه المسمى التبيان، تحقيق توفيق الطيبي)

المدون في المصادر التقليدية، وبين النتائج التي حصل عليها من خلال ما توفره النقود. معتمدا على ما نشر عن المجموعة المغربية المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس، وما نشره عن المجموعة المحفوظة بمتحف بنك المغرب بالرباط، إضافة إلى دينارين أحدهما ضرب بالأندلس والآخر بنول لمطة.

انطلاقا من تلك الأمثلة، ناقش الباحث ثلاثة قضايا أساسية. تتعلق الأولى **بنقوش العملة المرابطية** التي كتبت بحروف كوفية مبينا الفوارق بينها من حيث عدد الأسطر والكلمات وتغيرها من فترة لأخرى، مقدما أربعة نماذج تتعلق بعهد أبي بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين وعلي بن يوسف وتاشفين بن علي.

لم تكن العملة الفضية تحمل اسم موضع السكة ولا تاريخ ضربها، كما هو الحال مع درهم يوسف بن تاشفين الذي زاد فيه اسم ولي عهده علي الذي عرف عهده ثلاثة تغيرات: أولها ظهور لقب أمير المسلمين، وثانيها لفظ العباسي إلى جانب لفظ الإمام عبد الله أمير المؤمنين، مما أحدث اضطرابا في ترتيب كتابات الدائرة المركزية للوجه الثاني من العملة. ثالث تلك التغيرات هو ظهور لقب ناصر الدين على الدرهم المرابطي ثم سك على الدينار في عهد ابنه تاشفين.

يشير الباحث لوجود لقب ولي الله في بعض دراهم الأمير علي بن يوسف، فأعطى لذلك دلالة صوفية لما عرف به ذلك الأمير من زهد وتقوى، كما أشار لذلك المؤلف في الدراسة الأولى.

بعد جرد تطورات العملة المرابطية ، قدم الباحث خلاصات تمثلت في:

1-وجود صراع بين الأمراء المرابطين حول السلطة بدليل ضرب البعض منهم السكة باسمه مثل الأمير إبراهيم بن أبي بكر.

2-يتساءل الباحث عن بقاء أبي بكر بن عكر الزعيم الأول للمرابطين إلى حين وفاته سنة 480هـ: تاريخ ضرب يوسف العملة باسمه.

3-ظهور لقب أمير المسلمين على الدنانير المرابطية كان سنة 501هـ وهو ما يتنافى مع ما شاع في المصادر التاريخية.

يوضح المؤلف التطور التقني الذي شهده العصر المرابطي بدليل زيادة الكلمات على وجهي العملة دون الزيادة في قطرها. ثم بين أن تطور العملة لا يعكس تطور وقوة الدولة بدليل أن العملة بلغت قمة تطورها في مرحلة ضعفها.

أثار الباحث في النقطة الثانية مسألة جودة العملة، فذكر أوزانها وأقطارها وتعدد دور سكها، وتعرضها أحيانا للغش مثل تزييف الدنانير بدار السكة بغرناطة على عهد علي بن يوسف، فأضاف عبارة وزن قديم على العملة الجديدة لتمييزها عن نظيرتها المغشوشة.

أثبت المؤلف جودة العملة من خلال استمرار تداولها لمدة طويلة بعد سقوط الدولة وتقليدها من طرف القشتاليين(ألفونسو الثامن)، بعد مرور نصف قرن على انهيار الدولة. وأرجع جودة العملة المرابطية لثلاثة عوامل: يرتبط الأول **بالتفوق التقني والفني للصاغة المغاربة**، إذ تمكنوا من تخليص التبر من الشوائب وضبط المقادير المعلومة من الذهب.

يرجع العامل الثاني **لقوة الاقتصاد المرابطي** على اعتبار أن نجاح العملة هو مؤشر لازدهار اقتصاد الدولة.[1] أما العمل الثالث فيرجعه **لتوفر المرابطين على كميات ضخمة من الذهب** منذ عهد الإمارات السابقة لهم: الخوارج والزناتيين.

انتقل الباحث لمقاربة تاريخ المرابطين من خلال المقارنة بين الخبر التاريخي المدون ونقوش النقود، فقدم ثلاثة إشكاليات. تتعلق الأولى بعدم وجود نقود قبل سنة 450هـ موضحا أن ذلك لا ينفي وجودها بدليل ما عرفته صنهاجة الرمال من قوة وتوسع في المعاملات التجارية.

ترتبط الإشكالية الثانية بتساؤلات الباحثين عن المقصود بعبارة الإمام عبد الله أمير المؤمنين الموجودة على

[1] سقط الباحث في تناقض: فقد قال سابقا إن قوة العملة لا تعكس قوة الدولة بدليل بلوغها القمة في مرحلة ضعف الدولة، بينما يصرح هنا بالعكس: أن نجاح العملة هو مؤشر لازدهار الدولة وأن قوتها راجعة لقوة تلك الدولة أيضا.

الوجه الثاني لدينار أبي بكر بن عمر، فوضح الباحث أنه لقب خاص بالخليفة العباسي أبا الله نظرا للعلاقة التي ربطت المرابطين بالعباسيين، إذ أن قيام الدولة المرابطية نفسه جاء لمحاصرة المد الفاطمي وتطويق مذهبهم الشيعي. ولم يستبعد أن يكون الفقهاء المالكيون الذين خططوا لتأسيس هذه الدولة هم سلسلة من الدعاة العباسيون، منبها إلى أن تلك التبعية بقيت اسمية بدليل عدم تغيير أسماء الخلفاء العباسيون على العملة بعد الخليفة عبد الله.

يطرح المؤلف إشكالا آخر يتعلق بالربط بين اعتراف العباسيين بالمرابطين واتخاذ يوسف لقب أمير المسلمين ورفضه التلقب بأمير المؤمنين، موضحا أن العملة المرابطية لا تجيب عن ذلك التساؤل قبل عهد ابنه علي. كما تختلف المصادر حول تاريخ اتخاذه ذلك اللقب ونقشه على الوجه الأول للدنانير، إضافة إلى عدم وجود اسمه على أقدم دينار والذي يرجع لسنة 480هـ يثير إشكالا جديدا وهو ازدواجية الحكم في تلك المرحلة. فبينما تجمع المصادر على استبداده بالسلطة على ابن عمه أبا بكر بتوجيه من زينب النفزاوية، بين المؤلف أن دوافع انتقال أبي بكر للصحراء كانت أعمق وأهم من مجرد الثأر للمتونة من جدالة، مستدلا على أن هذا الأمر لا يتطلب خروجه مع ثلثي الجيش أو نصفه. إنما رغبته في تأمين التجارة الصحراوية والذي تطلب استقرارا في الموطن الأصلي لانطلاق الحركة المرابطية، إضافة لتهديد منطقة الصحراء من قبل مملكة غانة والإباضيين والزناتيين. فالمصلحة العامة إذن، فرضت ذلك التقسيم، أي ضمان سيادة الدولة شمالا وجنوبا منتقدا في الصدد، تتبع المؤرخين لبطولات ابن تاشفين متناسين 15 سنة من جهاد ابن عمه أبا بكر في السودان والقضاء على غانة.

خلص المؤلف إلى تناقض وغموض الروايات التاريخية أحيانا مع ما توفره الوثائق النمية. ومن ثمة كانت ضرورة استعانة المؤرخ بمصادر متنوعة للخبر التاريخي.

انتقل الباحث في الدراسة الثالثة التي تحمل عنوان **الجباية على عهد يوسف بن تاشفين** إلى البحث في أنواعالجبايات، فاستهلها بتعريف مصطلح الجباية لغويا واصفا في الآن نفسه ما كان يرافق جمعها من استعمال العنف والتعسف، مبينا أنها انقسمت لضرائب شرعية وغير شرعية وذلك منذ عهد عبد الله بن ياسين الذي كان يأخذ ثلث أموال القبائل المخالفة لدعوته. أما يوسف بن تاشفين فكان يصرف الأموال للفقهاء من بيت المال، وقد جمع أموال ملوك الطوائف وتحفهم حتى لا يستطيع المرء التمييز بين مال المسلمين وماله، وهو ما تنفيه الروايات التاريخية اللاحقة-المرينية- إذ تنص على اقتصار يوسف على الضرائب الشرعية.

يسرد الكاتب بعد ذلك، أنواع الضرائب فمنها ما يتعلق بالزكاة والأعشار مثل زكاة الفطر والمعادن والركاز وزكاة الزرع والثمار، التي من مميزاتها تطبيق ابن تاشفين أسلوب إقطاع الانتفاع خاصة بالأندلسأو الإنزالات القوية كما سماها عبد الله بن بلقين. ثم زكاة عروض التجارة المفروضة على التجار المسلمين واليهود والمعاهدين. مشيرا لقلة مداخيلها مع دار الحرب خصوصا في المراحل الأولى من عمر الدولة نظرا لاتباعهم فتوى الإمام مالك.

أما الغنائم فشكلت ركيزة مداخيل الدولة ونمت مع توسع أراضيها. وكان يعطى الخمس منها للفقهاء وسمحت للسلطة بتجهيز الجيش والاستمرار في التوسع، مستعملين أحيانا أساليب القتل والعنف وسلب ديار القتلى.[1] يضيف الباحث أدلة أخرى على عدم اقتصار ابن تاشفين على الضرائب الشرعية من خلال فرضه الإقامة والضيافة على ملوك الطوائف والتي كانت تثقل أحيانا كاهلهم، إذ كانت تلزمهم بتوفير الطعام والعلف للدواب والكسوة للخيل والهبات والهدايا لقادة الجيش في الوقت الذي قلت مواردهم. وينفرد الحميري بالقول إنها فرضت أيضا على الرعية.

استنتج الباحث أنها كانت وسيلة لإضعاف ملوك الطوائف وتمهيدا لممارسة سيادته الفعلية بمناطقهم، مستدلا على مصادرته لأموالهم بشكل تعسفي أحيانا،

[1] تتنافى هذه الأساليب مع دفاع المؤلف عنهم بالالتزام بقواعد الإسلام (انظر الإحالة 61 من هذه الدراسة ويمكن الرجوع أيضا لبيان المغرب لابن عذاري 28/4 وإعمال الإعلام:236)

مثلما حدث مع ابن بلقين قبل نفيه لمراكش. يضاف لما سبق فرض الجزية على اليهود وارتبط مقدارها بأمر بن تاشفين والاستشارة مع الفقهاء. أما المعونة، فهي ضريبة غير شرعية اختلفت مواقف الفقهاء منها بين مؤيد لها مثل أبي الوليد الباجي اعتمادا على ما ادعته السلطة المركزية من الحاجة إليها للقيام بالجهاد. ومعارض لها كأبي عبد الله بن الفراء الطي اشترط إيجازها بقسم يوسف بن تاشفين أنه ليس ببيت المال درهم ينفقه على الرعية.[1]

لتسيير وتدبير تلك الأموال، وجدت في العصر المرابطي مؤسسات مالية أبرزها بيت المال الذي أشرف عليه **كاتب الزمام**[2]. أما المشرف، فتولى جمرك المدينة. وبين الكاتب تأثير الأندلس في نظم الدولة المرابطية مثل الديوان المكلف بالأملاك السلطانية.

يختم المؤلف دراسته باستنتاج مفاده أن بن تاشفين التزم بالضرائب الشرعية وبالشعار الذي قامت عليه الدولة وهو: **رد المظالم وقطع المغارم**، معوضا النقص في المجبى الشرعي بالغنائم وما فرضه على ملوك الطوائف من إقامة وضيافة ومصادرة، إل جانب الجزية والمعونة.

يعرض الباحث في الدراسة الرابعة المعنونة ب**المنشآت المائية في العهد المرابطي: تقنية الخطارة بين الأصل المشرقي والأصل الصحراوي**، أهمية المنشآت المائية في العهد المرابطي مبرزا قلة المعلومات عن هذا الموضوع، متخذا تقنية الخطارة نموذجا. فبين اختلاف الروايات حول سبب دفنها بين قائل ببنائها بالفن السحري ضمانا لعدم معرفة العدو بمكان الماء وبالتالي عدم قطعه عن مراكش، وبين توقع المنجمين خوض السلطان معارك كثيرة وبالتالي الخوف من العدو أن يقطع الماء أو يلوثه أو يسممه.

وضح المؤلف أن الخطارة تقنية أندلسية وبين أهميتها وشروط إنشائها واختلاف أسمائها بين المناطق والدول مع تطابق دلالاتها. يرتبط الغرض من وجودها بالرغبة في توسع مساحة الأراضي الزراعية وإنشاء الحدائق السلطانية والضيعاتالمخزنية (أكدال، البحيرة) وقد تفاوت الاهتمام بهما حسب ظروف كل فترة تاريخية من عصور المغرب.

ينتقل الباحث ليبين الاختلاف بين المؤرخين حول أصل هذه التقنية: هل يهودي أم أندلسي أم مشرقي؟ كما اختلف حول تاريخ دخولها للمغرب: أفي العصر الروماني أم في فترة الفتوحات أم خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين. خلص الباحث إلى أن أصل الخطارة مشرقي دخلت عبر مصر للمناطق الصحراوية التي كانت بحاجة للماء وليس الأندلس.

انطلق المؤلف في تحليل ظاهرة **اللثام** في الدراسة الموالية بناء على فتوى ابن رشد مؤكدا من جديد على دور الفقهاء داخل الدولة المرابطية في خلق التوازن بين السلطة العلمية التي يمثلونها، وبين السلطة السياسية.

جاءت فتوى ابن رشد بإجازة اللثام مرتكزة على وجوب الشعوب الالتزام بلباسها وعدم تغييره، فضلا عن كون اللثام يزيد المرابطين هيبة وقوة لإظهار الإسلام ومحاربة العدو بالأندلس كلما كثر الملثمون.[3]

بين الباحث أن استصدار الفتوىراجع لسببين: أولهما يتعلق بالمشكل الأمني الذي طرحه اللثام، إذ استغل بهدف الرقي الاجتماعي أو القيام بأعمال النهب والسرقة، مما أثار تذمر الرعية خاصة بالأندلس. يرجع السبب الثاني لكون الفتوى جاءت ردا على الحرب الدعائية التي شنها ابن تومرت الذي شبه المرابطين بالنساء في تغطية وجوههم مقابل كشف النساء وجوههن كالرجال، وذلك في إطار بحثه عن مبرر شرعي لقتالهم معتمدا على عدم استحسان الرعية والصوفية لثام الرجال لكونه مكره أثناء أهم ركن ديني ألا وهو الصلاة. ثم بين المؤلف أن فتوى

تراجع بن تاشفين عن فرضها بعد موقف ابن الفراء، مما يؤكد أن بيت المال لم يكن فارغا، بينما يرجع المؤلف عدم رد بن تاشفين على ابن الفراء لتسامح المرابطين وما عرفته دولتهم من حرية الرأي، وهو قول لا يصمد أمام ما قدمه المؤلف نفسه من الثروة التي خلفها بن تاشفين بعد وفاته، وقول بعض المؤرخين أيضا بعدم القدرة على التمييز بين ثرونه [1]ومال بيت المسلمين بعد قضائه على ملوك الطوائف.

[2] حول هذا المنصب، يحيل المؤلف على كتاب الإشارة في تدبير الإمارة لأبي بكر بن محمد المرادي الحضرمي. تحقيق سامي النشار، دار الثقافة-البيضاء سنة 1981م ص 83.

[3] نتساءل في هذا الصدد: هل اللثام وكثرة الملثمين أعطت الهيبة للعدو؟ فلماذا تمكن هذا الأخير من هزم المرابطين واسترداد المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى؟

ابن رشد لها دلالات مختلفة. فإضافة لما سبق ذكره، اعتبر اللثام رمزا للانتماء للهوية: فالمرابطون لا يتركونه ولو عند الأكل والشرب، ولا تعرف هوية الشخص إذا أزال لثامه. يخلص المؤلف في نهاية الدراسة إلى تضارب الآراء والمواقف حول الفتوى التي جاءت في نظره، محاباة من ابن رشد لسلطان زمانه ولحماة الإسلام بالأندلس.

أثار الباحث في دراسته السادسة والأخيرة مسألة **التغذية عند الملثمين**، مشيرا لقلة مؤلفات العصر الوسيط عن هذا الموضوع مبينا اعتماده على ما ذكره الرحالون والمؤرخون وكتب الطبخ والطب القديمة. عدد الكاتب أسماء أكلات القبائل الصحراوية التي اعتمد في تحضيرها أساسا على السمن واللبن والتمر، موضحا استمرارها واستمرار أسمائها لدى سكان الصحراء. كما ربط الباحث بين قلة غذاء المرابطين وصحة أبدانهم وسلامتهم من الأمراض وطول أعمارهم بناء على ما قاله ابن خلدون\ان مفسرا ذلك بالتوافق بين طعامهم من لحوم الجمال والألبان والحنطة.[1] والتمر والقديد معددا أسماءه المختلفة مثل تمكسود، قديد لحوم السلاحف، التشيطار....

يختم الباحث هذه الدراسة بذكر بعض وصفات الطبخ التي وحدت المطبخ الصحراوي والتي لازالت حاضرة في المطبخ المغربي لحد الآن مثل آسلو المعروف بالسفوف وزميتة واللمتونية التي تعتمد على أي نوع من الطيوروانتشرت كثيرا في المغرب والأندلس خلال العهد المرابطي.

يخلص المؤلف للقول بأن اقتصار الملثمين على اللبن والتمر والدجاج يحتاج للمراجعة اعتبارا لمهارة النساء المرابطيات في تحضير العديد من الأكلات وتعليمهن ذلك لخادمتهن السودانيات لدرجة ارتفاع أسعار من يتقن ذلك منهن في سوق النخاسة.

ب- ملاحظات حول المؤلف:

بعد قراءتي لهذا الكتاب، سجلت مجموعة من الملاحظات والاستنتاجات:

من الناحية التوثيقية: بذل المؤلف مجهودات هامة في دراسته للتاريخ المرابطي، والدليل اعتماده على كم ضخم ومتنوع من المصادر أحيانا الدفينة- والمراجع سواء الجغرافية أو التاريخية أو الطبية، إذ أن مجموع المؤلفات المعتمدة 200، مما يظهر المجهود الذي بذله المؤلف في تنقيته واستخراجه للمعلومات خاصة من المصادر الدفينة والنمية. طرح من خلالها إشكالات جديدة أثناء مراجعته لبعض المسلمات الخاصة بتاريخ المرابطين من خلال وقوفه على نماذج من نقود تلك الدولة.

لم يخضع المؤلف للأفكار التاريخية الموروثة، بل اعتمد على التمحيص والنقد، كما تميز أسلوبه بالسهولة والوضوح. إذ قدم ملخصا عاما لمحتويات الكتاب وختم كل دراسة بخلاصة مركزة. كما نلاحظ حسن استغلاله وتوظيفه للمعلومات في كل دراسة مع القدرة على تحليلها ومناقشتها اعتمادا على مصادر متنوعة وغنية مدعما كل ذلك بالعديد من الاستشهادات، البعض منها جديدة مثل المسكوكات التي تكون أصدق وأعم من المصادر التقليدية. فبها وثق العديد من الأحداث والتواريخ التي مرت بها الدولة المرابطية كما اكتشف من خلالها الدور الذي لعبه المرابطون من الناحية التجارية في الحوض الغربي للبحر المتوسط. كما نكتشف من خلال الكتاب انفتاح المؤلف على علوم أخرى مثل علم النقود أو ما يعرف بعلم النميات.

إلى جانب هذه المميزات، سجلت مجموعة من المآخذ تتمثل في:

العنوان: فالمتعارف عليه لدى الباحثين أن العنوان يعكس مضمون الكتاب. وهذا يغيب لدى المؤلف إذ تناول جوانب فقط مما تحمله دلالة العنوان. فعند حديثه عن الدولة، اقتصر على السلطة وعلاقتها بالفقهاء والمتصوفة...أما في الاقتصاد فتطرق للجبايات والعملات، بينما مدلول الاقتصاد أوسع من ذلك إذ يشمل كل الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها الإنسان. وعند الحديث عن المجتمع، تناول اللثام والتغذية فقط. فحريا إذن أن

[1] وصف الكاتب طرق صنع هذا الخبز وأنواع أخرى (ص ص 139-140)، وقدم شروحا لبعض المواد التي تصنع منها مثل النجيل(اص160)

يكون العنوان الأنسب في نظري: جوانب من التاريخ المرابطي.

لم يتعرض الباحث في الدراسة الثانية المتعلقة بالجبايات لردود فعل العامة تجاه ما فرضه المرابطون أواخر عهدهم والتي كانت أحد أسباب إزالة الشرعية لحكمهم: رفع المظالم ووقف المغارم. إذ نعلم أن عامة قرطبة مثلا، رجمت القاضي ابن المناصف عند إجباره لها بدفع تعتيب جديد بعد اختلاس والي المدينة لها.

عند حديثه عن أهداف بناء الخطارة، ربط أحدها بقلة الماء الذي عرفه المغرب دون أن يتطرق للكوارث الطبيعية التي عرفها المغرب خلال العهد المرابطي: القحط والمجاعات والجفاف... فركز فقط على توظيفها لسقي الأراضي السلطانية بينما تفيض الحوليات بالحديث عن صلوات الاستسقاء بسبب الجفاف.

اعتمد الباحث على عدة مصادر مخطوطة أصبح البعض منها مطبوعا، فكان حريا به أن يشير لذلك مثل:

- جامع مسائل الأحكام مما نزل بالمفتين والحكام المعروف بنوازل البرزلي. تحقيق محمد الحبيب هيلة. نشر دار الغرب الإسلامي الطبعة الأولى سنة 2002م.
- كتاب الأغذية لأبي مروان عبد الملك بن زهر، تحقيق اكسبيراغارثيا. منشورات المجلس الأعلى للأبحاث العلمية بمدريد. طبعة 1992م

كما اعتمد المؤلف على كتب واصفا أصحابها بالمجهول، بينما عرفوا الآن مثل "الحلل الموشية" لابن سماك العامري والاستبصار لابن عبد ربه الحفيد. ونلمس دفاع المؤلف الشديد والواضح عن علي بن يوسف لدرجة وصفه بالورع الزاهد يقوم الليل ويصوم النهار. بينما يجب أن يكون المؤرخ موضوعيا ويلتزم الحياد بل وينقل الحقائق التاريخية للقارئ. فهذا الأمير كان مثل غيره من الأمراء المرابطين، متسامح مع من ابتعد عن شؤون السياسة ولم يهدد أمن الدولة، ويضرب على من شكل خطرا عليه وعلى سلطته مثل نكبته بابن برجان لدرجة أمره بطرحه على المزبلة بعد وفاته، ولم يسمح لأحد بالصلاة عليه. وتلك كانت السياسة العامة للسلطة المركزية خلال العصر الوسيط. عرف عهده أيضا- وعهد أبيه- ثورة قرطبة وثورة المريدين بسبب فرض ضرائب غير شرعية، وما رافقها من حيف وظلم.

إن القول بكون تسامحه مكن ابن تومرت من تحقيق أهدافه أمر لا يصمد أمام المواجهات العسكرية التي وقعت بين الطرفين مثلما حدث سنة 521هـ وبنى المراصد بمراكش لحمايتها من هجوماته.

استعمل الكاتب لفظ السلطان وذلك عند حديثه عن المرابطين، غير أننا نعلم أنهم عرفوا بالأمراء. وهو اللقب المنقوش على سكتهم، كما عرف كل حكام المغرب بلقب خاص بهم. فالموحدون خلفاء والمرينيون والعلويون سلاطين...

برر المؤلف توسع نفوذ الفقهاء داخل الدولة المرابطية بكونها قاعدة عامة تنظم العلاقة بين الفقيه والأمير ببلاد الأندلس، إلا أن ذلك لا يعني أن تكون الكلمة الأولى للفقيه كما كان حال عبد الله بن ياسين: يتحكم في توزيع الضرائب وتعيين الأمراء...مما يدل على قوة نفوذهم التي تجاوزت أحيانا نفوذ الأمير نفسه حتى عهد يوسف بن تاشفين الذي جمع بين السلطتين الروحية والدنيوية.

عند الاطلاع على ببليوغرافيا الكتاب، نكتشف عدم رجوع المؤلف للكثير من الدراسات الحديثة والتي تناولت نفس قضايا كتابه، فيوحي أنه كان سباقا لتناولها. مثالا على ذلك، تناول ذ عمر بنميرة لقضايا الماء مناديا باستغلال كتب النوازل، إلا أن مؤلفنا لم يرجع لمقالاته.

رد الكاتب سبب إحراق كتب الإحياء إلى الدعاية الموحدية لإزالة أهلية الأمير المرابطي لإدارة شؤون بلاده، ومن ثمة شرعية الإمامة المهدوية. كما برر الإحراق بدعوة الكتاب للزهد والانسياق وراء الغيبوبة الصوفية، بينما كانت البلاد بحاجة للجهاد. أظن أنه لم يتعمق في دراسة الأسباب الحقيقية التي تقف وراء الإحراق، أو تعمد إظهار شرعية ذلك الإجراء نظرا لما لمسناه من دفاعه القوي عن علي بن يوسف. فإذا كانت المصادر تذكر الحادثة بتعميم دون تبرير مثل: بيان المغربوالحلل الموشية، فإن العديد من الدارسين المحدثين تناولوا المسألة

بتفصيل وتعمق أغفل ذكره الدارس. في هذا الصدد أطرح إشكالين:

- أولهما: إذا كان الإحياء أحرق بفتوى الفقهاء، فلماذا لم يفتوا بذلك في عهد أبيه "يوسف بن تاشفين"، بل حرص هذا الأخير على استفتاء الإمام الغزالي بشرعية جوازه للأندلس، كما استعجل هذا الأخير الخليفة العباسي لاستصدار تقليد لابن تاشفين؟.

- ثانيهما: إذا كانت الحادثة مظهرا لضعف فقهاء الدولة أو بداية عجزهم عن توجيه الرأي العام، فلماذا قاموا بالثورة المضادة بقيادة "بن حمدين" سنة 539هـ وذلك لقطع الطريق أمام تصاعد التيار الصوفي وطابع العنف الذي ميز ثورة المريدين؟ فهذا الأمر يبين أن السياسة العامة للدولة انبنت في كثير من الأحيان، على فتاويهم: قضية الإحراق، تغريب النصارى، نبذ علم الكلام...

أرى أن إرجاع الباحث حادثة الإحراق لمنحاه التصوفي الزهدي أوقعه في تناقض مع ما وصف به "علي بن يوسف" من زهد وورع وذلك في سياق دفاعه عنه. فكيف يكون بهذه الصفات وفي نفس الوقت يأمر بالإحراق بسبب الزهد الذي هو من صفاته؟. كما أن الكتاب نفسه تضمن طرقا تربوية أضيفت لها تدريبات على الحركات الرياضية والمشي، تخالف قول الكاتب بتضمن الكتاب للممارسات الزهدية فقط.

إن الفقهاء الذين أفتوا بالإحراق جمعوا أموالا طائلة عجزوا أحيانا، عن إحصائها مثل "ابن الأضحى" و"أبو بكر بن خلف الأنصاري". ومن ثمة نفهم موقفهم من "الإحياء" الذي يصرح بعدم شرعية أموالهم.

إن ما يزيد من تأكيد ما قلته سالفا، هو تطور أطماع أولئك الفقهاء المالية، إلى الرغبة في الاستقلال عن الحكم المرابطي كما هو حال القاضي "بن حمدين" الذي أفتى بالإحراق، حي ثار بقرطبة ولقب نفسه بأمير المسلمين وناصر الدين وسك عملة باسمه.

ربط الباحث بين حادثة الإحراق وثورة المريدين، وهو موقف الكثير من الدارسين. إلا أنه يجب الكشف عن الجوانب الأخرى لهذه الثورة، وهو طابع العنف الذي رافقها والطموح السياسي الذي حمله قائدها "ابن قسي". ونشير هنا إلى ظهور كتاب "خلع النعلين" و"اقتباس الأنوار من موضع القدمين". تحقيق "ديفيد رايمون" الأمر الذي سيكشف عن جوانب تلك الثورة.

عند حديثه عن تشبت قبائل صنهاجة بالمذهب المالكي، لم يتحدث المؤلف عن المذاهب الأخرى التي كانت موجودة بالمغرب في نفس الفترة مثل المذهب الصفري الخارجي لبورغواطة والقبائل البجلية ذات العلاقة بالتشيع في أغمات ونواحيها، وهو الذي صرح به "يحيى بن إبراهيم الجدالي" لأبي عمران الفاسي" عند لقائهما بالقيروان بعد عودته من الحج.

أثار الباحث مسألة ازدواجية السلطة بين "يوسف بن تاشفين" وأبي بكر بن عمر"، فاستبعد أن يكون الثاني تنازل للأول عن الحكم معتمدا على تاريخ سك "بن تاشفين" لعملته سنة 480هـ أي سنة وفاة "أبا بكر". إلا أنه لا يمكن التسليم بسهولة ذلك خاصة أن المصادر تثبت عكس ما ذهب إليه المؤلف. فأصحاب "البيان المغرب" (الجزء الرابع ص ص23-24) و"روض القرطاس" (ص ص 135-138) و"الحلل الموشية"(ص 25 وما بعدها)، يؤكدون استبداد "ابن تاشفين" بالحكم.

في نفس المنحى يؤكد د. "بوتشيش" في مقاله المعنون "استبداد الدولة في العصر المرابطي" أن "ابن تاشفين" استولى على السلطة بطريقة ذكية. أما ذ. إبراهيم حركات، فوصف بيعة "ابن تاشفين" بكونها تمت بشكل أقرب للدكتاتورية منه إلى الديمقراطية. ولعل ما يحسم هذا الأمر في رأيي،هو جواب "إبراهيم بن أبي بكر" لإبراهيم المزدلي" المرسل من قبل "يوسف بن تاشفين" لمقابلته بقوله: "ما الذي تريده يا إبراهيم"؟ فأجابه: "أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف".

وصف الباحث المؤرخ "عبد الواحد المراكشي" بالمؤرخ الرسمي للموحدين والمتحيز لهم، وهو نفس موقف الكثير من الباحثين المحدثين مثل "عصمت دندش". إلا أنه يجب توضيح المسألة وهو أنه صنف كتابه بالمشرق بعيدا عن أي ضغط سياسي، بل نجد ضمن فصول فصول كتابه الإشادة بيوسف بن تاشفين. فإذا كان قد انتقد إهماله شؤون رعيته غاية الإهمال، فهو نفس الأمر الذي

انتقده "الطرطوشي" وزاد عليها اتخاذه الحجابة التي كانت سدا بينه وبين الرعية، الأمر الذي تؤكده رسالته لأحد قضاته: "إن هؤلاء الرافعين لو وجدوا في بلادهم عند متقلدي الأمور ردا لظلامتهم...لما تجشموا بعد المشقة ولا تحملوا نحونا عظيم المشقة..."[1]

أشار الباحث لوجود علاقة بين الصحة والتغذية لدى المرابطين. سبقه لذلك المؤرخ "يوسف أشباخ" في كتابه تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين إذ قال: "وقد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ولا يشرب سوى لبن الإبل...وإلى هذا عاش مائة عام".[2]

خاتمة:

راجع المؤلف من خلال مقالاته مجموعة من المسلمات المتعلقة بالتاريخ المرابطي مثيرا إشكالات جديدة تتعلق بلباس الملثمين ونوع غذائهم وصلة ذلك بطول أعمارهم وسلامة أبدانهم، فضلا عن تطرقه لتقنية الخطارة التي عوضت قلة الماء بأرضيهم القاحلة، وما أثاره اللثام من إشكاليات أمنية وفقهية. وأخيرا مقارنة ما تضمنته المصادر التاريخية وما استخلصه من معلومات انطلاقا من النقود.

إذا كان من الصعب تحديد الأطروحة المركزية للكتاب، لكونه عبارة عن مجموعة من المقالات، لكن يمكن استخلاص أن الكاتب قام بمراجعة مجموعة من القضايا المدونة في المصادر التقليدية منها ازدواجية السلطة وقضية اللثام...فهي بحق دراسة رائدة تناولت مواضيع جديدة خاصة تلك المعتمدة على المسكوكات. ويمكنني القول أن مؤلفنا تجاوز بذلك مقولة المؤرخ "ستيوارت بيجوت" أن **"التاريخ يصنع من وثائق".**

---

[1] وردت الرسالة في كتاب "وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين" لمحمود علي مكي.

[2] أشباخ، يوسف: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين. 71/1.

مواقع أركيولوجية مغربية

البناء الموري بالموقع الأثري تمودة: دراسة وصفية لبعض التقنيات

اعداد ذ.منير حداد
باحث في التراث

ـ مقدمة :

في ظل شح المعطيات والدراسات المنجزة عن تقنيات البناء الموري بالمغرب عامة، و بموقع تمودة الأثري خاصة فإن دراسة هذا الموضوع تظل ممكنة من خلال الدراسة والمعاينة الميدانية والمباشرة. وما دمنا نتحدث عن موقع تمودة، فالدراسة الممكنة هي المتعلقة ببقايا الحي الموري الجنوبي والغربي والشرقي، على اعتبار أن جزء كبير من المدينة المورية بتمودة يقبع تحت الحصن الروماني، وهي المرجحة أن تكون الأقدم على اعتبار التمدين الأول الذي عرفته تمودة يؤرخ بالقرن الثالث قبل الميلاد. الحفريات التي ستقام بهذه الرقعة هي الكفيلة في الحسم في ذلك. كما أن نفس المشكل مطرو ح بالنسبة لتمودة القرن الثاني قبل الميلاد التي يجهل لها أيضا المعلومات المتعلقة بتقنيات بنائها، بيد أن الدراسة الوحيدة التي يمكن تناولها هي المتعلقة بالأحياء المذكورة سالفا والمؤرخة بالقرن الأول قبل الميلاد. لكن تبقى هذه الدراسة غير تامة بسبب غياب معطيات ودراسات حقيقية وأبحاث أثرية وتصاميم مضبوطة .

لذلك سيتم الاعتماد على بعض الدراسات المنجزة في هذا الصدد، إضافة إلى المعاينة الميدانية مستعينين بمحافظة الموقع الأثري بتمودة.

2ـ الإطار العام الجغرافي للموقع الأثري تمودة:

تقع تمودة على الضفة الشرقية لنهر مرتيل على بعد 5 كلم من مدينة تطوان بجانب مفترق الطرق المفضي لمدينتي طنجة وشفشاون. **(الصورة1)**

3ـ وصف الموقع:

من خلال كيفية تقسيم وتهيئة الميدان والممرات، يظهر أن الأمر يتعلق بتعمير مركز في شكل تجمعات، حيث يظهر من خلال التصميم العام أن الواجهات والممرات العمومية مهيئة بانتظام، الشيء الذي يوحي بالنمط المتبع في بناء المدن الإغريقية والرومانية القاضي بتعامد هذه الممرات وتقاطعها **1**. ضمن هذه الأخيرة نسجل حضور الممرات الرئيسية الواسعة سواء الأفقية ذات التوجيه الشرقي الغربي أو العمودية ذات التوجيه الشمالي الجنوبي. **(الصورة 2)**.

كما أن الأحياء مكونة من "جزيرات" أو محلات ذات الشكل المربع والمحاذية لبعضها البعض، و في تواز فيما بينها. **(الصورة3)**.

تبين لنا القياسات المنجزة لهذه الجزيرات والممرات على أنه كان هناك اتجاه في إطار التعمير، نحو التوحيد والحفاظ على نفس الأبعاد في كل حي، وهذا ما يدل على وجود قاعدة للبناء كان البناءون يحاولون اتباعها واحترامها. فجزيرات الحي الغربي والشرقي يصل عرضها إلى 10 أمتار، بينما يتعدى ذلك بقليل في جزيرات الحي الجنوبي التي يتراوح عرضها بين 14 و 15 متر مما يدل على وجود شيء من الاختلاف. و بالنسبة للممرات فهي مستقيمة ومتوازية مع بعضها البعض و ذات عرض منتظم باستثناء أحد ممرات الحي الشرقي الذي يتسع في اتجاه الغرب والذي يجهل سبب ذلك.؟ **(الصورة 4)**.

تحتوي التجمعات العمرانية المورية بتمودة على فضاءات مفتوحة كما هو الشأن بالنسبة للساحة الرباعية الزوايا للحي الجنوبي والتي من المحتمل انطلاقا من أبعادها أن تكون سوقا أو مكانا للتجمعات المناسباتية المختلفة. **(الصورة 5)**.

كما سبقت الإشارة فإن التصميم الموري المعتمد في تهيئة وتعمير تمودة يحتمل أنه مستلهم من نظام التعمير الإغريقي الذي كان سائدا منذ القرن الخامس قبل الميلاد، والذي اعتمده البونيقيون كما يتضح من خلال الأحياء القرطاجية والذي يتشابه بكثير مع هذا النوع من الإنشاءات العمرانية الإغريقية ذات الشكل التربيعي الشبيه برقعة الشطرنج.

فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي لهذه المحلات أو الجزيرات، التي تكون هذا المجمع الموري بتمودة، فإنها تأخذ شكلين مهمين، فالشكل الأول يتعلق بجزيرات تنقسم إلى سلسلة من القطع المحاذية والمصطفة مع بعضها البعض، والمنفتحة على الشارع والتي تكون مرتبطة إما لوحدها أو في شكل مجموعتين أو ثلاثة بقطعة داخلية و غالبا بدون أي اتصال ملحوظ بينها. بينما يمثل الشكل الثاني جزيرات مقسمة في اتجاه طولي لفضاءين حيث تشغلهما سلسلة من القطع تتوفر كل واحدة على باب، وهي خاصية فريدة عن باقي تقنيات البناء التي نجدها في الهندسة الخاصة بالهلنستية أو القرطاجية. و التي وجب البحث في أصولها **2**.

ومن جانب آخر نود الإشارة إلى المشكل المطروح حول فك لغز العلاقة بين الإطار الهندسي للوحدات المبنية المورية في تمودة ومختلف الأنشطة السوسيو-اقتصادية التي عرفتها. فبالرغم من العثور على لقى أثرية تبين بعض الأنشطة الإقتصادية التي عرفها الموقع كالصيد البحري، والصناعة المعدنية والنشاط الفلاحي **3**، فإنه لم يكن ممكنا التمييزعلى مستوى الحيين الموريين المدروسين بين الفضاءات السكنية و الفضاءات الصناعية والتجارية. المعاينة الميدانية وفي غياب معطيات وحفريات متقدمة لا تقدم أي فكرة عن ذلك نظرا لكون أن تلك المحلات أو الجزيرات لها نفس الشكل.

4ـ مواد وأدوات البناء:

فيما يخص مواد وأدوات وخصائص البناء الموري بتمودة، فلا زالت تظل بعيدة عن أي دراسة معمقة ومتخصصة، إلا أنه ومن خلال المعاينة الميدانية للحيين الموريين الشرقي والجنوبي، يمكن أن نستنبط بعض المعلومات التي يمكن أن تقدم لنا شيئا في الموضوع. وبالتالي نأخذ فكرة عن الهندسة المورية بالقرن الأول قبل الميلاد.

الأدوات البنائية المستعملة في تمودة من أجل التعمير السكني هي نوعان: الحجر والتربة، والخشب الذي استعمل قليلا، نظرا لتلفه السريع حيث لا يوجد له أثر كبير بالموقع. فبالنسبة للأدوات الحجرية المستعملة، فقد تم معاينة ثلاثة أنواع تنحدر من مقالع محلية: الكلس المجوف ذي المظهر الإسفنجي، **(الصورة 6)**، الذي كان يستعمل في الهندسة الزخرفية (الأعمدة، التيجان...) والكلس الرمادي، المتميز بالصلابة والمقاومة، والذي كان يستخدم في بناء العتبات أو المداخل، وكذا الكتل والقطع المستعملة في بناء جدارات الواجهات.(**الصورة7)**.

وأخيرا حجر الدبش الذي كان يستخدم عادة على شكل أحجارمربعة للبناء. (**الصورة 8**).

مكنت المعاينة الميدانية لتقنية بناء الجدارات من اكتشاف أربع تقنيات في وضع وتجميع الأحجار **4**:

الأولى تعتمد على أحجار مستطيلة غير منتظمة كانت حكرا على الجدارات الحدودية وجدارات الواجهات، وهي مستعملة كثيرا بالمدن ما قبل الرومانية كوليلي و سلا ولكسوس، غير أن الاستثناء الذي تعرفه تمودة المورية هو أن هذه التقنية استخدمت فقط في الواجهات المرئية للجدارات، حيث أن التقنيات المستخدمة في الواجهات الداخلية اعتمدت على قطع صغيرة، وهو ما يرجح فرضية أن هذه التقنية كانت تستخدم لأغراض زخرفية وجمالية. هذا وتود الإشارة إلى أن ضمن هذا البناء، تلفت لنا الانتباه بعض القطع أو الكتل ذات الشكل المتوازي المستطيلات والتي يبلغ طولها مترين تقريبا وهو أمر غريب ونادر في تقنيات البناء المعروفة، ويدل في نفس الوقت على درجة كبيرة من المهارة والقوة في التركيب. (**الصورة 9**).

أما الجدارات الداخلية فقد استعمل في بنائها ثلاث تقنيات مختلفة عن الأولى استخدم فيها قطع صغيرة : 1- قطع ذات أحجار رباعية الزوايا، 2- قطع بشظايا ضخمة، 3- والقطع المتراصة. وهذه التقنيات كانت مستخدمة بتمودة في بناء الجدارات الداخلية، وهي نفس التقنيات المستعملة في كل من وليلي وسلا و لكسوس و موكادور كما أشار لذلك الباحث جون بوب **5**. (**الصورة 10**)

فيما يخص استعمال اللبن في بناء جدارات تمودة المورية، فإنه أمر مفترض من قبل الباحث تاراديل **6**، فحتى المعاينة الميدانية لا تدع مجالا للشك في استخدام هذه الأداة، حيث تسمح معاينة الحي الجنوبي من اكتشاف بعض قطع اللبن التي تعلو بعض الأساسات المبنية بالحجر، مما يرجح فرضية استخدام اللبن خاصة في بناء الأجزاء العلوية من الجدارات، وأن هذه الجدارات الظاهرة في الميدان ما هي سوى أساسات تضمن تماسك واستقرار هذه البنيات العلوية على مستوى سطح الأرض.

و فيما يخص المساحات الداخلية للبنايات، فإنه تجهل أية معلومات حولها، حيث أن معظم المباني لا تظهر أي أثر لأرضيتها. ولهذا فهي تحتاج حفريات للإجابة على ذلك.

الأبواب الخاصة بالمحلات والمباني، تثير الانتباه في تمودة المورية، حيث أنها تسمح بتسجيل الملاحظات التالية:

وضعية المنافذ بالنسبة لمحور المحل أو الجزيرة و عرضها: حيث أنها مختلفة على مستوى الحيين المدروسين، فالحي الشرقي تتموضع الباب بصفة عامة عند زاوية المحل، ولا تتعدى عادة 1م عرضا، (**الصورة 11**)، أما في الحي الجنوبي فالأبواب جد عريضة تصل إلى 1,70م كمعدل متوسط، وتتخذ وضعا وسطا بالنسبة لمحور المحل (**الصورة 12**) هذا يجعلنا نطرح التساؤل الذي يفترض بنا أن نضعه حول ما مدى ارتباط ذلك بوظيفة و دور الحيين؟.

إن معظم هذه الأبواب تحتفظ بعتباتها الأرضية التي هي عبارة عن منافذ، هذه الأخيرة هي عبارة عن أحجار من وحدة متراصة واحدة مصقولة من كلس رمادي، وهو المختار في هذا البناء نظرا لصلابته ومقاومته الشديدة، وهو يبين تقريبا نفس الهندسة التي استعملت في باقي الواجهات، حيث أنها حملت حزة مستطيلة أو دائرية على جانبيها والتي كانت معدة لتثبيت الإطارات الخشبية الخاصة بالأبواب، كما حملت أحيانا حزة في وسطها من أجل الإقفال العمودي. فنظام إقفال الأبواب الذي يظهر لنا في تمودة المورية هو نظام بسيط ويعتمد على الإقفال العمودي. فالأبواب ذات إقفال واحد أو إقفالين، وتفتح كلها نحو الداخل، وتوضح الصورة هذه المبادئ المتبعة في تشكيل هذه المنافذ 7. (**الصورة 13**).

بالإضافة لهذه المظاهر الهندسية، يمكن الحديث عن عناصرهندسية معمارية أخرى مهمة، وهي الأعمدة والإفريزات، والتيجان الإيونية والأحجار المصقولة من الكلس المجوف المستعملة في الحي الجنوبي والتي كانت بكثرة، مما لايدع مجالا للشك في أنها كانت لمبنى عمومي مهم والذي يجهل موضعه بالضبط **8**، وتبقى الحفريات هي الكفيلة للإجابة على هذه الإشكاليات والفرضيات.

و في الختام يجدر بنا أيضا الإشارة إلى بعض الآثار المتبقية من المباني الشمالية المطلة على واد مارتيل والتي هي امتداد للعمران الموري، مما يجعلنا نطرح التساؤل أيضا عن علاقتها مع الموقع المفترض للميناء الخاص بالمدينة ووظيفتها العمرانية؟.

5ـ خاتمة:

تعرف الحقبة المورية بالمغرب، غموضا وفراغات وخصاص من حيث المادة المصدرية والمعطيات التاريخية بصفة عامة، وهذا ما انعكس بالضرورة على الجوانب المتعلقة بصفة خاصة على تفاصيل هذه الفترة بما فيها تقنيات البناء التي ميزتها، مما يجعل البحث في هذا الموضوع محل صعوبة، و يحيل على ضرورة الاستعانة بالأبحاث الأثرية وتكثيفها و التي تبقى الكفيلة للإجابة عن الإشكاليات المتعلقة بمواضيع مثل موضوع العمارة المورية وتقنيات بنائها.

الهوامش:

1- أنظر:

-Gros(Pierre), L'architecture Romaine du début du 3éme siècle av.jc à la fin du Haut-Empire, Paris, 2éme éd, Franc Quercy, 2002.

2- أنظر:

- Elkhayari(A), Tamuda, Recherches archéologiques et historiques, Thèse de Doctorat, Dactylographiée, Paris I Sorbonne, 1996.

3- أنظر:

-Tarradell, (M), Marruecos punico, Tetouan, 1960.

4- أنظر:

Elkhayari(A), Ibid.

أنظر: 5-

Boube,(J), Document d'architecture mauretanienne au Maroc, B.A.M VII, 1967.

أنظر: 6-

Tarradell, (M), Marruecos punico, Tetouan, 1960.

7- أنظر:

Ibidem.

أنظر: 8-

Ibidem

البيبلوغرافيا:

المراجع بالعربية:

- غطيس مصطفى، تمودة، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، تطوان، 1991.
- العيوض سيدي محمد، مدن المغرب القديم، من خلال إشارات النصوص ونتائج البحث الأثري، مطبعة الرباط نيت المغرب، الرباط، 2011.
- وثائق إدارة محافظة تمودة.

المراجع الأجنبية:

- Boube, (J), Document d'architecture mauretanienne au Maroc, B.A.M VII, 1967.

-Quintero, (P). Giménez, (Y), (C). (1946): Excavaciones en Tamuda. Memoria resumen de las practicadas en 1945, Memorias de la Junta Superior de Monumentos Historicos y Artisticos 9, Tetuan.
-Tarradell, (M). (1956): "Las excavaciones de Tamuda de 1949 à 1955", Tamuda 4, Tetuan..
-Tarradell, (M). Nota acerca de la primera época de los fenicios en Marruecos, dans Tamuda, 6, 1958.
-Tarradell, (M), Marruecos punico, Tetouan, 1960.
Site internet: Google maps.

ملاحق الصور:

الصورة1: موقع تمودة الأثري

الصورة 2: منظر لأحد الممرات الرئيسية بتمودة المورية. صورة ملتقطة من عين المكان.

الصورة 3: تصميم عام لموقع تمودة الأثري. المصدر: إدارة محافظة تمودة

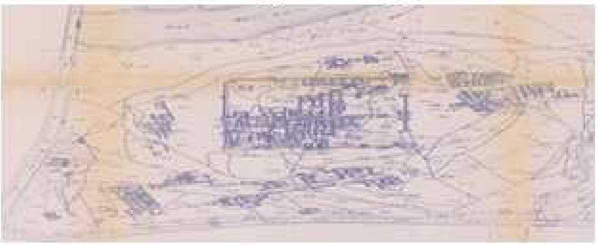

الصورة 4: يشير السهم لشارع الحي الشرقي الذي يتسع في اتجاه الغرب، المصدر: إدارة محافظة تمودة.

الصورة 5: الساحة الرباعية الزوايا للحي الجنوبي

الصورة 6: الكلس المجوف ذو المظهر الاسفنجي

الصورة 7: الكلس الرمادي. ملتقطة من عين المكان

الصورة 10: صورة مأخوذة من عين المكان

الصورة 8: حجر الدبش

صورة 11: صورة ملتقطة من عين المكان

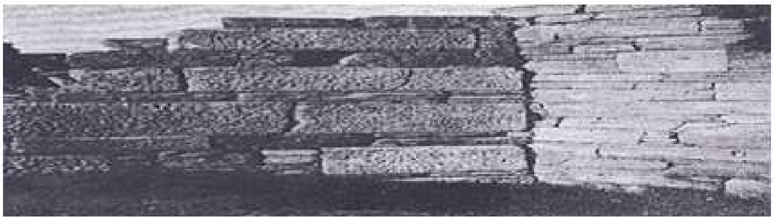

الصورة9: تقنية البناء الموري. المصدر:

Boube, (J), Document d'architecture mauretanienne au Maroc, B.A.M

صورة12: صورة ملتقطة من عين المكان

التراث المعماري بإقليم الناظور

اعداد:
ذة.جميلة حكيم
باحثة في التراث

1. قصبة سلوان

كانت عناصر التهديد الخارجي وعناصر التهديد الداخلي سببا في سن المولى اسماعيل سياسة بناء القلاع، إذ كان كلما تغلب على جهة من الجهات، بنى بها قلعة وأسكن فيها عددا من العبيد بنسائهم وأطفالهم. ففي سنة 1096 هـ و في خضم طريقه نحو ملوية عبر صفرو قام ببناء تسع قلاع واضعا بكل قلعة منها أربعمائة من العبيد بخيلهم ونسائهم[1]. فبلغ عدد القلاع التي بناها ست وسبعين قلعة. وقصبة سلوان من بين القصبات التي أسسها المولى اسماعيل سنة 1679 م على الضفة اليسرى من واد سلوان بخُمس بني بويفرور، وهي تدخل ضمن القلاع الثلاث التي أمر ببنائها "... وأمر أن تبنى قلعة ثالثة بطرف بلادهم على ملوية، ويجعل بها خمسمائة فارس"[2] وذلك في إطار ضبطه لقبائل بني يزناسن التي كانت منحرفة عن الدولة ومنحازة للأتراك. "... وفي عام واحد وتسعين وألف، خرج السلطان في العساكر لبني يزناسن حين تمادوا على العصيان، فدخل جبلهم وهتك حرمتهم ونسف نعمتهم..."[3]. كما كان الشعور الوطني المناهض للوجود الأجنبي بمليلية من دواعي تأسيس القصبة.

شكل القصبة شبه مربع، تبرز منه مجموعة من الأبراج المربعة الموزعة على أبعاد السور الأربعة، مساحتها نحو 17.709 مترا مربعا. تم بها إحداث ثلاثة أبواب بعدما كان لها في الأصل باب واحد يتقدمه جدار وقائي. الباب الرئيسي شرقي الوجهة، ثم الغربي فالجنوبي. كما تم بداخلها بناء عدة مساكن خصصت لإقامة قواد المحلة المخزنية، وكذا للوافدين من قواد الريف الشرقي، لاسيما في الجناح الجنوبي بينما ترك معظم المساحة الداخلية فارغا. ويوجد بالسور الشمالي أثر حفير طولي مجزأ إلى قسمين، من المحتمل أن يكون واحدا منهما كان مخصصا لخزن الزروع، أما الآخر فقد تحول إلى معتقل أرضي. وتحدثت الوثائق عن وجود مسجد بداخل محيط القصبة وسط الساحة الداخلية[4].

---

[1]- **ثريا برادة**، الجيش المغربي وتطوه في القرن التاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم 37، 1997، ص 85

[2]- **أبو القاسم الزياني**، البستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف، تحقيق: رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص 163

[3]- **نفسه**، ص 164

[4]- **حسن الفكيكي**، أطلس الريف الشرقي، مباحث في الجغرافية التاريخية، الطبعة الأولى 2014، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ص 331

كانت القصبة مستقرا لرجال عبيد البخاري منذ 1694م، وقد تزامن تواجدهم مع حصار المولى اسماعيل لمدينة سبتة، وهو الظرف الذي استغله الإسبان لاحتلال التلال الشمالية والقيام ببناء برج في أحد مواقع المغاربة. ونظرا لخطورة الموقف استنجد القائد عمر بن محمد بالمولى اسماعيل الذي أرسل ابنه المولى محمد مع عدد من جيش البخاري.

نظم الهجوم المغربي على البرج بدءا بقطع الامدادات الموجهة إليه من المدينة ... غير أن المغاربة اضطروا للتراجع بعد وصول الامدادات من اسبانيا يوم 24 ماي 1697 م[1]. كما شارك الجيش الاسماعيلي المرابط بقصبة سلوان في حصار برج "سان ميكيل" مع مجاهدي القائد الطاهر بن محمد بن مسعود القيطوني، واستمر وجوده بالقصبة إلى أن اضطر للانسحاب عقب الظروف التي عقبت وفاة المولى اسماعيل.

لكن القصبة سيتم تعميرها من جديد في عهد السلطان محمد بن عبد الله أثناء حصاره لمدينة مليلية، "دخل سيدي محمد إلى سهب بوعرك وقضى ليلته بقصبة سلوان يوم *4* شوال عام *1188* هـ / *8* ديسمبر *1774* م"[2].

خبا بريق القصبة بعد ذلك ولم تستعده إلا مع السلطان الحسن الأول الذي قضى بها رمضان 1291 هـ " ثم مضى السلطان أعزه الله لوجهته حتى بلغ قصبة سلوان على طرف الإيالة المغربية من جهة الشرق، فوفدت عليه قبائل تلك النواحي، وأهدوا ومانوا وأظهروا غاية الفرح والسرور... وأقام السلطان أعزه الله بهذه البلاد حتى عيد الفطر وكان المشهد هنالك عظيما..."[3].

بعد هذه الزيارة الحسنية، أصبحت قصبة سلوان قبلة لرؤساء الحركة المخزنية المعروفة بالحركة الريفية، إما لجمع الزكوات والأعشار، أو أثناء إرسال الإدالات الخاصة بمعالجة أحوال سكان المنطقة والأحداث التي كانت تقع على حدود مليلية [4].

ثم بعد ذلك عرفت القصبة استقرار الروكي بوحمارة سنة 1905 م إلى غاية 1908 م حيث انكشف أمره. ففي 21 أكتوبر 1908 م اجتمع في سوق خميس جزولة زعماء كل قبائل كرط، فقرروا محاصرة الروكي في قلعته بسلوان، هذا الحصار بدأ بعد أسبوع من الاجتماع. حاول بوحمارة أن يفكه ثماني مرات فيما بين 2 و 30 نونبر ، لكنه لم يفلح. فاضطر إلى مفاوضة الشريف محمد أمزيان، فغادر الحصن وتوجه إلى الضفة الأخرى من نهر ملوية [5]. وقبل أن يغادرها مرغما، أحرقها.

بعد إخلائها من بوحمارة ورجاله، كان على متزعمي حركة الجهاد والمقاومة بقيادة محمد أمزيان واسماعيل الشادلي إلى جانب الحاج عمر المطالسي بما تم جمعه من مجاهدي الريف الشرقي [6] حمايتها، والوقوف بالمرصاد ضد الزحف الاسباني نحوها، لكن كفة الإسبان كانت الأرجح، إذ تمكنوا من الاستيلاء

---

[1] - **حسن الفكيكي**، المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلة (1697-1859)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة – البيضاء، الطبعة الأولى 1997، ص 227

[2] - **نفسه**، ص 285

[3] - **الناصري**، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج 9، تحقيق: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، صص 143-144

[4] - **حسن الفكيكي**، معلمة المغرب، ج 15، مطابع سلا، 2002، ص 5091

[5] - **محمد بن عزوز حكيم**، مغامرات بوحمارة، مذكرات من التراث المغربي، ج 5 (1905-1933) تجزئة ومقاومة، Nord organization 1985، ص 48

[6] - **حسن الفكيكي**، الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي الوطني (1908-1912)، ربا نيت، الرباط، الطبعة الأولى، 2008، ص 198

عليها في 27 شتنبر 1909 م رغم كل محاولات المقاومة، لتصبح بذلك ثكنة عسكرية اسبانية.

إن احتلال قصبة سلوان كان بمثابة خسارة كبرى بالنسبة للريف الشرقي عامة ولقلعية خاصة، لكن هذا الاحتلال لم يثنها على مواصلة حركة المقاومة بزعامة الشريف محمد أمزيان.

بعد الاستقلال استمرت القصبة في احتضان ثكنة عسكرية تابعة للقوات الملكية المسلحة، إلى أن غادرتها لتسكنها بعض الأسر المنتمية لمتقاعدي القوات المسلحة الملكية [1]، وكان هذا سببا في الحفاظ على هذه المعلمة، لكن وبعد مغادرة القوات الملكية المسلحة دخلت القصبة في مرحلة من التدهور والاندثار أتى على معظم أسوارها وأبراجها، وهي حاليا في حالة يرثى لها...

2.قصبة فرخانة:

تسمى أيضا جنادة فرخانة، وجنادة هي "صيغة مشتقة من الجند، تستعمل بمنطقة الريف الشرقي خاصة للدلالة على إدالات القصبات ومحطات حراسة الحدود المشرفة على مراكز الوجود الأجنبي"[2].

تلقينا الإشارة الأولى عن وجود هذه جنادة بواسطة مراسلة سلطانية تحمل تاريخ 30 يناير 1891 م، ومنها نعلم أن التأسيس سابق لتلك السنة بوقت غير يسير يعود إلى اضطلاع سكان أخماس قبيلة قلعية بإمكاناتهم الخاصة لتوزيع المساهمات المادية ونوبات العمل بين أخماسها مثلما جرت به العادة، وهذا هو ما نفذ تحت إشراف قائد القبيلة آنذاك المعروف باسم المختار بن محمد بن يحيى ألغم، والواضح من التمادي في مناقشة المعطيات المتوفرة أن أمر البناء صدر في أواخر السلطان محمد بن عبد الرحمن، أما الشروع في التنفيذ فقد تم على أكثر تقدير قبل سنتين من وفاة السلطان. يمكن إذن الإشارة إلى سنة 1871 م، ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن جنادة كانت قائمة الذات سنة 1874 م [3].

أما دواعي تشييد هذه جنادة فيوجد أصولها في اتفاقية 24 غشت 1859 م إثر سقوط أسرى إسبان في أيدي رجال من قبيلة قلعية، وفي بنود معاهدة "واد الراس" بتاريخ 26 أبريل 1860 م عقب حرب تطاوين.إذ لم تجد إسبانيا بدا من الضغط على المخزن المغربي بتنفيذ ما جاء في الاتفاقيتين وبالتالي بناء قصبة فرخانة وتعميرها بالقوات المخزنية، نظرا لمظاهر التوتر التي كانت قائمة بينها وبين قبيلة قلعية الواقفة بالمرصاد لأي تقدم اسباني خارج حدود مليلة.

إذا استثنينا الفترة التي عرفتها القصبة تحت نظر قائد قلعية المختار ألغم، فإن عدد قواد الإدالة القائمين بها بلغ تسعة قواد وكلهم من القوات المخزنية الأجانب عن قبيلة قلعية [4]، هؤلاء القواد كانوا ممثلي المخزن بالمنطقة وبالتالي فدورهم تمثل في الوساطة بين حاكم مليلية وعمال قلعية، وحسب موليراس فقد كانوا مكلفين بمنع الأهالي من الهجوم على الإسبان، وكذا جمع الضرائب .

“Le chef des troupes n’a pas s’occuper d’administration. Il est là pour empêcher les Berbères d’attaquer les Espagnols. Les cinq caïds civils, nommés par le sultan, font

---

[1] ـ قناة "**المغربية**"، برنامج أرحال، 2009/11/20

[2] ـ **حسن الفكيكي**، معلمة المغرب، ج 9، مطابع سلا، 1998، ص 3096

[3] ـ **حسن الفكيكي**، ندوة بفرخانة تحت عنوان: فرخانة.. ناريخ وتراث، من تنظيم المجلس العلمي بالناظور وجمعية النور للتنمية الثقافية والاجتماعية بفرخانة، يوم 28 فبراير 2015

[4] ـ **حسن الفكيكي**، معلمة المغرب، ج 9، المرجع أعلاه، ص 3098

rentrer les impôts, prélèvent les contributions de guerre”.[1]

بل إن أنطونيو برافو نييتو ذهب إلى أبعد من ذلك حين أكد على أن القصبة كانت تحتوي على وحدات عسكرية تابعة للإمبراطوية المخزنية يقودها القائد البشير بن سينا، هذه القوات كانت تدخل إنطلاقا من مليلية نفسها التي تحل بها عن طريق البحر قادمة من طنجة، وهدفها كان حماية مليلية من أعدائها - أبناء الريف - أعداء المخزن أنفسهم [2] .

وحسب ما تبقى من القصبة من معالم، يبدو شكلها شبه مربع، طولها حوالي مائة متر وعرضها حوالي ثمانين مترا.

ومن جملة مرافق القصبة حسب ما أظهرته الوثائق المخزنية، نذكر:

-"مرافق سكنية: واحد منها خاص بإقامة كبراء الإدالة، تتصل به غرفة الاستقبالات والاجتماعات، وهو المعروف في الوثائق المخزنية بالدار، وبها سميت بدار المخزن، وتدل كل القرائن على أن عسكر القصبة كان مستقرا خارج مساحة القصبة، مما يفسر قلة المرافق السكنية.

-بني بجوار القصبة مسجد، كان ملتصقا ببناء القصبة وله مدخلان، الأول يتصل به من داخل القصبة، وهو الباب الخاص بساكنيها، ويرتبط الباب الثاني بالساحة الخارجة عن محيط القصبة، وهو الباب العمومي.

للقصبة قطعة أرض مخزنية صغيرة المساحة لصالحها، وهي محيطة بمساحة المسجد الخارجة عن القصبة " [3].

وللقصبة سور، يبدو أن بناءه تم في عهد المولى عبد العزيز.

إن الطريقة التي بنيت بها القصبة وكذا المواد المستعملة في البناء كانت رديئة مما استوجب اللجوء إلى الإصلاح من حين لآخر، وهو ما كلف به السلطان الحسن الأول الأمين ميمون بن المختار الفرخاني عام 1306 هـ خاصة إصلاح دار المخزن، ثم القائد حم بن الهادي القلعي، فتم ذلك بمساهمات القبيلة [4].

تمكنت قوات بوحمارة من النفاذ إلى القصبة يوم 13 أبريل 1903 م، فتم تخريب أهم مرافقها، وتفجير جدار القصبة، فهربت القوات المخزنية التي كانت داخلها إلى مليلية مستنجدة بسلطاتها التي عملت على نقلها بحرا إلى طنجة مقر السلطان [5]، وهي الحادثة التي استشهد بها **نييتو** على وجود صداقة بين المخزن المغربي والسلطات الإسبانية وذلك للتنسيق من أجل قمع المقاومة الريفية. أما القصبة حاليا فهي ليست أحسن حالا من حال قصبة سلوان، كلاهما في حالة يرثى لها.

---

[1] - **Auguste MOULIERAS**, Le Maroc inconnu, imprimerie FOUQUE, 1895, p 151

[2] - **أنطونيو برافو نييتو**، ندوة بفرخانة تحت عنوان: فرخانة.. تاريخ وتراث، من تنظيم المجلس العلمي بالناظور وجمعية النور للتنمية الثقافية والاجتماعية بفرخانة، يوم 28 فبراير 2015

[3] - **حسن الفكيكي**، معلمة المغرب، ج 9، م.س، ص 3097

[4] - **نفسه**

[5] - **أنطونيو برافو نييتو**، م.س

ملحق:

معسكر إسباني داخل قصبة سلوان سنة 1911 	بعض ما تبقى من قصبة سلوان
قصبة سلوان 	قصبة فرخانة سنة 1909 م
صورة تبين مدى تدهور جدار القصبة : المصدر: علال قيشوح، مهندس ببلدية بني انصار، ندوة فرخانة 2015/02/28 	جدار القصبة

القايْدية و ظاهرة "تيرّويْسا" والمسكوت عنه في شعر الرّايس الحاج بلعيد

اعداد:
ذ.محمد أقديم
باحث في تاريخ الأطلس الكبير

يمكن لأي دارس أو ناقد أو باحث في الأدب الأمازيغي السوسي أن يلاحظ غياب قضية مقاومة الاستعمار و الوطنية في أشعار و أغاني (أمارك) الرّايس الحاج بلعيد، و يمكن له أن يتساءل عن سرّ ذلك الغياب، و لكن العودة الى الظروف السياسية و الاجتماعية التي عاش في سياقها الرايس الحاج بلعيد قد تسعفه في فهم سرّ ذلك الغياب و سبب ذلك السكوت ، و يمكن اعتبار نشأة ظاهرة "الرّوايس" أو "تيرّويسا"- كما يسميها بعض الباحثين- في أحضان "القايدية" بقصبات القواد الكبار و رِياضِهم في مدينة مرّاكش عاملا أساسيا و محدّدا في فهم سرّ غياب قضايا مقاومة الاستعمار و الوطنية في أغاني و أشعار الرّيس الحاج بلعيد، و غيره من الجيل الأول من الرّوايس، من غير الرّايس الحسين جانطي ، الذي ليس سوى استثناء يؤكّد القاعدة.[1]

نشأة ظاهرة «تيرُّويسا» كانت متزامنة أو بالأحرى مصاحبة لنمو السلطة السياسية الفردية المستبدة في النظام القبلي بجنوب المغرب، و لصعود الظاهرة «القايدية» مند منتصف القرن التاسع عشر ، على اعتبار «تِيرُّويْسا» ليست سوى صعودا للفردية الفنية في وسط كان يهيمن فيه الغناء و الرقص الجماعيين(أحواش) على المستوى الفنّي و الثقافي، و حيث شرع العمل الفنّي(الرقص و الغناء) يتحول الى مورد مادي، و مصدر للدخل المالي لممارسيه، فكانت أهم الفضاءات التي تبلورت فيه ظاهرة «الروايس» هي قصور القواد الكبار و دور شيوخ القبائل ، و سنعطي مثالا بالرايس الحاج بلعيد باعتباره المؤسس لقواعد «تِيرُّويْسا»([2]). لقد زار الرّايس الحاج بلعيد و غنَّى في قصبات و دور أكثر من ثلاثين قائدا في منطقة الجنوب المغربي([3])، و على رأسهم : - القايد ين الكلاويين(المدني و التهامي - القايد الجراري - القايد عمر ألحاج الميوميزي - القايد الأخصاصي - القايد بازي بتالكجونت - القايد حيدة أميس - القايد الحسين الكسيمي - القايد الضرضوري - القايد

[1])- هذا المقال عبارة عن مقتطف من دراسة غير منشورة حول" التحولات التاريخية في منطقة الأطلس الكبير الغربي".

[2])- Alexis Chottin – Corpus de Musique Marocaine – fascicule 2 – Librairie Livre Service – dépôt légal n°137 1987 – page : 13.

[3])- محمد ولكاش : تِيرُّويْسا- الجزء الثاني – SOUS IMPRESSION EDITION - الطبعة الأولى سنة 2013– الطبعة الأولى سنة 2013 - ص: 54 - 55.

الدرقاوي التافراوتي - القايد خبان - القايد أنفلوس.

و تتحدث المصادر على أن « أهم القواد الذين يزورهم و تطول إقامته عندهم هم الكلاويين سواء بمراكش و تلوات أو ورزازات"([1]). و نفس الأمر ينطبق على تلميذ الحاج بلعيد الرايس محمد باضاج من أيت بعمران، الذي أهدى له أحد القوّاد الكبار خنجرا(الكمّوية) منقوش عليها اسمه " محمد بن العربي باضاج أمحضار الحاج بلعيد 1359هـ"([2]). و كثيرا ما كانت قصبات القياد في المنطقة و رياضاتهم في مراكش (الكلاوي – الكندافي – الأخصاصي - الشياضمي – المزوضي – الحاحيين...) فضاءات و ملتقيات للكثير من الروايس، الذين يحرص هؤلاء القياد على دعوتهم و إحضارهم للغناء في قصورهم، مقابل ما يمنحوهم من مكافئات و أعطيات مادية، و من هؤلاء الى جانب الحاج بلعيد ، الرايس محمد أوموراك و الرايس محمد أوتزناخت و الرّايس بوجمعة أوتارودانت، و الكثير من الرّوايس.

فارتباط ظهور "تيروّيسا" بالقايدية، و ارتباط القايدية بالاستبداد و الطغيان ، كان عاملا رئيسا في غياب القضايا السياسية و الاجتماعية الكبرى عن أشعار و آغاني الجيل الأول من الرّوايس، كالعدالة الاجتماعية و ظلم القوّاد و بطشهم و جبروتهم، و غيرها من الانتهاكات الفظيعة التي تكشفت عنها المصادر التاريخية، و كما تحتفظ بها الذاكرة الجماعية للقبائل، و تَقصُّها الرواية الشفوية. و ستستمر نفس الوضعية في المرحلة الاستعمارية، خاصة في بداياتها الى غاية الأربعينيات من القرن الماضي، حيث سكتَ غالبية الرّوايس عن مقاومة الاستعمار، التي لم تجد أي صدى لها في أشعارهم وآغانيهم ، بسبب ارتماء معظم القوّاد الكبار بالجنوب المغربي، الذين يطوف الرّوايس في قصباتهم في البوادي و يتقاطرون باستمرار عن رياضاتهم في مراكش، في أحضان الاستعمار، الذي وظّفهم شرّ توظيف في ما يسمى بعملية "التهدئة".

عاصر الرايس الحاج بلعيد أحلك فترة من تاريخ المغرب، حيث عاش بين سنة 1873 و سنة 1946([3])، هذه المرحلة التي وصلت فيها القايدية قمّة تسلّطها و صلفها و جبروتها و استبدادها، و عرف المغرب فوضى قبلية(السيبة) لم يسبق لها مثيل بعد وفاة السلطان الحسن الأول سنة 1894، إذ ترك العرش شبه فارغ ليتحكّم فيه صدره الأعظم "بّاحماد"، و دخلت البلاد في فوضى عارمة، خاصة في منطقة جنوب المغرب، موطن الحاج بلعيد، و لا تكاد قبيلة أو جهة أو منطقة تنفلت من الاضطرابات، التي استمرت الى غاية دخول الاستعمار، حيث كانت منطقة سوس و الأطلس الصغير (تيزنيت - أيت بعمران – الأخصاص – وجان - أكردوس- شتوكة ..) من معاقل المقاومة بزعامة الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين، بل كان سوس و الأطلس الصغير آخر قلعة للصمود تسقط في بداية النصف الثاني من الثلاثينيات الماضية بيد المستعمر، بعد معارك شرسة لقَّنت فيها قبائل المنطقة للاستعمار دروس لن ينساها. كل هذه الأحداث و الوقائع و الملاحم لا صدى لها في آغاني الحاج بلعيد، رغم أنّه يعيش و يتجوّل في خضمّها أو على الأقل غير بعيد عنها، بل دارت معارك عنيفة في قرية وجّان([4])، مسقط رأس

---

[1])- نفس المرجع – ص: 56.

[2])- محمد ولكاش – تيرّويسا – الجزء الأول - مرجع سابق – ص: 92.

[3]) - كما أشار إلى ذلك ألكسيس شوطان، حيث كان الحاج بلعيد يبلغ من العمر ستّين عاما سنة 1933، سنة لقاء شوطان به في مراكش – Alexis Chottin Corpus de Musique Marocaine- IBID : page -13.

[4])- يصف المختار السوسي أطوار المعركة الثانية بين المقاومة و جيش الاحتلال الفرنسي و معاونيه من كبار قوّاد الجنوب(الكلاوي-- العيادي المتوكي- الكندافي- الجراري- الحاحي..) بقيادة الجنيرال دولاموط و الكولونيل جوستنيار(القبطان الشلح) سنة 1917 في قرية وجّان، و هي بلدة الرايس الحاج بلعيد، الذين يكون خلال هذه الفترة قد بلغ الأربعينيات من عمره : "في مفتتح جمادى الثانية(25/1335مارس1917) زحف

الحاج بلعيد، إذ كانت "وجان" أحد معاقل المقاومة التي كانت تهدد التواجد الاستعماري و المخزني في مدينة تيزنيت، و عرفت "وجّان" سنة 1917 معركتين كبيرتين من بين أكبر المعارك العسكرية الشرسة بين المقاومة بزعامة الشيخ أحمد الهيبة ماء العينين و قائده العسكري الناجم الأخصاصي من جهة و القوات الاستعمارية و حلفاءها من قواد المخزن بالجنوب بقيادة حيدة أمّيس([1])، و هنا يمكن أن نتساءل أين كان الرايس بلعيد خلال هذه الفترة و ما محلّ ما جرى في سوس من أحداث جِسام و وقائع عِظام، من حجم الحروب الاستعمارية، في أشعاره و أغانيه، و ما سرّ غياب أي صدى أو أثر لها في إبداعه الشعري و الغنائي، و هو الشاعر الرّايس الذي التقطت موهبته الشعرية و سليقته الغنائية كلّ القضايا و التيمات، و صاغتها إبداعيا في قالب شعري و غنائي قلّ نظيره، فكيف لم تستطع موهبته الشعرية و سليقته الفنية التقاط ما يجري في محيطه السياسي و الاجتماعي من معارك ضارية للمقاومة ضد الاستعمار و حلفاء من قواد الجنوب الكبار .؟؟

و هذا ما يمكن أن يعاينه القارئ فيما كتبه الأستاذ محمد مستاوي حول الرايس الحاج بلعيد، إذ أورد مختلف القضايا التي تمحورت حولها أشعار و أغاني الحاج بلعيد، فحصرها في خمسة محاور(رسالة الشعر- الغزل و الوصف - القصد الاجتماعي - التسجيل- الرحلات) دون أي ذكر لشيء اسم المقاومة و الوطنية لدى الحاج بلعيد ([2]).

غياب شعر المقاومة و الوطنية في ما وصل إلينا من أغاني الحاج بلعيد قد شعر به الاستاذ عمر أمرير دون رغبة في الإفصاح عنه، حيث منعه إنبهاره بشعر و أغاني الحاج بلعيد من التصريح المباشر بذلك الغياب، مما جعله يبحث عمّا يسدّ به هذه الثغرة المسكوت عنها في شعر الحاج بلعيد، و بدل قصارى جهده في البحث في شعر الحاج البلعيد و أغانيه لعلّه يظفر بما يغطّي به هذا النقص دون جدوى ، و يظهر ذلك جليا في ما كتبه الأستاذ عمر أمارير حول بعض المواقف التاريخية للرّايس الحاج بلعيد([3])، إذ لم يستطع أن يورد أي موقف صريح و واضح للرايس الحاج بلعيد من جبروت القوّاد و استبدادهم أو من مقاومة الاستعمار و معاركها الشرسة في سوس و الأطلس الصغير بقيادة الشيخ أحمد الهيبة و ماء و العينين. و لم يبيّن الأستاذ أمرير في أحد مقالاته كيف اتخذ الحاج بلعيد "الأغنية سلاحا"([4]) يدافع به عن كرامة شعبه و وحدة وطنه كما قال ، رغم أن الرايس الحاج بلعيد لم يفصح عن أي موقف واضح من استبداد القواد و من شطط الاستعمار و مخططاته، و

الجيش(الاستعماري) الى وجان، فصار يرسل على من فيه القذائف المتتالية كالرعود القاصفة، فأجل المجاطيون الى وجان، فصاروا ينزلون من ثنية فوقه، و في أثناءها أصلتهم المدافع نارا حامية، فسقط بسببها من مجاط فقط نحو80 قتيلا و نحو 40 جريحا، ثم صابر الولتيتيون النهار كلّه صبرا غريبا، فكم مرّة صارت المدافع توالي قذائفها، حتّى تحسب المدفعية أن الطريق مفتوح، فتتقدّم الفيالق حتى تكثب(تقترب) المختبئين، فيرسلون عليها شوطا من الرصاص، فيسقط من الصفوف ما يسقط، ثم يرجع الباقون، و لم يزل كذلك إلى الليل، فرجع الجند المنظم وراءه إحتياطا لئلا يبيت، فبقي الحاج الطيب الكنتافي و القائد عياد الجراري يحرسان وراء وجان في جوف الليل، و في أثناء الليل جرت المخابرة بين عياد و بين الشيخ أحمد الأمازري البعقيلي ، أدت إلى إخلاء وجان في جوف الليل ، فخرج منها الشيخ النعمة، كما خرج جميع أهل وجان، و ما ذلك إلا من خوف أن يكون اليوم الثاني أعصب من اليوم الأول الذي رأوا فيه ما رأوا، و وقد خرج كثير من الولتيتيون من وجان ليلا مرغمين . و يقال أن الأمازري قد توصل بدراهم كثيلرة لتمثيل هذا الدور." (انظر: محمد المختار السوسي – المعسول- المطبعة الملكية - الجزء 4 – ص: 206.)

[1]) – عبد الله كيكر – الاحتلال الفرنسي لسوس: معارك ووقائع و أحداث- مطابع الرباط نت – ط 1 – 2013 – ص: 116- 117.

[2])- - محمد مستاوي - "الرايس الحاج بلعيد : حياته و قصائد مختارة من شعره"– سلسلة أعلام الأدب المغربي الأمازيغي- مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء – الطبعة الرابعة 2012.

[3]) – عمر أمرير – الحاج بلعبد و بعض مواقفه التّاريخية – ءامالو- مطابع دار الكتاب الدار البيضاء – الطبعة 1 سنة 1978 – ص: 116-122.

[4]) – المرجع نفسه – ص: 118.

لا ندري كيف يمكن اعتبار أغنية الحاج بلعيد حول رحلته الى الحج، و ما ذكره مما شاهده خلال رحلته في مصر و تركيا و سوريا و الديار المقدسة، "قنبلة في أساس التصميم الاستعماري" كما كتب الأستاذ أمرير([1]). و لا نعتقد أن وصف الحاج بلعيد للمعالم التاريخية و المناظر الطبيعية لدولة مصر ستضيف شيئا للوعي السياسي للأمازيغ بالمغرب الأقصى، لدرجة يصبح معها ذلك " ألغاما و خنادق" تهدد مصالح الاستعمار بالمغرب و مخططاته.

[1])- المرجع نفسه – ص: 119.

المقالات المنشورة بالمجلة تعبر عن آراء أصحابها

المدير المسؤول: د.محمد أبيهي الهيئة العلمية: دة.خديجة الراجي-د.خالد الصقلي-د.مصطفى المرون -د.محمد أبيهي-د.مصطفى الريس-د.خالد اقعسو-د.عبد الرزاق السعيدي